غيث المواهب العلية
في
شرح الحكم العطائية

لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفزي الرندي

٧٣٢ - ٧٩٢ هـ

تحقيق

الدكتور عبد الحليم محمود و الدكتور محمود بن الشريف

الجزء الثاني

الطبعة الثانية

دار المعارف

تلمسان ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة

سعيد عبده مصطفى

كتب ثقافية

تصميم الغلاف:

دعاء عبد الواحد

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني
بدار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل -
القاهرة - جمهورية مصر العربية

ابن عبـاد، محمد بـن إبراهيم بن عبـد الله بن مالك بـن إبراهيم بن محمد بـن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد النفزى الحميرى، 1333 - 1390.

غيـث المواهب العلية فى شـرح الحكـم العطائية/ لأبى عبـد الله محمد بـن إبراهيم بن عباد النفـزى الرندى؛ تحقيق: عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف.

ط 02 - القاهرة: دار المعارف، 2015.

مج 2، 19.5 سم

تدمك 7 8268 02 977 978

1 - التصوف الإسلامى.

(أ) محمود، عبد الحليم، 1910 - 1978 (محقق).

(ب) بن الشريف، محمود. (محقق مشارك).

(ج) العنوان.

تصنيف ديوى: 260

رقم الإيداع: 23610/ 2015

رقم أمر التشغيل: 62/ 1/2015

رقم الكونجرس: 8 - 840025 - 01 - 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
الا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين، وخير الخلق أجمعين: سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هديه إلى يوم الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث جعل الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه.

لا دليل على الله سواه، ولا وصول إليه بغيره، وكذلك أولياؤه. ولمّا كان الوصول إلى الله تعالى، لا يكون إلّا بالعنايةِ والخصوصية، ويستحيل أن يكون بطلب أو سبب كان أولياؤه المخصوصون بالقرب منه، كذلك لمّا خلع عليهم الخِلَعَ العظيمة، وتولّاهم بمننه الجسيمة، فاصطفاهم لنفسه، واختصَّهم بمحبته وأنسه، وطهر أسرارهم من أنجاس الأغيار، وصان قلوبهم بما أودع فيها من الأنوار والأسرار، فكانوا لذلك صفوته فى عباده، وخباياه فى بلاده، كما قال فى بعض الإشارات عنه سبحانه: «أوليائى تحت قبابى لا يعرفهم أحدٌ غيرى» وهذا من غَيْرته عليهم؛ لأن الحق تعالى أغْير على أوليائه من أن يُظهرهم إلى من لا يعرفهم، فلم يجعل لأحد دليلا عليهم إلا من حيثُ الدليلُ عليه، وَلم يوصّل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه، لأنه يُلبسهم لباس التلبيس بين الأنام، ويُظهرهم بما يُحقّرهم فى أعين الخواص والعوام، فلم يكن لأحد دليلٌ عليهم أو وصول [بسبب] إليهم.

قال فى «لطائف المنن»: «فأولياء الله أهلُ كهف الإيواء؛ فقليل من يعرفهم».

قال: وقد سمعته يقول (يعنى شيخه أبا العباس المرسى رضى الله عنه): «معرفة الولىّ أصعبُ من معرفة الله، فإن الله معروف بكماله وجماله، وحتى متى

تعرف مخلوقًا مثلَك يأكل كما تأكل، ويشرب كما تشرب؟» ثم قال: وإذا أراد الله أن يُعرّفك بولىّ من أوليائه طوى عنك وجود بشريته، وَأشهدك وجود خصوصيته. وقال صاحب كتاب «أنوار القلوب»: «لله سبحانه وتعالى عبادٌ ضَنَّ بهم على العامة وأظهرهم للخاصة، فلا يعرفهم إلا شَكْلٌ مثلهم، أو محبٌّ لهم، ولله تعالى عباد ضَنَّ بهم على الخاصة والعامة وعباد أظهرهم للخاصة والعامة. ولله تعالى عبادٌ يُظهرهم فى البداية ويسترهم فى النهاية، ولله عباد يظهرهم فى النهاية ويسترهم فى البداية، ولله عباد لا يظهر على حقيقة ما بينه وبينهم إلا الحفظة مما سواه حتى يلقونه بما أودعهم منه فى قلوبهم وهم «شهداء الملكوت الأعلى والصفح الأيمن من العرش الذين يتولى الله قبض أرواحهم بيده، فتطيب أجسادهم به، فلا يعدو عليها الثرى حتى يُبعثوا بها مشرقةً بنور البقاء المجعول فيهم ببقاء الأبد مع الباقى الأحد عزّ وجلّ». انتهى.

وقال أبو يزيد رضى الله عنه: «أولياء الله عرائس، ولا يرى العرائس إلا من كان مَحْرمًا لهم، وأما غيرهم فلا، وهم مخدَّرون عنده فى حجال[1] الأنس لا يراهم أحد فى الدنيا ولا فى الآخرة».

وقال أبو على الجوزجانى، رضى الله عنه: «الولىّ هو الفانى فى حاله[2]، الباقى فى مشاهدة الحق، تولّى الله سبحانه سياسته فتوالت عليه أنوار التولى، لم يكن له عن نفسه إخبار[3]، ولا مع غير الله عزَّ وجلَّ قرار».

وفى الإشارات عن الله سبحانه وتعالى: «إنما سميتُ الولى وليًّا، لأنه يليني دون ما سواى»؛ فهم منزّهون بتنزيه الحق تعالى لهم من أن يوصل إليهم بغيره،

---

(١) حجال جمع حجلة [بفتح الحاء والجيم]، والحجلة: ستر يضرب للعروس، أو بيت يزين لها.

(٢) وفى نسخة فى جلاله

(٣) وفى نسخة اختيار

ولذلك صدّر المؤلف كلامه بالتسبيح.

«ربما أطلعك على غيب ملكوته وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد».

من لطف الله تعالى إخفاء أسرار الناس بعضهم عن بعض، لاسيما سرّ يقتضى وجود عيبٍ. وهو ظاهر ما ذكره المؤلف هنا بدليل الكلام الذى عقّبه به، وقد يظهر لبعض الناس ما سوى ذلك من الأسرار الملكوتية، ووجه الفرق بينهما ما ذكره المؤلف الآن، ويحتمل أن يريد ما هو أعم مما ذكرناه، ويدخل فى ذلك أسرار الولاية؛ إذا اختص الله بها بعض عباده ويكون فى ذلك تنبيه على العلّة الموجبة لخفاء الولى حسبما ذكره المؤلف فى المسألة التى فرغنا منها حتى يمتنع الوصول إليه بطلب أو سبب. وإخفاء ذلك أيضا عن عامة المؤمنين من النعم العظيمة؛ إذ لو ظهرت أسرار الولاية على أحد لأوجبت على من ظهرت له حقوقًا لا يقدر على القيام بها، فإن فرّط فى ذلك وترك القيام بتلك الحقوق رأسًا وقع بسبب ذلك فى محذورات لا يقوم لها شىء، وقد فهمتُ هذا المعنى من كلام سهل بن عبد الله، وقد سأله بعض تلاميذه: كيف تعرف أولياء الله تعالى؟. فقال: إن الله تعالى لا يُعرِّفهم إلا لأشكالهم أو من أراد أن ينفعه بهم، ولو أظهرهم حتى يعرفهم الناس لكانوا حجة عليهم، ومن خالفهم بعد علمه بهم كفر، ومن قعد عنهم خَرج[1]، ولكن الله تعالى جعل اختياره تغطية أمورهم؛ رحمة منه لخلقه ورأفة، ولكن الله تعالى قد أخبر بكرامتهم فقال عزّ وجلّ ﴿الله وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[2] ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3] فأفردهم به،

---

(١) قعد عنهم: أى تأخر عنهم. وفى نسخة: ومن قعد عنهم حرج

(٢) آية ٢٥٧: البقرة (٣) آية ٦٨: آل عمران

ولو أظهرهم حتى يبرزهم لكان فى النظر إليهم حجة، وكان الاستماع لحديثهم (فرضًا) انتهى.

والمعنى الذى ذكرته فى هذه المسألة فهمته من الكلام الذى ذكره الشيخ أبو طالب رضى الله عنه فى كتاب «الشكر» قال فيه: «ثم بعد ذلك من لطائف المنعم شمولُ ستره لهم، بعضهم من بعض، ونشرهم عند العلماء والصالحين منهم، ولولا ذلك لما نظروا إليهم، ثم حجب الصالحين عنهم، ولو أظهر عليهم آياتٍ يُعرفون بها حتى يكون الجاهلون على يقين من دلالة الله تعالى لهم، وقربه منهم لبطل ثواب المحسنين إليهم، ولحُرِمَ قبول إحسانهم عليهم، ولحبطَت أعمال المسيئين إليهم، ففى حجب ذلك وسترِه ما يحمل العاملين فى الخير والشر على الرجاء وحسن الظن من وراء حجاب اليقين، وتأخرت عقوبات المؤذين لهم عن المعاجلة لما ستر عليهم من عظيم شأنهم عند الله عزّ وجلّ وجليل قدرهم؛ ففى ستر هذا نعم عظيمة على الصالحين فى نفوسهم من سلامة دينهم وقلّة فتنتهم، ونعم جليلة على المنتهكين لحرمتهم المصغّرين لشعائر الله من أجلهم، إذ كانوا أساءوا إليهم من وراء حجاب، فهذا هو لطف خفىّ من لطف المنعم الوهاب، كما جاء فى الخبر: «من آذى لى وليًّا فقد بارزنى بالمحاربة، ثم أنا الثائر لوليى».

فقد يكون مثل ذلك: من آذى نبيًا، وهو لا يعلم بنبوّته قبل أن يُخْبِر أنه رسول الله، وأن الله عز وجل نبّأه، فلا يكون وزرُه وزرَ من انتهك حرمةَ من كان أعلمه أنه نبىّ لله عزّ وجلّ لعظيم حرمة النبى» انتهى ما ذكره الشيخ أبو طالب. والوجه الأوّل أولى فى تقرير معنى ما ذكره المؤلف. والله تعالى أعلم.

«من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه، وسببًا لجر الوبال إليه»

المطلع على السرائر التى تقتضى وجود العيب[١] إذا لم يتخلّق صاحبه بالرحمة الإلهية فيرحم المذنبين ويحلم على الظالمين ويصفح عن الجاهلين، ويُحسن إلى المسيئين، ويرأف بعباد الله أجمعين؛ فإنه يكون ذلك الاطلاع فتنةً عليه؛ لأن ذلك يؤديه إلى رؤية نفسه واستعظام أمرها، والعجبِ بعمله والتكبّر على غيره، وهذا هو أعظم الفتنة، ويكون ذلك سببًا إلى جرّ الوبال إليه: من ادّعائه لصفات ربّه، ومنازعته لكبريائه وعظمته، وهذا هو أعظم الوبال، وغاية الخزى والنكال.

وفى بعض الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما نزُعت الرحمة إلّا من قلب شقى»[٢].

وفى حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، رضى الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»[٣].

وفى الإشاراتاعن الله تعالى أنه قال: «عبدى، إن استخلفتك شقّقت لك من الرحمة شقّا فكنتَ أرحمَ بالمرء من نفسه».

وقد أدّب الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام فى بعض مواطنه العظيمة المقدار، وعلّمه كيف يتخلق بهذا الخلق الكريم عند اطلاعه على الأسرار.

روى عن قسامة بن زهير رضى الله عنه أنه قال: «بلغنى أن إبراهيم عليه السلام حدّث نفسه أنه أرحم الخلق، قال: فرفعه الله تعالى حتى أشرف على

---

(١) وفى نسخة: وجود الغيب.

(٢) رواه أبو داود والترمذى والإمام أحمد عن أبى هريرة بإسناد حسن بلفظ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقى».

(٣) رواه أبو داود والترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما.

أهل الأرض فأبصر أعمالهم وما يفعلون، فقال: يارب دمّرهم. فقال الله تعالى: أنا أرحم بعبادى منك يا إبراهيم، اهبط إلى الأرض فلعلهم يتوبون ويرجعون».

وعن على رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، قال: «لما أرى الله إبراهيم ملكوت السموات والأرض أشرف على رجل مُخْتِلى بمعصية من معاصى الله عزّ وجلّ، فدعا الله عليه، فهلك، وكذلك على آخر.. وآخر.. فهلكوا، فأوحى الله إليه أن يا إبراهيم إنك رجل مستجاب الدعوة فلا تَدْعُ على عبادى، فإنهم منّى على ثلاث خصال: إمّا أن يتوب العبد منهم فأتوب عليه، وإما أن أُخرج منه نَسَمَةً تُسَبح لى، وإمّا أن يُبعث إلىَّ فإن شئتُ عفوت عنه، وإن شئتُ عاقبته».

وقيل: إن سبب أَمْر اللّهِ له بذبح ولده هو هذا المعنى الذى ظهر منه من غلظته على العصاة وقلّة رحمته لهم.

وقد ذُكر فى بعض التفاسير أنه عليه السلام كان يُعرَج به كلَّ ليلة إلى السماء وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1] فَعُرج به ذات ليلة فاطّلع على مُذنب يفعل فاحشة، فقال: اللهم أهلكه، يأكل رزقك ويمشى على أرضك ويخالف أمرك؟! فأهلكه الله تعالى: فاطلع على آخر فقال: اللهم أهلكه، فنودى: «كُفَّ عن عبادى رويدًا رويدًا فإنى طالما رأيتهم عاصين» فلما هبط رأى فى المنام ما ذكر الله تعالى عنه حيث يقول: ﴿إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾[2] فلما تشمَّر لذلك وأخذ السكين بيده قال: اللهم هذا ولدى وثمرة فؤادى وأحبّ الناس

---

(١) آية ٧٥ من سورة: الأنعام.

(٢) آية ١٠٢ من سورة الصافات.

إلىّ، فسمع قائلاً يقول: أما تذكر الليلة التى سألت فيها إهلاك عبدى؟! أَوَمَا تَعلم أنى رحيم بعبادى كما أنت شفيق بولدك، فإذا سألتنى إهلاك عبدى أسألك ذبح ولدك واحدًا بواحد، والبادى أظلم..

حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى وحظها فى الطاعات باطن خفى، ومداواة ما يخفى صعب علاجه

النفس من شأنها أبدًا طلب الحظوظ والفرار من الحقوق، فهى لا تسعى إلاّ فى ذلك. ولو فى عملها فى الطاعات فضلاً عن المعاصى، ومن حاسب نفسه وراقب خواطره تبين له مصداق هذا.

وقد تجد من النشاط واللذة فى نوع من العبادة مالا تجده فى نوع آخر وإن كان هذا النوع الآخر أتمَّ فضيلة منه، وما ذاك إلاّ من أجل أن حظها فيه أكثر من الآخر؛ فأهل الخبرة والبصيرة يتهمون أنفسهم إذا أَلِفت بابًا من أبواب العبادات لمعرفتهم بخدعها ومكايدها، فيشوّشون ذلك عليها وينتقلون منه.

وقد حكى عن أبى محمد المرتعش، رضى الله عنه، أنه قال: «حججت كذا وكذا حجةً على التجريد فبان لى أن جميع ذلك كان مشوبًا بحظى؛ وذلك أن والدتى سألتنى يومًا أن أستقى لها جرّة ماء، فثقل ذلك على نفسى، فعلمت أن مطاوعة نفسى فى الحجّات كانت بشوبٍ وحظ من نفسى؛ إذ لو كانت نفسى فانية لم يصعب عليها ما هو حقّ فى الشرع»، فهذا مما يبين أن حظ النفس فى الطاعة موجود، ولكنه خفىّ على العامل، فلذلك تعسر مداواته؛ لأنه يحتاج إلى دقّة فهم ونفوذ إدراك، فليتطلب بذلك آفاتِ نفسه، ولطائفَ خِدعها، وخفايا حظوظها، فيعمل على تصفية عمله من ذلك. فلا جرم إذ كان ذلك متعذرًا يجب عليه اتهام نفسه، ومخالفتها فى كلّ ما تدعو إليه كائنًا ما كان.

قال الشيخ أبو بكر الخفاف، رضى الله عنه: «سمعت بعض مشايخى يقول عن أحمد بن أرقم البلخى قال: حدثتنى نفسى بالخروج إلى «اسبيجاب» للغزو، فقلت: سبحان الله، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[١] وهذه تأمرنى بالخير!! لا يكون هذا أبدًا، ولكنها استوحشت، فتريد لقاء الناس، فتستروح به، ويتسامع الناس بها فيستقبلونها بالبرّ والتعظيم والإكرام، فقلت لها: لا أسلك العمران ولا أنزل على معرفة. فأجابت، فأسأت ظنّى بها وقلت: والله أصدق قولا. فقلت لها: أقاتل العدوّ حاسرًا[٢] فتكونى أوّل قتيل. فأجابت... وَعَدَّ أشياءَ مما أرادها به، فأجابت إلى كل ذلك. فقلت: يارب، نبهنى لها، فإنى لها متّهم، ولقولك مُصدِّق، فألهمتُ كأنها تقول لى: إنك تقتلنى كلَّ يوم مراتٍ؛ بمخالفتك إيّاى ومنعِ شهواتى ولا يشعر بى أحدٌ، فإن قاتلتَ فقُتلتُ كانت قتلةً واحدَة فنجوتُ منك ويتسامع الناس فيقال: استشهد أحمد فيكون شرفًا لى وذكرًا فى الناس. قال: فقعدتُ ولم أخرج ذلك العام.

فهكذا خِدَع النفس وغدرها. أعاذنا الله من شرّها، وسيأتى من كلام المؤلف [إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه، فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا].

ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك.

رياء العبد بالعمل حيث يكون بمرأى من الناس ظاهر، لا يحتاج إلى أمارة عليه، ورياؤه بعمله حيث لا يراه أحد أمرٌ خفىٌّ لا يُعرف إلّا بالأمارات والعلامات، بل هو أخفى من دبيب النمل، ومن أماراته: أن يلتمس بقلبه توقير الناس له وتعظيمه وتقديمه فى المحافل والمجالس، ومسارعتهم إلى قضاء

---

(١) الآية ٥٣ من سورة يوسف.

(٢) أى بلا درع ولا أدوات قتال.

حوائجه، وإذا قصّر أحدهم فى حقّه الذى يستحقه عند نفسه استبعد منه ذلك واستنكره، ويجد تفرقه بين إكرامه وإكرام غيره، وإهانته وإهانة سواه، حتى ربما يظهر بعض سخفاء العقول ذلك على ألسنتهم، فيتوعّدون مَن قصَّر فى حقّهم بعاجلة الله له بالعقوبة، وأن الله تعالى لا يدعهم حتى ينتصر لهم ويأخذ بثأرهم، فإذا وجد العبد هذه الأمارات من نفسه فليعلم أنه مُراءٍ بعمله وإنْ أخفاه عن أعين الناس!!.

وقد روى عن على بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة للفقراء: ألم تكونوا يرخّص لكم فى السعر... ألم تكونوا تبادَرون بالسلام... ألم تكن تُقضى لكم الحوائج»، وفى الحديث الآخر: «لا أجر لكم قد استوفيتم أجوركم».

وقال عبدالله بن المبارك: روى وهب بن منبه أن رجلا من العبّاد قال لأصحابه: إنما فارقنا الأموالَ والأولاد مخافةَ الطغيان، فنخاف أن يكون قد دخل علينا فى أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال فى أموالهم، إن أحدنا إذا لقى أحبَّ أن يُعظَّم لمكان دينه وإن سأل حاجةً أحبَّ أن تُقضى له، لمكان دينه، وإن اشترى شيئًا أحبَّ أن يرخص عليه، لمكان دينه، فبلغ ذلك ملكُهم، فركب فى موكب من الناس، فإذا السهل والجبل قد امتلأ من الناس، فقال السائح: ما هذا؟ فقيل له: هذا الملك قد أتاك. فقال للغلام: ائتنى بطعام، فأتاه ببقل وزيت وقلوب[1] الشجرة، فأقبل يحشو شدقه ويأكل أكلاً عنيفًا... فقال الملك أين صاحبكم؟ قالوا: هذا. قال: كيف أنت؟!! قال: كالناس [وفى حديث آخر: بخير] فقال الملك: ما عند هذا من خير!!

---

(١) القلب [بالضم]، والقلب [بالفتح]، والقلب [بالكسر] من الشجرة: ما رخص من أجوافها، والجمع: أقلاب وقلوب وقلبة.

فانصرفَ عنه، فقال السائح: الحمد لله الذى صرفك عنّى وأنت لى ذامٌّ.

ومن هذا النوع من الرياء خوف الكبار، وعدُّوا أنفسهم بسببه من الأشرار كما روى عن الفضيل بن عياض، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: «من أراد أن ينظر إلى مُراء فلينظر إلىّ» وسمع مالك بن دينار، رضى الله عنه امرأة وهى تقول يا مُرائى!! فقال لها: يا هذه، وجدتِ اسمى الذى أضلّه أهل البصرة، ودخل رجل على داود الطائى رضى الله عنه فقال: ما حاجتك؟ قال: أريد زيارتك، فقال: أمّا أنت فقد عملت خيرًا حين زرت، ولكن انظر ماذا ينزل بى أنا إذا قيل لى: من أنت لِتزار؟ أمِن الزهّاد أنت؟ لا، والله، أمِن العُبَّاد أنت؟ لا، والله، أمِن الصالحين أنت!! لا، والله. ثم أقبل يُوبخ نفسه ويقول: كنت فى الشبيبة فاسقًا فلمّا كبرتُ صرتُ مُرائيًا، والله، لَلْمُرائى شرٌّ من الفاسق... إلى غير هذا مما رُوى عنهم فى هذا المعنى.

ولا يسلم من الرياء الخفىّ والجلىّ إلا العارفون الموحّدون، لأن الله تعالى طهرهم من دقائق الشرك، وغيّب عن نظرهم رؤية الخلق بما أشرق على قلوبهم من أنوار اليقين والمعرفة، فلم يرجو منهم حصول منفعة، ولم يخافوا من قِبلهم وجودَ مضرَّةٍ، فأعمال هؤلاءِ خالصة وإن عملوها بين أَظْهُر الناس، وبمرأى منهم.

ومن لم يحظ بهذا وشاهد الخلق، وتوقّع منهم حصول المنافع ودفع المضارّ فهو مراء بعمله، وإن عبد الله تعالى فى قُنّة[1] جبل بحيث لايراه أحد ولايسمع به. وقد تقدّم من قول يوسف بن الحسين بن الرازى رضى الله عنه: «أعزُّ شىء فى الدنيا: الإخلاص، وكم اجتهد فى إسقاط الرياء عن قلبى فكأنه ينبت فيه على لون آخر».

---

(١) وفى نسخة: قلة جبل، وقلة الجبل أعلاه، والقنة: الجبل الصغير.

استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك.

الخصوصية هنا: ما اختص الله تعالى به بعض عباده من علم نافع، أو عمل صالح، وصدق العبودية فيه: أن يقنع بعلم الله تعالى فيه بحاله ولايتطلع إلى أن يعرف بذلك أحدٌ من الخلق، فيشغله حينئذ الحياءُ من ربه والشكرُ له عن الاستشراف إلى معرفة الخلق بذلك، ويغار على حاله من رؤية الأغيار له، ولهذا فُضل عمل السّر على عمل العلانية بسبعين ضعفًا كما ورد فى الخبر عن نبينا ﷺ.

وقال عيسى عليه السلام: «إذا كان يومُ صوم أحَدكم فليدهن رأسه، وليمسح شفتيه، فإذا خرج إلى الناس رأوا أنه لم يصم، وإذا أعطى أحدُكم فليعط بيمينه وليخفها عن شماله، وإذا صلّى أحدكم فليسدل عليه سِتْر بابه، فإن الله تعالى يقسم الثناء كما يقسم الرزق».

وقد سئل حكيم من الحكماء عن علامة الصادق، فقال: كتمان الطاعة.

وقال أحمد بن أبى الحوارى رضى الله عنه: «من أحبّ أن يُعرف بشىء من الخير ويُذكر به، فقد أشرك فى عبادته، لأن من عبد الله تعالى على المحبة لا يُحب أن يرى خدمته سوى مخدومه»

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله تعالى عنه: «كل من لم يقنع فى أفعاله وأقواله بسمع الله ونظره دخل عليه الرياء لا محالة»

وقال بعضهم: «ما أخلص أحدٌ قطّ، إلا أحبَّ أن يكون فى جُبٍّ لايُعرف».

وقال سهل بن عبد الله التسترى: «من أحبَّ أن يطّلع الخلق على مابينه وبين الله فهو غافل»

وقال أبو الخير الأقطع رضى الله عنه : «من أحبّ أن يطلع الناس على عمله فهو مراء، ومن أحبّ أن يطلع الناس على حاله فهو كذاب»

وقال بعضهم لمن استوصاه: «لاتحب أن تُعرف، ولا تحب أن تَعرف أنك ممن لايُحبُّ أن يُعرف»

فعلى العبد إخفاءُ حاله جهده، وأن يبلغ فى كتمانه أقصى ماعنده. قال الحسن، رضى الله عنه: أدركت أقواما مامن أحدٍ منهم يستطيع أن يُسر شيئا من عمله إلا أسرّه، وإن كان الرجل ليجلس مع القوم وإنه لفقيه وما يُعلم به، حتى يقوم،

ولقد أدركت أقوامًا يأتى أحَدهم الزور[١] فيقوم فيصلى ومايشعر به الزَّوْر. ولقد أدركت أقوامًا وما من عمل يقدرون أن يعلموه لله سرًّا فيكون علانيةً أبدا، ولقد أدركت أقواما يجمع أحدهم القرآن وما يَعرف به جارُه، ولقد أدركت أقوامًا لايجتهدون فى الدعاء ومايسمعهم أحد». وقال محمد بن واسع، رضى الله عنه: «أدركت رجالاً كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بلّ ما تحت خدّه من دموعه لاتشعر به امرأته، ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم فى الصف فتسيل دموعه على خدّه ولايشعر به الذى إلى جنبه وفى رواية عنه: إن كان الرجل ليبكى عشرين سنة وامرأته معه لاتعلم، فإن وقع منه إعلانٌ وإظهار فى وقت مّا فليشتغل حينئذ بمراقبة قلبه وصونه عن أن يعمل فيه الفرح باطلاع الناس على حاله، ولينكر ذلك على نفسه، وليكرهه، ولا يرضه منها، وليجاهد نفسه فى ذلك أشد المجاهدة؛ فإن خالف هذا واستشرف إلى معرفة غير الله بحاله، وغفل عن مجاهدة نفسه فى حال ظهور

---

(١) الزوار والقاصدون. قال فى القاموس: زاره يزوره زيارة وزورًا: قصده فهو زائر وزور [بسكون الواو]

ذلك منه، ولو فى لحظة خيف عليه أن يعمل الفرح فى قلبه فيقع عند ذلك فى الفتنة؛ فإن كان ضعيف الإرادة لم يسلم من الوقوع فى الرياء الجلى والخفى؛ لأن سببه قد استتب له.

وإن كان قوى الإرادة وسالكًا سبيل المعرفة لم يسلم من السكون والركون، فيفقد حينئذ الغَيْرة على الحال، وينحط بذلك من ذروة الكمال، ولهذا كان إسقاط المنزلة عند الناس من ضروريات سالكى هذه الطريقة كما تقدّم عند قوله: [ادفن وجودك فى أرض الخمول] فإن تحقق العبد فى المعرفة ومشاهدة الوحدانية الصرفة جاز له الإخبار بأعماله، والإظهار بمحاسن أحواله؛ بناء منه على نفى الغير وأداء لواجب حقِّ الشكر.

كان بعض السلف يُصبح فيقول: صليتُ البارحة كذا وكذا ركعة، وتلوت كذا وكذا سورة، فيقال له: أما تخشى الرياء؟! فيقول: ويحكم، وهل رأيتم من يرائى يفعل غيره». وكان آخر يفعل مثل ذلك فيقال له: لم لاتكتم ذلك؟ فيقول: ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1] وأنتم تقولون: لاتحدّث!!

فإن قصد من هذا حَاله إلى هداية عباد الله ودعاهم إلى الله تعالى، فأظهر أحواله وأعماله للاقتداء به، والاهتداء بهديه فهو خارج عن النمط الأول كلّه، وداخل فى هذا المنزع الثانى، وعلانية هذا أفضل من سره؛ لأنه سلم من الآفات التى تعرّض لها غيره وحصلت منه الفوائد التى تضمنها إظهارُه وجهرُه. وقد جاء فى الخبر: «السرُّ أفضلُ من العلانية والعلانيةُ أفضل لمن أراد الاقتداء». وهذا أرجح الوجوه عند العلماء فى قوله ﷺ للرجل الذى سأله عن

---

(١) آية ١١ من سورة الضحى

فرحه باطلاع الناس على بعض أعماله: «لك أجران: أجر السرّ وأجر العلانية» وقد فَصَّل[١]، ما ذكرناه من إظهار الطاعة، جماعة من الصحابة والتابعين منعنا من ذكر وقائعهم خشية الإطالة، وكان ذلك منهم لأجل هذا الغرض. ومقام هذا العبد مقام النصحاء لعباد الله والدعاة لهم إلى الله، فلا جرم كان له الدرجات العلا عند الله تعالى؛ لأنه من أئمة المتقين لله وقد أخبر الله تعالى بجزائهم وذكره عقيب دعائهم بذلك فقال عز من قائل: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا، وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[٢].

قال فى «لطائف المنن»: اعلم أن مبنى أمر الولى على الاكتفاء بالله، والقناعة بعلمه، والاعتناء بشهوده. قال الله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[٣] وقال سبحانه ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[٤] وقال ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرَى؟﴾[٥] وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٦] فمبنى أمرهم فى بدايتهم على الفرار من الخلق، والانفراد بالملك الحق، وإخفاء الأعمال، وكتمان الأحوال تحقيقًا لفنائهم، وتثبيتًا لزهدهم، وعملًا على سلامة قلوبهم، وحبًّا فى إخلاص أعمالهم لسيدهم، حتى إذا تمكّن اليقين وأيدوا فى الرسوخ والتمكين وتحققوا بحقيقة الفناء، وردوا إلى وجود البقاء فهناك إن شاء الحق أظهرهم وإن شاء سترهم، وإن شاء أظهرهم هادين لعباده إليه، وإن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شىء إليه. فظهور الولى ليس بإرادته لنفسه، ولكن بإرادة الله تعالى له، بل مطلبه - إن كان له مطلب - الخفاء لا الجلاء -

---

(١) وفى نسخة فعل
(٢) آيتا ٧٥،٧٦ من سورة الفرقان
(٣) آية رقم ٣ من سورة الطلاق
(٤) آية رقم ٣٦ من سورة الزمر
(٥) آية رقم ١٤ سورة العلق
(٦) آية رقم ٥٣ من سورة فصلت

كما قدمناه، فلما لم يكن الظهور مطلبهم وأراد الله سبحانه إظهارهم فأظهرهم، تولاهم فى ذلك بتأييده، وواردات مزيده؛ لقوله ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: «لاتطلب الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وان أعطيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها». ومن تحقق منهم بالعبودية لله تعالى لم يطلب ظهورًا ولاخفاء،بل إرادته وقفٌ على اختيار سيده له.

وقال الشيخ أبو العباس المرسى، رضى الله تعالى عنه،: «من أحبَّ الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحبَّ الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبدًا لله فسواء عليه أظهره أو أخفاه».

غب عن نظر الخلق إليك بنظر الله إليك، وغب عن شهود إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك.

هذا المعنى هو حقيقة صدق عبودية العبد لله تعالى الذى أشار إليه فى المسألة التى قبل هذه، وهو ألَّا يكون له شعورٌ بما من الخلق إليه، من نظر، وإقبال، ولاتشوف إليه، ولا طلب له، وإنما يكون شعوره وتشوفه وطلبه مقصورًا على ما من الله إليه من نظره إليه، وإقباله عليه، فيغيب أدنى الحالين بأعلاهما؛ وذلك بأن يعلم أن ما من الخلق إليه أمر وهمىّ باطل ينقاد إليه كل ذى عقل قاصر يوجب له هذا الانقياد أنواعا من الكبائر والرذائل من الانحطاط فى أهواء الناس، وتحسين موقع نظرهم منه بالتصنع والتزين لهم، وتربية الجاه والحشمة لديهم. تكبرًا وتعظمًا عليهم، ومعاشرتهم بالنفاق والدهان وتخالف الإسرار والإعلان، وهذا عذاب أليم استعجله فى دنياه؛ إذ يفوته بذلك راحةُ قلبه وطيبُ عيشه، ويُسلبه أثواب الغنى والعزّة ويلبسه لباس الطمع والذلة فتردى بذلك همته، وتقل قيمته، ولعذاب الآخرة أكبر، قال الشاعر:

من راقب الناس مات غمًّا وفاز باللذة الجسور[1]

ورأى سهل بن عبد الله، رضى الله تعالى عنه، رجلا من الفقراء بمكة، فقال له شيئًا، فقال: يا أستاذ، لا أقدر على هذا من أجل الناس. فالتفت سهل إلى أصحابه فقال: لا ينال العبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين: حتى يُسقط الناس من عينه فلا يَرى فى الدنيا إلا هو وخالقه، فإن أحدًا لا يقدر أن يضرّه ولا ينفعه. أو يسُقط نفسه عن قلبه فلا يبالى بأى حالٍ يرونه. ا هـ . ثم مَن له بحصول ما أراده منهم، وأغراضهم مختلفة، وطباعهم متباينة فربما استحسن من نفسه شيئا لم يستحسنه غيره، وربما أرضى شخصا بمالا يرضى الآخر، فهو يعمل بزعمه فيما ينفعه عند الناس وهو ساع فيما يضرُّه عندهم وعند الله تعالى مع مقاساة التعب والنصب فى نفسه.

وفى الحكاية المذكورة عن لقمان وابنه تنبيه على هذا المعنى: ذُكر أنّ لقمان دخل ذات يوم السوقَ وهو راكب حمارًا، وابنه يسوقه. فقال الناس حين رأوه: شيخ لم يُشفق على صبىّ، فأركبه خلفه فقالوا: اثنان على حمار، هلّا زادا ثالثًا!! فنزل لقمان وبقى الولد فقالوا: شيخ ماشٍ وصبىّ راكب!!فنزل الولد يمشى مع والده وساقا الحمار جميعًا فقالوا: حمارٌ فارغ وهذان يسوقانه!! وكان غرض لقمان بهذا أن يرى ابنه شأن الناس مع من يراعى نظرهم؛ فإنه لايسلم منهم على أىّ حالة يكون، فرضاء الناس غاية لاتدرك، وأحمق الناس من طلب ما لا يدرك. فهذا حال من انقاد إلى الأوهام من ضعفاء العقول، وسخفاء الأحلام. وأما من كان له عقل وافر، وحلم فاخر، فلا يميل إلا إلى ماهو حقّ، ووجوده صدق، وهو مامن الله إليه من : نظر، وإقبال، وجزيل عطاء، وعظيم

---

(١) وروى: من راقب الناس ماتهنا وفاز بالراحة الجسور

نوال، فهو يعمل فيما يؤديه إلى هذه المطالب من غير اكتراث بذمّ ذام، أو عَتب عاتب ويقول بلسان حاله:

إن الذى تكرهون منّى هو الذى يشتهيه قلبى

ويقول أيضًا، ما قاله محمد بن أسلم، رضى الله تعالى عنه: «مالى ولهذا الخلق، كنت فى صُلب أبى وحدى، ثم صرتُ فى بطن أمى وحدى، ثم دخلت الدنيا وحدى، ثم تقبض روحى وحدى فأدخل قبرى وحدى، ويأتينى منكر ونكير فيسألانى وحدى فإن صرتُ إلى خير صرتُ وحدى وإن صرتُ إلى شرّ صرتُ وحدى، ثم أوقف بين يدى الله وحدى، ثم يوضع عملى وذنوبى فى ميزانى وحدى، فإن بعثت إلى الجنة بعثت وحدى، وإن بعثت إلى النار بعثت وحدى، فمالى وللناس!!»

وقد سئل الحارث بن أسد المحاسبى، رضى الله تعالى عنه، عن علامة الصادق فقال: «الصادق هو الذى لا يبالى لو خرج كل قَدْر له من قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولايحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله ولايكره أن يطلع الناس على السيىء من عمله؛ فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحبّ الزيادة عندهم، وليس هذا من أخلاق الصادقين».

من عرف الحق شهده فى كل شىء.

فلا يستوحش من شىء ويستأنس به كلُّ شىء. كما تقدم من نعت العارفين.

ومن فنى به غاب عن كل شىء

فلا يكون منه على الأشياء اعتماد، ولا له إليها استنادٌ.

ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئًا.

من مراداته وشهواته.

وهذه الأمور التى ذكرها المؤلف، رحمه الله، هى من علامات بلوغ هذه المقامات العليّة، وبها تصح وتكمل؛ فمن لم يجدها فى نفسه، فلا ينبغى له أن يدّعى تلك المقامات، وليعمل على مجاهدة نفسه فيما يصححها ويكمّلها.

إنما حجب الحق عنك شدة قربه منك.

شدّة القرب حجابٌ ؛ كما أن شدّة البعد حجابٌ؛ لأن شدّة قربه منك موجبة لاضمحلالك وذهابك، والمضمحلّ الذاهب لامناسبة بينه وبين الثابت الموجود، فكيف يراه ؟ قال فى «لطائف المنن»: «فعظيم القُرب هو الذى غيّب عنك شهودَ القرب، قال الشيخ أبو الحسن: حقيقة القرب أن تغيب فى القرب عن القرب لعظيم القرب[1]، كمن يشمّ رائحة المسك، فلا يزال يدنو منها، وكلما دنا منها تزاد ريحها، فلما دخل البيت الذى هو فيه انقطعت رائحته عنه، وأنشد بعض العارفين:

كما ذا تموَّه بالشعبين والعلم ... والأمر أوضح من نار على علم
أراك تسأل عن نجد وأنت بها ... وعن تهامة هذا فعل متهم

إنما احتجب لشدة ظهوره، وخفى عن الأبصار لعظيم نوره

هذه عبارة تداولها الناس، وضربوا لمعناها مثلا بالشمس؛ وذلك أن الشمس نورها أقوى من سائر الأنوار المحسوسة، وقوة نورها هى التى حجبت الأبصار الضعيفة عن إدراك كنهها، فقد صار ظهورها الذى أوجبه وجودُ نورها حجابًا لها. وليس الحجاب على الحقيقة منها، فإن الظاهر لذاته لايُحجب من ذاته، وإنما الحجاب عليه من غيره.

والحجاب هاهنا: ضعف البصر عن مقاومة فيضان النور، فالحق تعالى

(١) وفى نسخة: لعظم الرب

احتجب عن الخلق بشدة ظهوره وخفى عن الأبصار لعظم نوره، وأنشدوا فى هذا المعنى:

لقد ظهرتَ فلا تخفى على أحد ... إلا على أكمه[١] لا يعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبًا ... وكيف يعرف من بالعزّة استترا

وأنشدوا أيضًا:

بالنور يظهر مايُرىَ من صورة ... وبه وجود الكائنات بلا امترا
لكنه يخفىَ لفرط ظهوره ... حسًّا ويدركه البصيرُ من الورى
فإذا نظرت بعين قلبك لم تجد ... شيئًا سواه على الذوات مصورًا
وإذا طلبت حقيقة من غيره ... فبذيل جهلك لاتزال معثرا

لايكن طلبك تسببًا إلى العطاء منه فيقلَّ فهمك عنه، وليكن طلبك لإظهار العبودية وقيامًا بحقوق الربوبية.

لم يأمر الله تعالى عباده بالطلب له والسؤال منه، إلا ليظهر افتقارهم إليه، ومثولهم بالتضرعِ والخضوعِ بين يديه؛ ليكون ذلك إظهارًا لعبوديتهم، وقيامًا بحقوق ربوبيته، لا لأن يتسببوا به إلى حصول ماطلبوه ونيل مارغبوه، مما لهم فيه منفعةٌ[٢] وحظ. هذا هو فَهْم العارفين عن الله، ويدل على هذا المعنى مايذكره المؤلف الآن. قال أبو نصر السرّاج: سألت بعض المشايخ عن الدعاء ماوجهه[٣] لأهل التسليم والتفويض؟ فقال: تدعو الله على وجهين:

أحدهما: تريد بذلك تزيين الجوارح الظاهرة بالدعاء لأن الدعاء ضرب من الخدمة يريد أن يزين جوارحه بهذه الخدمة.

---

(١) الأكمه: هو الذى يولد أعمى. (٢) وفى نسخة: متعة.
(٣) وزادت نسخة: عن الدعاء والتفويض لأهل التسليم ماوجهه فقال.. الخ.

والوجه الثانى: أن تدعو ائتماراً لما أمر الله تعالى من الدعاء. انتهى.
وقد قيل: فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه، وإلا فالرب يفعل ما يشاء.

ومقتضى هذا ألَّا ينقطع سؤاله ولا رغبته، وإن أعطاه كلَّ ما طلبه، وأنا له سؤاله وأربه، وألَّا يفرق بين العدم والوجود والمنع والإعطاء فيما يرجع إلى إظهار الفاقة والفقر، فيكون عبدًا لله فى الأحوال كلها، كما أن ربه واسع الفضل فى الأحوال كلها. وقبيح بالعبد أن يَصرِف وجهه عن باب مولاه ماينيله من شهواته وهواه. قال سيدى أبو الحسن رضى الله تعالى عنه: «لا يكن همّك بدعائك الظفر بقضاء حوائجك فتكون محجوبًا، وليكن همّك مناجاة مولاك».

قال الإمام أبو القاسم القشيرى، رضى الله عنه: «شرّ الناس من يبتهل إلى الله تعالى عند هجوم البلاء بخلوص الدعاء، وشدّة التضرّع والبكاء فإذا زالت شكايته، ورُفعت عنه آفتُه، ضيّع الوفاء، ونسى البلاء وقابل الرفد[1] بنقص العهد، وأبدل العقد[2] برفض الودّ، أولئك الذين أبعدهم الله فى سابق الحكم وخرطهم فى سلك أهل الرَّدّ، وقد قيل: بلاءٌ يلجئك إلى الانتصاب بين يدى معبودك خيرٌ من عطاء ينسيك إيّاه ويقصيك عنه.

كيف يكون طلبك اللاحق سببًا فى عطائه السابق

هذا دليل على نفى السببية المذكورة؛ لأن ما طلبه العبد أمرٌ سابق فى الأزل تقديره، وطلبه أمر لاحق فيما لا يزال، وكيف يكون اللاحق سببًا فى وجود السابق، وهل السبب أبدًا إلّا متقدّم على المسبب.

جلَّ حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل

---

(١) العطاء.
(٢) وفى نسخة: العفو.

هذا دليل آخر على ما ذكره، وهو: أن حصول ما طلبه الداعى حكم من الله تعالى فى الأزل، فلا يكو سببه الدعاء والسؤال، لأن أحكام الله تعالى تجل عن أن تنْضاف إلى علة أو سبب من قِبل أنّ له الإرادة المطلقة والمشيئة النافذة، لصُنعُه علةٌ لكل شىء، ولالا علة لصنعه، كما قال العارفون المحققون.

عنايته فيك، لا لشىء منك، وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته لم يكن فى أزله إخلاص أعمال، ولا وجود أحوال، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال وعظيم النوال.

عناية الله تعالى بك فى الأزل، حين لم تكن حِين لاحِين غيرُ معللة بشىء كائن منك من إخلاص أعمال أو وجود أحوال تتوسّل بجميع ذلك إليه، وأين كنت إذ ذاك وأنت عدم محضٌ، بل بل يكن هناك إلّا محض كرمه وإفضاله وعظيم إحسانه ونواله لا غير، قال الواسطى: «أقسام قسّمت ونعوت وأحكام أُجريت كيف تُستجلس بحركات أو تنال بسعايات؟».

علم أن العباد يتشوفون إلى ظهور سر العناية فقال (يختص برحمته من يشاء).
وعلم أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل اعتمادًا على الأزل فقال (إن رحمة الله قريب من المحسنين).

ظهور سرّ العناية التى مقتضاها الرحمة هو تخصيص المشيئة فى قوله عزّ من قائل: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[1] ولا علّة له من العبد والإحسانُ المنسوبُ إليه فى قوله تعالى ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحسِنِينَ﴾[2] أمارةٌ وعلامة على تلك العناية، وليس بعلة موجبة.

---

(١) الآية ١٠٥ من سورة البقرة. (٢) الآية ٥٦ من سورة الأعراف.

وإنما أسند الرحمة إليه وعلّقها به؛ لئلا يتكلَ العباد على السابقة ويتركوا العمل الذى هو مقتضى العبودية الواجبة لله تعالى عليهم.

إلى المشيئة يستند كل شيء

لأن وقوع ما لم يشأ الحقّ تعالى محال.

ولا تستند هى إلى شيء

لاستحالة وجود النقص فيما يجب له من الكمال.

وهذه العبارات التى ذكرها المؤلف رحمه الله من أوّل الفصل إلى هنا بلغت الغاية فى الحسن، واستغنت بترددها وتكرارها عن البيان والشرح. وفيها إشارة إلى أحكام الأزل، وفقد الأسباب والعلل، فيجب على العبد أن يبنى عليها أعماله وأحواله؛ فيلتزمَ العبوديةَ والافتقار، ويدع التدبير والاختيار لمن بيده ذلك، وهذا هو أدب التوحيد جعلنا الله من أهله بمنّه وفضله وكرمه.

قال أبو بكر محمد بن موسى الواسطى، رضى الله عنه: «إن الله لا يُقرّب فقيرًا لأجل فقره، ولا يُبعد غنيا لأجل غناه، وليس للأعراض عنده خطر، حتى بها يصل، وبها يَقطع، ولو بذلتَ له الدنيا والآخرة ما أوصلك إليه بهما، ولو أخذتهما كلهما ما قطعك بهما، قرّب من قرب من غير علّة، وقطع من قطع من غير علّة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُورٍ﴾[1].

وقال أيضًا رضى الله عنه: «ما خالفه أحد ولا وافقه وكلهم مستعملون بمشيئته وقدرته، أنّى يكون له الوفاق والخلاف وهو يقلّب الليل والنهار بما فيهما وهو قائم على الأشياء وبالأشياء فى بقائها وفنائها لا يؤنسه وجد ولا يوحشه

---

(١) الآية ٤٠ من سورة: النور.

فقد، بل لا فقد ولا وجد، إنما هى رسوم تحت[١] الرسوم.

ربما دلهم الأدب على ترك الطلب اعتمادًا على قسمته واشتغالا بذكره عن مسألته.

قد يكون من الأدب تركُ السؤال والطلب لمن هو مستغرق فى الأذكار، راضٍ بما يجرى عليه من تصاريف الأقدار، وهو أحدُ مذاهب القوم. قال: الإمام أبو القاسم القشيرى، رضى الله تعالى عنه،: «واختلف[٢] الناس فى أىّ شىء أفضل: الدعاءُ أم السكوت والرضا؛ فمنهم من قال الدعاءُ فى نفسه عبادة، قال النبى ﷺ: «الدعاء مُخُّ العبادة[٣]» فالإتيانُ بما هو عبادة أولى من تركها، ثم هو حقُّ الحقّ سبحانه وتعالى، فإن لم يَسْتَجِب للعبد، ولم يصل[٤] إلى حظّ نفسه فلقد قام بحقّ الربوبية، لأن الدعاء إظهار فاقة العبودية وقد قال أبو حازم الأعرج: «لأن أُحرم الدعاءَ أشدُّ علىّ من أن أُحرم الإجابة».

وطائفة قالوا: السكوتُ والخمولُ تحت جريان الحكم أتمُّ، والرضا بما سبق من اختيار الحق أَوْلى، ولهذا قال الواسطى: «اختيار ما جرى لك فى الأزل خيرٌ لك من معارضة الوقت» وقد قال الرسول ﷺ خبرًا عن الله تعالى: «من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيتُه أفضل ما أُعطى السائلين».

---

(١) وفى نسخة: محت.

(٢) انظر ص٥٢٧، ٥٢٨ من باب الدعاء جـ٢ من الرسالة القشيرية طبعة: دار الكتب الحديثة.

(٣) رواه الإمام الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه، وروى الإمام أحمد والترمذى وغيرهما عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال الدعاء هو العبادة ثم قرأ: ﴿وقال ربكم ادعونى أستجب لكم، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين﴾.

(٤) أى العبد.

وقال قوم: يجب أن يكون العبد صاحبَ دعاء بلسانه، وصاحب رضا بقلبه ليأتى الأمرين جميعا، قال الإمام أبو القاسم: «والأولى أن يقال إن الأوقات مختلفة ففى بعض الأحوال الدعاء أفضل من السكوت، وهو الأدب. وفى بعض الأحوال السكوت أفضل من الدعاء وهو الأدب، وإنما يُعرف ذلك فى الوقت؛ لأن علم الوقت إنما يحصل فى الوقت؛ فإذا وجد بقلبه إشارةً إلى الدعاء فالدعاءُ له أولى. وإذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت له أولى.

ويصحّ أن يقال: ينبغى للعبد ألَّا يكون ساهيًا عن شهود ربّه تعالى فى حال دعائه.

ثم يجب أن يراعى حاله؛ فإذا وجد من الدعاء زيادةَ بَسْط فى وقته فالدعاءُ له أولى، وإن عاد إلى قلبه فى وقت الدعاء شِبْهُ زجرٍ ومثل قبضٍ فالأولى له تركُ الدعاء فى هذا الوقت، وإن لم يجد فى قلبه لا زيادة بسط ولا حصول زجر فالدعاء وتركه سيّان. وإن كان الغالب عليه فى هذا الوقت العلمُ فالدعاء أولى لكونه عبادة، وإن كان الغالب عليه فى هذا الوقت المعرفةُ والحال والسكوت فالسكوت أولى.

ويصحّ أن يقال: ما كان للمسلمين فيه نصيب، أو للحقّ سبحانه وتعالى فيه حقٌّ فالدعاءُ أولى. وما كان لنفسك فيه حظ فالسكوت أتمُّ وأولى، وفى الخبر المرويّ: «إن العبد ليدعو الله عزّ وجلّ وهو يحبُّه، فيقول الله: يا جبريل أخِّر حاجة عبدى فإنى أحبُّ أن أسمع صوته، وإن العبد ليدعو الله، وهو يبغضه، فيقول الله: يا جبريل، اقض لعبدى حاجته فإنى أكره أن أسمع صوته» انتهى كلام الإمام أبى القاسم القشيرى، وهو حسن بديع، وهو أوفى مما ذكره المؤلف، رحمه الله، فلذلك أوردته هنا بكماله.

إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال، وإنما ينبه من يمكن منه الإهمال.

أورد هذا كالدليل على ما ذكره من أنّ ترك الطلب قد يكون من الأدب، وذلك لأن فى الطلب إشعارًا بتجويز الإغفال عليه فيقع بذلك التذكيرُ له وتلويحًا باحتمال وجود الإهمال منه، فيكون ذلك تنبيهًا له، وجميع ذلك محال على الحقّ تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ فلأجل هذه العلل كان ترك الطلب عند هؤلاء أدبًا.

وقد سئل الواسطى، رضى الله تعالى عنه، أن يدعو، فقال: «أخشى إن دعوتُ أن يقال لى: إن سألتنا مالك عندنا فقد اتهمتنا، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا فقد أسأت الثناء علينا، وإن رضيتنا أجرينا لك من الأمور ما قضينا لك فى الدهور».

وروى عن عبد الله بن منازل أنه قال: «ما دعوتُ الله منذ خمسين سنة، وما أريد أن يدعو لى أحد؛ لأنه ماضٍ علىَّ ما سبق».

ورود الفاقات أعياد المريدين.

الأعياد عبارةٌ عن الأوقات العائدة على الناس بالمسرات والأفراح، وهم مختلفون فى ذلك، فمنهم مَن مسرته وفرحه بوجود حظّه، ونيْل شهواته وغرضه، وهذا هو حال عامة المسلمين، ومنهم من مسرّتُه وفرحه بفقدان حظوظه وإعواز أمانيه وأغراضه، وهذا هو حال الخاصة من المريدين؛ لأن مدار أمرهم إنما هو على مراعاة قلوبهم وتصفية أسرارهم من كدورات الأغيار والآثار، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بوجدانهم لما يقهرهم من ضرورات[1] الفاقات وأنواع الحاجات

(١) وفى نسخة: من ضروب.

والضرورات؛ فتراهم يؤثرون الفقر على الغنى، والشدّة على الرخاء، والذلّ على العزّ والمرضَ على الصحة؛ إذ يحصل لهم بذلك رقةٌ وحلاوة لا يعرف قدرها إلاّ هُم؛ لأنها من وجودهم لقرب ربّهم ورؤيتهم له فى حال فقدان حظّهم، وكلما ازدادوا فاقةً وبلاء، زادهم ربّهم قُربةً ووِلاءً.

كان بعضهم يطوف حول الكعبة الشريفة وهو يقول:

مؤتزرٌ بشَمْلتى[1] كما ترى ... وصبيتى باكية كما ترى
وامرأتى عريانة كما ترى ... يا من يرى الذى بنا ولا يُرى
أما ترى ما حلَّ بى أما ترى ... أما ترى الذى بنا أما ترى

فسمعه بعضهم فجمع له كسرًا[2] ودفعها إليه، فقال له: إليك عنى، لو كان معى شىء لما أمكننى أن أقول هذا القول.

قال فى التنوير: «وفى البلايا والفاقات من أسرار الألطاف مالا يفهمه إلاّ أولو البصائر، ألم تر أن البلايا تخمد النفوس وتذهلها[3] وتدهشها عن طلب حظوظها، ويقع مع البلايا وجدان الذلة، ومع الذلة، تكون النُّصرة ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[4].

قال أبو إسحٰق إبراهيم الهروى، رضى الله عنه: «من أراد أن يبلغ الشرف كلَّ الشرف فليختر سبعًا على سبع؛ فإنّ الصالحين اختاروها حتى بلغوا سَنَام الخير: وهى أن يختار الفقر على الغنى، والجوع على الشبع، والدون على

---

(١) الشملة: كساء يشتمل به.
(٢) وفى نسخة: نفقة.
(٣) وفى نسخة: وتذلها وفى أخرى. وتزيلها.
(٤) آية ١٢٣ من سورة: آل عمران.

الرفع[١]، والذلّ على العز، والتواضع على الكبر والحزن على الفرح، والموت على الحياة. وقد تقدّم عند قول المؤلف «من ظنّ انفكاك لطفه عن قَدره فذلك لقصور نظره» الشفاء فى هذا المعنى؛ فواجب إذن أن يكون ورود الفاقات أعيادَ المريدين، كما قال المؤلف. فإذا فقدوا ذلك بؤاتاة الأسباب استشعروا بذلك وجودَ الحجاب وبُعدَهم عن محلّ الاقتراب، فحزنوا لذلك وتأسّفوا وودّوا لو عاد إليهم الحال الأول. ومن هذا المعنى ما حكى عن «خير النساج» رضى الله تعالى عنه، قال: «دخلت بعض المساجد فإذا فيه فقير، فلما رآنى تعلق بى وقال: أيها الشيخ تعطّف عَلَىّ؛ فإن محنتى عظيمة، فقلت: وما هى؟ قال: فقدت البلاء وفزرتُ[٢] بالعافية!! فنظرت، فإذا هو قد فُتح عليه شىء من الدنيا».

وقال بعضهم: «إنّ الفقير الصادق ليحترز من الغنى حذرًا أن يدخله الغنى فيفسد عليه فقره» كما أن الغنى يحترز من الفقر حذرًا أن يدخل عليه الفقر فيفسد عليه غناه. وقد تقدّم من حكايات عطاءٍ السلمى، وفتح الموصلى، والفضيل بن عياض، والربيع بن خيْثم رضى الله عنهم ما يوافق ما ذكرناه. وأنشدوا فى ذكر أعياد المريدين والعارفين، وقيل إنها لأبى علىّ الروذبارى، رضى الله تعالى عنه:

قالوا غدًا العيدُ ماذا أنتَ لابسهُ ... فقلت خِلْعَةَ ساقٍ حُبُّه جُرِعا
فَقْرٌ وصبرٌ هما ثَوباى تحتهما ... قلبٌ يرى إلْفَهُ الأعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به ... يوم التزاور فى الثوب الذى خَلعا
الدهر لى مأتمٌ إنْ غبتَ يَا أملى ... والعيدُ ما كنت لى مَرأًى ومستمعا

ربما وجدت من المزيد فى الفاقات ما لا تجده فى الصوم والصلاة.

---

(١) وفى نسخة: على المرتفع.
(٢) وفى نسخة: وقرنت.

ورود الفاقات يحصل بها للمريد مزيدُ كثيرٍ من صفاء القلب وطهارة السريرة، وقد لا يحصل له ذلك بالصوم والصلاة؛ لأن الصوم والصلاة قد يكون له فيهما شهوة وهوى - كما تقدم - وما كان هذا سبيله لا يؤمن عليه فيه من دخول الآفات، فلا يفيده تحليةً ولا تزكية، بخلاف ورود الفاقات؛ فإنها مباينة للهوى والشهوة على كلّ حال، وقد تقدَّم نحوٌ من هذا المعنى عند قوله: [إذا فتح لك وجهة من التعرّف فلا تبال معها إن قلَّ عملك... إلخ].

الفاقات بسط المواهب.

الفاقات تُحضره مع الحقّ وتُجلسه على بساط الصدق، وناهيك بما يكون فى تلك المحاضرة والمجالسة من المواهب الربَّانية والنفحات الرحمانية.

إن أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك، إنما الصدقات للفقراء والمساكين.

هذا مثل ما ذكره الآن، وذكْر الآية عقيبه إشارةٌ بديعة، وتصحيح الفاقة والفقر هو: التحقق بأوصاف العبودية المذكورة فى المسألة التى تأتى بإثر هذه، ومما يتعلّق بظاهر الآية[1] التى استشهد بها المؤلف على طريقة القوم ما قال بعضهم: «صدقُ الفقير أخذُه الصدقة ممن يعطيه، لا ممن تُقبل إليه على يده»[2] فالحق تعالى هو المعطِى على الحقيقة؛ لأنه جعلها لهم؛ فإن قبلها من الحقّ فهو الصادق فى فقره لعلوّ همته، ومن قبلها من الوسايط فهو المتوسّم بالفقر مع رداءة همّته.

---

(١) ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها﴾من آية٦٠من سورة التوبة.

(٢) وفى نسخة: «... أخذه الصدقة ممن أعطاها له حكما وهو الله تعالى، لا من جاءت له على يديه».

تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بذُلِّكَ يمدك بعزِّه
تحقق بعجزك يمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدُّك بحوله وقوَّته.

هذا مناسبٌ لما ذكره من الفاقات والمواهب، وقد تقدَّم التنبيه على هذا المعنى عند قوله: [كن بأوصاف ربوبيته متعلقًا، وبأوصاف عبوديتك متحققًا].

قال سيدى أبو الحسن الشاذلى، رضى الله تعالى عنه، بعد كلام ذكره: «وتصحيح العبودية بملازمة الفقر والعجز والضعف والذلّ لله تعالى، وأضدادها أوصاف الربوبية.. فما لك ولها، فلازم أوصافك وتعلّق بأوصافه، وقُلْ من بساط الفقر الحقيقى: يا غنىّ من للفقير غيرك؟ ومن بساط الضعف: يا قوىّ من للضعيف غيرك؟ ومن بساط العجز: يا قادر مَنْ للعاجز غيرك؟ ومن بساط الذلّ: يا عزيز من للذليل غيرك؟ تجد الإجابة كأنها طوع يدك (واستعينوا بالله واصبروا إن ﴿الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]. انتهى كلام سيدى أبى الحسن، وهو معنى ما ذكره المؤلف ها هنا. وأكثر كلام المؤلف جار على منهاج كلام أبى الحسن رضى الله عنهما، ونفع بهما.

ربما رُزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة

الكرامة الحقيقية إنما هى حصول الاستقامة، والوصولُ إلى كمالها. ومرجعها إلى أمرين: صحة الإيمان بالله عزَّ وجلَّ، واتّباع ما جاء به رسول الله ﷺ ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة الأعراف.

فالواجب على العبد ألَّا يحرص إلّا عليهما، ولا تكون له همَّة إلا فى الوصول إليهما.

وأمَّا الكرامة بمعنى خرق العادة، فلا عبرة بها عند المحققين؛ إذ قد يُرزق ذلك من لم تكمل له الاستقامة.

قال سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه: «إنما هما كرامتان، جامعتان، محيطتان: كرامةُ الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامةُ العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة، فمن أُعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو مغترٌّ كذّاب ليس ذا حظّ فى العلم والعمل بالصواب، كمن أُكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وَخِلَع الرضا، وكلّ كرامة لا يصحبها الرضا عن الله، ومن الله، فصاحبها مستدرج مغرور، وناقص أو هالك مثبور».

وقال سيدى أبو العباس المرسى، رضى الله تعالى عنه: «ليس الشأن من تُطْوى له الأرض فإذا هو بمكة وغيرها من البلدان، إنما الشأن من تُطْوى عنه أوصاف نفسه فإذا هو عبد عند ربّه».

وذُكر عند سهل بن عبد الله، رضى الله عنه، الكراماتُ فقال: «وما الآيات!! وما الكرامات!! هى شىء تنقضى لوقتها، ولكن أكبر الكرامات أن تُبَدّل خُلقًا مذمومًا من أخلاق نفسك بخلق محمود».

وقال بعض المشايخ: «لا تعجبوا ممن لم يضع فى جيبه شيئًا فيدخل يده فى جيبه فيخرج منه ما يريد، ولكن تعجبوا ممن يضع فى جيبه شيئًا فيدخل يده فى جيبه فلا يجده فلا يتغير».

وقيل لأبى محمد المرتعش، رضى الله تعالى عنه: إن فلانًا يمشى على الماء.

فقال: «عندى مَن مكَّنه الله من مخالفة هواه، فهو أعظم من المشى على الماء وفى الهواء».

وقال أبو يزيد، رضى الله تعالى عنه: «لو أنَّ رجلا بسط مصلّاه على الماء وتربّع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه فى الأمر والنهى».

وقيل له: إن فلانًا يقال إنه يمرّ فى ليلة إلى مكة؟! فقال: «الشيطان يمرّ فى لحظة من المشرق إلى المغرب وهو فى لعنة الله».

وقيل له: يقال إن فلانًا يمشى على الماء!! فقال: «الحيتان فى الماء والطير فى الهواء أعجبُ من ذلك».

وقال الجنيد رضى الله تعالى عنه: «حجاب قلوب الخاصة المختصة برؤية النعم والتلذذ بالعطاء والسكون إلى الكرامات» وقد تقدم مثل هذا عند قوله: [ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه].

من علامات إقامة الحق لك فى الشىء إدامته إياك فيه مع حصول النتائج

لا اعتبار بما يقوم فيه العبد بنفسه من عمل أو حال. وإنما العبرة بما يقيمه فيه ربّه.

وعلامةُ إقامة الله عبدَه فى الشىء أن يديمه عليه، وَيَحْصُل له ثمرتُه ونتيجتُه.

وينبنى على هذا آداب ومعاملات. وقد أشرنا إلى نحوٍ من هذا عند قول المؤلف: [إرادتك التجريد مع إقامة الله إيَّاك فى الأسباب... إلخ].

من عبَّر من بساط إحسانه أصمتته الإساءة
ومن عبَّر من بساط إحسان الله إليه لم يصمت إذا أساء

من شاهد إحسانَ نفسه وعمل بطاعة ربّه انبسط لسانُه بالنصيحة والموعظة لعباد الله. فإن وقعت منه إساءة أو مخالفة انقبض عن ذلك وصمت، لِما يعتريه من الخجل والحياء، وهذه طريقة أهل «التكليف» الذين ينظرون إلى ما منهم إلى الله تعالى من عملٍ صالح أو طالح.

ومن شاهد إحسان الله إليه، وغاب عن رؤية إحسانه هو، انبسط لسانه فى الحالين من غير فرق؛ لأن مشاهدته لوحدانية ربّه وقيوميته فى الحالين أوجبت جراءته على ذلك.

وقد قيل: «جراءة الجنان تُنطق اللسان وتُطلق العنان». وهذه هى طريقة أهل «التعريف» الذين ينظرون إلى ما من الله تعالى إليهم.

قلت: وما ذكرته هنا من لفظى: التعريف، والتكليف، وما نبهت به عليهما من الكلام اللطيف أشرت به إلى مسألة عظيمة مهمّة، ينبنى عليها آداب وأحكام جمّة، وهى مسألة اختلاف الناس فى معاملاتهم لربّهم بحسب نيَّاتهم[1] فى مراتب قُرْبهم، ومن أحكامها مسألة «التعبير» التى اقتصر المؤلف عليها فى هذا الفصل، ولم يذكر معها سواها مما ينبنى على ذلك الأصل، وقد نبّه عليها فى «لطائف المنن» وأتى فيها بكلام مستوعب حسنٍ فرأينا أن ننقله هاهنا بكماله؛ ليتبين به مقصدُنا فى تفصيله وإجماله، قال فيه:

«.. وقال شيخنا (يعنى شيخه أبا العباس): الناس على ثلاثة أقسام: عبدٌ هو بشهود ما منه إلى الله. وعبدٌ هو بشهود ما من الله إليه. وعبدٌ هو بشهود ما من الله إلى الله».

---

(١) وفى نسخة: تباينهم، وهو أولى لمناسبته للسياق، وفى نسخة أخرى: بحسب ثباتهم.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن من الناس من يكون الغالب عليه شهود تقصيره وإساءته، فيقوم مقام المعتذر بين يدى الله تعالى، وتلازمه الأحزان، وتحالفه الأشجان، ويستولى عليه الكمد كلما بدت منه سيئةٌ، أو كُشف له من نفسه عن أوصاف سوء، وعبدٌ آخر الغالب عليه شهود ما من الله إليه من الفضل والإحسان والجود والإمتنان، فهذا تلازمه المسرَّة بالله والفرح بنعمة الله، قال الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1]؛ فالأول حال العبّاد والزهّاد، والثانى حال أهل العناية والوداد، الأول شأن أهل التكليف، والثانى شأن أهل التعريف، الأول حال أهل اليقظة، والثانى حال أهل المعرفة؛ فلذلك قال الشيخ أبو الحسن، رضى الله تعالى عنه: «العارف من عرف شدائد الزمان فى الألطاف الجارية من الله عليه، وعرف إساءته فى إحسان الله إليه ﴿فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

وقال رضى الله عنه: «قليل العمل مع شهود المنّة [من الله] خيرٌ من كثرة العمل مع رؤية التقصير من النفس».

وقال بعض أهل المعرفة: «لا يخلو شهود التقصير من الشرك فى التقدير».

وقال الشيخ أبو الحسن، رضى الله عنه: «قرأت ليلةً من الليالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إلى أن انتهيت إلى قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِ الوسوَاسِ الخنَّاسِ الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ والنَّاسِ﴾ فقيل لى: شَرُّ الوسواسِ وسواسٌ يدخل بينك وبين حبيبك، يُنْسيك ألطافه الحسنة، ويذكرك أفعالك السيئة، ويقلل عندك ذات اليمين، ويُكثر عندك ذات الشمال؛

---

(١) آية ٥٨ من سورة يونس.

(٢) الآية ٦٩ من سورة الأعراف.

ليعدلَ بك عن حُسن الظنّ بالله ورسوله إلى سوء الظنّ بالله ورسوله، فاحذر هذا الباب؛ فقد أُخذ منه كثير من الزهّاد والعبّاد، وأهل الجدّ والاجتهاد؛ ولذلك قَلَّ أن تجد الزاهد والعابد إلا مكمودًا حزينًا؛ لأنه علم أن الله تعالى طالبه بالعبودية، وحمّله أعباءها، وألزمه ما أشفقت السموات والأرض والجبال من حمله، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾[١]، فعاين الزهّادُ ثقل ما حُمِّلوا، ولم ينفذوا إلى شهود لطف الحامل للأثقال عن عباده المتوكلين عليه، فلذلك لزمهم الكمد واستولى عليهم الحزن.

وأهل المعرفة بالله علموا أنهم حملوا من التكاليف أمرًا عظيما، وعلموا ضعفَهم عن حمله، والقيام به متى وكلوا إلى نفوسهم، قال الله عز وجلَّ: ﴿وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾[٢]، وعلموا أنهم إذا رجعوا إلى الله تعالى حمل عنهم ما حمّلهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[٣] فرجعوا إليه بصدق اللجاء فحمل عنهم الأثقال، فساروا إلى الله محمولين فى محفّات المنن، تروّح[٤] عليهم بنفحات اللطف، والآخرون ساروا إلى الله حاملين لأثقال التكاليف فتلازمهم المشقات، وتطول بهم المسافات، فإن شاء أدركهم بلطفه، فأخذ بأيديهم من شهود معاملتهم إلى شهود سابق توفيقه لهم، فطابت لهم الأوقات، وأشرقت فيهم العنايات.

وأما القسم الثالث: وهم الذين أمدَّهم الله تعالى بشهود ما من الله إلى

---

(١) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

(٢) الآية ٢٨ من سورة النساء.

(٣) آية ٣ من سورة الطلاق.

(٤) وفى نسخة: مروح عليهم [بتشديد الواو]، وفى أخرى: يروح.

الله، هؤلاء هم أهل التوحيد، والداجلون فى ميدان التفريد.

وأما القسم الأول: وهم الذين غلب عليهم شهود ما منهم إلى الله لم يخرجوا عن باطن الشرك، وإن خرجوا عن ظاهره، لأنهم أقبلوا على أنفسهم موبّخين لها، شاهدين لتقسيرهم وإساءتهم، فلو لم يشهدوا الفعل لها أو منها ما توجّهوا لها بالتوبيخ إذا قصرت، فلذلك قال ذلك العارف الذى سبق قوله: [لا يخلو شهود التقصير من الشرك فى التقدير].

فإن قلت: إذا كان توبيخ النفس وذمّها يستلزم دقيقة الشرك، فكيف نصنع والله تعالى قد ذمّ النفس وأمرنا بتوبيخها إذا قصرت، ووبخها هو إذا كانت كذلك؟ فالجواب: أنّ ذمها، لأن الله تعالى أمرك بذمّها من غير أن تشهد لها قدرة أو تضيف إليها فعلاً، فلا تراها هى الفاعلة له.

وأما القسم الثانى: وهو الذى يشهد ما من الله إليه، فهو وإن كان خيرًا من القسم الأول، لكنه ما سلم من إثبات لنفسه إذ رأى نفسه مهداةً إليها هدايا الحق، فلولا إثباته لنفسه ما شهد ذلك، فلأجل هذين المعنيين آثر أهل الله تعالى القسم الثالث، وهو أن يكون بشهود ما من الله إلى الله. فافهم» انتهى كلامه رحمه الله، ولأجل ما تضمنه من الفوائد الجليلة والمقاصد النبيلة، دعانا قرب المناسبة إلى ذكره على ما هو عليه فى هذا الموضع، والله الموفّق ولا ربّ غيره.

تسبق أنوار الحكماء أقوالهم، فحيث صار التنوير وصل التعبير.

الحكماء: هم العارفون بالله تعالى، العالمون به، والأنوار المنسوبة إليهم، هى: أنوار معرفتهم، وهى قوّة يقينهم، فإن الأمور كلها بيد الله تعالى،

لا شريك له فيها، فإن أرادوا إرشادَ عباد الله تعالى ونصيحتهم بإذن من الله تعالى سبقت أنوار قلوبهم إلى الله تعالى باللجاء والافتقار إليه، فى أن يتولى لهم أمر قلوب عباده، بأن يجعل فيها أهلية واستعدادًا لقبول ما يريدون إيراده عليهم من كلام الحكمة، فيجيبهم إلى ذلك، فإذا تكلموا به تلقته قلوبُهم التى وصل إليها أنوار أسرار الحكمة، كما تتلقى الأرض الميتةُ وابل المطر فينتفعون بذلك أتمَّ انتفاع، وقد أوصى لقمان الحكيم ابنه فقال: يا بنى ما بلغت من حكمتك؟ قال: لا أتكلّف ما لا يعنينى.

قال: يا بنى، إنه قد بقى شىء آخر: جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك؛ فإن الله يحيى القلوبَ الميتة بنور الحكمة، كما يحيى الأرض الميتة بوابل السماء».

وإنما قلنا: إن الحكماء هم العارفون بالله تعالى، العالمون به، لأنهم خائفون من الله تعالى، وفى بعض الآثار: «رأس الحكمة مخافة الله».

والخوف من ثمرات العلم بالله، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1]، والعلم الموجب للخشية هو العلم بالله فقط؛ فالحكماء هم العالمون بالله تعالى؛ وإن كانوا ضعفاء فى سائر العلوم الرسمية، كليلة ألسنتهم فى البيان عنها.

كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز

اللسان ترجمان القلب، فإذا صفا من الأكدار؛ وتزكى من الأغيار، وأشرقت فيه الأنوار، كانت ترجمانية لسانه على حسب ذلك؛ فيتكلم بالكلام النورانى

---

(١) آية ٢٨ من سورة فاطر.

الذى يلج آذان السامعين؛ فتُفتح بسببه إذ ذاك أقفال قلوبهم، ويستجيبون به لنداء الحق حبيبهم.

وروى الحافظ أبو نعيم، رحمه الله تعالى، عن سعيد بن عاصم قال: كان قاض يجلس قريبًا من مجلس محمد بن واسع فقال له يومًا وهو يُوبخ جلساءه: مالى أرى القلوب لا تخشع، ومالى أرى العيون لا تدمع؛ ومالى أرى الجلود لا تقشعر!! فقال محمد بن واسع: يا عبد الله، ما أرى القوم أوتوا إلا من قِبلك، إن الذكر إذا خرج من القلب وقع على القلب.

قلت: وقد حاز المؤلف قصب السبق فى هذا المعنى الذى ذكره، ومن مارس كلامه فى هذا الكتاب، وفى غيره، وحصل له منه التأثير المحمود سلّم بما قلناه، وكفى بشهادة شيخه أبى العباس المرسى، على عظيم قدره ودعائه له؛ برهانًا على ذلك.

قال فى «لطائف المنن»: وكنت قد قلت لبعض تلامذة الشيخ (يعنى أبا العباس): أريد لو نظر إلىّ الشيخُ برعايته وجعلنى فى خاطره. فقال ذلك للشيخ. فلما دخلت على الشيخ قال: لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا فى خاطره؛ بل طالبوه أنفسكم أن يكون الشيخ فى خاطركم. فعلى مقدار ما يكون عندكم تكونون عنده. ثم قال: أىَّ شىء تريد أن تكون؟ والله ليكونن لك شأن عظيم. والله ليكونن لك كذا. وكذا. والله ليكُونن لك كذا.. وكذا. لم أثبت منه إلا قوله: «ليكُونن لك شأن عظيم» قال: فكان من فضل الله سبحانه ما لا أنكره.

قال: وأخبرنى سيدى جمال الدين، ولد الشيخ، قال: قلت للشيخ: هم يريدون أن يصدِّروا ابن عطاء الله فى الفقه!! فقال الشيخ: هم يصدرونه فى

الفقه وأنا أصدره فى التصوّف. وقال: دخلت عليه فقال: إذا عوفى الفقيه ناصر الدين يُجلسك فى موضع جدك. ويجلس الفقيه من ناحية وأنا من ناحية وتتكلم إن شاء الله تعالى فى العِلمين. فكان ما أخبر به رضى الله عنه.

قال: وسمعته يقول: أريد أن أستنسخ كتاب «التهذيب» لولدى جمال الدين فذهبت أنا فاستنسخته من غير أن أُعلم الشيخ، وأتيته بالجزء الأول، فقال: ما هذا؟ قلت: كتاب «التهذيب» استنسخته لكم، فأخذه، فلما نهض ليقوم قال: اجعل بالك الولىُّ لا يتفضل عليه أحد. تجد هذا فى ميزانك إن شاء الله.

فلما أتيته بالجزء الثانى لقينى بعض أصحابه عند نزولى من عنده، قال: قال الشيخ عنك والله لأجعلنه عينًا من عيون الله يُقتدَى به فى علم الظاهر والباطن، فلما أتيته بالجزء الثالث ونزلت من عنده لقينى بعض أصحابه وقال: طلعت عند الشيخ فوجدت عنده مجلدة حمراء، فقال: هذا الكتاب استنسخه لى ابن عطاء الله، والله ما أرضى له بجلسة جده، ولكن بزيادة التصوف.

قال: وأخبرنى بعض أصحابه قال: قال لى الشيخ يومًا إذا جاء ابن فقيه الإسكندرية فأعلمونى به، فلما أتى الشيخ أَعْلَمَنا الشيخ بذلك فقال: تقدّم. فتقدّمت بين يديه، فقال: جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ومعه ملك الجبال حين كذّبته قريش فقال له: هذا ملك الجبال قد أمره الله أن يطيع أمرك فى قريش، فسلّم عليه ملك الجبال ثم قال: يا محمد، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[1] فعلت، فقال رسول الله ﷺ: لا، ولكن أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يوحّد الله تعالى، ولا يُشرك به شيئًا. فضبر عليهم رسول الله

---

(١) جبلين بمكة.

ﷺ رجاء أن يخرج الله من أصلابهم. كذلك صبرنا على جدّ هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه.

قال: وخرجت يومًا من عند الفقيه «المكين الأسمر» وخرج معى «أبو الحسن الحريرى»، وكان من أصحاب الشيخ أبى الحسن فسلّمت عليه، وسلّم علىّ ببشاشة وإقبال، فقلت له: من أين تعرفنى؟ فقال: وكيف لا أعرفك كنتُ يوما جالسًا عند الشيخ أبى العباس، وكنت أنت عنده، فلما نزلت قلت له: يا سيدى، إنه ليعجبنى هذا الشاب، انقطع فلان وفلان عن الملازمة، وهذا الشاب ملازم، قال: فقال الشيخ: يا أبا الحسن لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعيًا يدعو إلى الله، فكان ما قال الشيخ رحمه الله تعالى.

قال: وكنت كثيرًا ما يطرأ علىّ الوسواس فى الطهارة، فبلغ ذلك الشيخ فقال: بلغنى أن بك وسواسا فى الوضوء!! قلت: نعم. فقال رضى الله تعالى عنه: «هذه الطائفة تلعب بالشيطان لا الشيطان يلعب بهم». ثم مكثت أياما ودخلت عليه، فقال: ما حال ذلك الوسواس قلت: على حاله!! فقال: إن كنت لاتترك الوسوسة لاتعد تأتينا، فشق ذلك علىّ وقطع الله ذلك الوسواس عنى.

[قال]: وكان رضى الله عنه يلقن للوسواس: سبحان الله الملك القدّوس الخلاق الفعال ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾[1].

[قال]: وعملتُ قصيدة أمدحه بها، فقال حين أنشدتها: أيدك الله بروح القدس.

---

(١) الآيتان ١٩، ٢٠ من سورة إبراهيم.

[قال]: ثم عملت قصيدة أخرى بإشارته جوابا لقصيدة مدحه بها إنسانا من بلاد «أخميم» فلما قرئت عليه قال: صحبنى هذا الفقيه وبه مرضان، وقد عافاه الله منهما، ولابد أن يجلس ويتحدث فى العِلمين. يشير الشيخ إلى مرض «الوسواس».

[قال]: فلقد انقطع عنى ببركة الشيخ حتى صرت أخاف أن أكون لشدة التوسعة التى أجدها قد تساهلت فى بعض الأمر، والمرض الآخر كان بى ألم برأسى فشكوت ذلك إليه، فدعا لى فعافانى الله وشفانى.

[قال]: وبتّ ليلةً من الليالى مهموما فرأيت الشيخ فى المنام، فشكوت إليه ماأنا فيه فقال: اسكت والله لأعلمنك علمًا عظيمًا.

[قال]: فلما انتبهت جئت إلى الشيخ، رضى الله تعالى عنه، فقصصت عليه الرؤيا فقال: يكون هذا إن شاء الله تعالى.

[قال]: وجاء يومًا من السفر فخرجنا للقائه، فلما سلمت عليه قال لى: ياأحمد كان الله لك ولطف بك وسلك بك سبيل أوليائه وبهاك[1] بين خلقه

[قال]: فوجدتُ بركة هذا الدعاء، وعلمت أنه لايمكننى الانقطاع عن الخلق، وأنّ مراد بهم لقوله (وبهاك بين خلقه).

[قال]: وكنت أنا لأمره من المنكرين وعليه من المعترضين، لا لشىء سمعته منه، ولا لشىء صحّ نقله عنه، حتى جرت مقاولةٌ بينى وبين بعض أصحابه، وذلك قبل صحبتى إيّاه، وقلت لذلك الرجل: ليس إلّا أهلُ العلم الظاهر، وهؤلاء القوم يدّعون أمورًا عِظامًا، وظاهر الشرع يأباها!! فقال ذلك

---

(١) بهى [بكسر الهاء] بهاء: حسن وظرف فهو بهىء

الرجل: بعد أن صحبتُ الشيخ: تدرى ماقال لى الشيخ يوم تخاصمنا؟ فقلت: لا. قال: دخلت عليه فأوّل ماقال لى: هؤلاء كالحجر ما أخطأك منه خيرٌ مما أصابك فعلمت أن الشيخ كوشف بأمرنا.

ولعمرى لقد صحبت الشيخ اثنى عشر عامًا فما سمعت منه شيئًا ينكره ظاهر الشرع من الذى كان ينقله عنه من يقصد الأذى.

[قال]: وكان سبب اجتماعى معه أن قلت فى نفسى بعد أن جرت المخاصمة بينى وبين ذلك الرجل «دعنى أذهبْ فأرى هذا الرجل»؛ فصاحب الحقّ له أمارات لايخفى شأنه.

[قال]: فأتيت إلى مجلسه، فوجدته يتكلم فى الأنفاس التى أمر الشارع بها فقال: إسلام، والثانى: إيمان، والثالث: إحسان، وإن شئت قلت: الأول: عبادة، والثانى: عبودية، والثالث: عبودة، وإن شئت قلت: الأول: شريعة، والثانى: حقيقة، والثالث: تحقق.. ونحو هذا، فمازال يقول وإن شئت قلت.. إلى أن بهر عقلى، وعلمت أن الرجل إنما يغرف من فيض بحر إلهى ومدد ربانى فأذهب الله ماكان عندى، ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد شيئًا منّى يقبل الاجتماع بالأهل على عادتى ووجدت معنى غريبًا ما أدرى ماهو، فانفردت فى مكان أنظر إلى السماء وإلى كواكبها، وماخلق الله فيها من عجائب قدرته، فحملنى ذلك إلى العود إليه مرة أخرى، فأتيت، فاستؤذن لى فلما دخلت عليه قام وتلقانى ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلا، واستصغرت نفسى أن أكون أهلا لذلك، فكان أول ماقلت له: ياسيدى أنا والله أحبك فقال: أحبك الله كما أحببتنى، ثم شكوت إليه ماأجده من هموم وأحزان. فقال: أحوال العبد أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية؛ فإن كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر، وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر، وإن

كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهودُ المنّة عليك، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجودُ الاستغفار.

[قال] : فقمت من عنده كأنما كانت تلك الهموم والأحزان ثوبًا نزعته. ثم سألني بعد ذلك بمدة: كيف حالك؟ فقلت أفتش على الهمّ فلا أجده. فقال:

ليلى بوجهك مشرق وظلامه فى الناس سارى
والناس فى سدف[1] الظلام ونحن فى ضوء النهار

الزم، فوالله إن لزمت لتكونن مفتيًا فى المذهبين، يريد: مذهب أهل الشريعة العلم الظاهر، ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن. انتهى مانقلته من «لطائف المنن». وإنما أوردت ذلك هنا، على طوله، ليعرف به قدر المؤلف، وليدفع بواضح برهانه طعن الطاعن وتعسف المتعسف، ولنتعرّض بذلك لنزول الرحمة من الله تعالى علينا وموالاة منحه وعطاياه لدينا.

فقد قيل: «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة» مع مافى ذلك من قرب المناسبة لمعنى ما أورده المؤلف من الكلام الحائز به قصب السبق بين معاصريه من الأئمة الأعلام. وأما شيخه أبو العباس وشيخ شيخه أبو الحسن فحالهما أوضح من نار على علم، ولقد طُرّزت بكلامهما الكتب والدفاتر، وزُهيت بمآثرهما وعلومهما الألسنة والأقلام والصحف والمحابر، ولولا خشية الملالة، وكراهة الإطالة لذكرنا من ذلك مايبهر عقول السامعين والمطالعين؛ وبرغم آناف الجاحدين والمعاندين.

كما قيل :

سيكفيك من ذاك المسمى إشارة ودعْه مصونًا بالجمال محجبًا

---

(١) ظلمة.

من أذن له فى التعبير فهمت فى مسامع الخلق عسارته، وجليت إليهم إشارته.

المأذون له فى التعبير هو الذى يتكلم لله وبالله وفى الله، ولذلك كان كلامه صوابا.

قال الجنيد، رضى الله عنه: «الصوابُ كل نُطق عن إذن» أشار بهذا - والله أعلم - إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[1]. فإذا قرع أسماع السامعين كلامُه فهمت فى مسامعهم عبارته. فلم يفتقروا إلى معاودة ولا تكرار، وجليت إليهم إشارته فلم يحتاجوا معها إلى إطناب ولا إكثار بخلاف غير المأذون له فى ذلك. قيل لحمدون بن أحمد بن عمارة القصّار رضى الله تعالى عنه: «مابال كلام السلف أنفع من كلامنا»؟ قال: لأنهم تكلّموا لعز الإسلام، ونجاة النفوس ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعزّ النفس وطلب الدنيا وقبول الخلق.

ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار.

من لم يستكمل الأوصاف المذكورة لم يؤذن له فى إظهار شىء من الحقائق الربانية، فإن أظهرها برزت مكسوفة الأنوار بما غشيها من ظلمة رؤية الأغيار، فمجّتها آذان السامعين، وأنكرتها قلوبهم.

وعلامة استكمال الأوصاف المذكورة أن يفتح له باب التعبير مع وجود السلامة من آفات المنطق.

---

(١) آية ٣٨: من سورة النبأ.

قال فى «لطائف المنن»: «إن من أجل مواهب الله لأوليائه وجود العبارة.

[قال] وسمعت شيخنا أبا العباس يقول: الولى يكون مشحونًا بالعلوم والمعارف والحقائق لديه مشهودة حتى إذا أعطى العبارة كان كالإذن من الله له فى الكلام. قال وسمعت شيخنا أبا العباس يقول: كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذى لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار حتى أن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد على الآخر.

عباراتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد. فالأول حال السالكين، والثانى حال أرباب المكنة والمحققين.

إنما يقع التعبير منهم عما يطالعون به من الأمور الغيبية والعلوم الإشهادية لأحد معنيين: إما حال غلبة الوجد عليهم وفيضانه، وهم معذورون فى ذلك لوجود الغلبة، وهذا حال السالكين من أهل الهداية[1]، وإمّا لقصد هداية مريد فيلزمهم ذلك لما فيه من فائدة الإرشاد والهداية، وهذا حال أهل التمكين والمحققين من أهل النهاية؛ فإن عبّر السالك لاعن غلبة وجد كان فى ذلك نوع من الدعوى وإن عبر المتمكن من غير قصد هداية مريد كان فى ذلك إفشاء سرٍّ لم يؤذن له فيه، وأيضا فحاله يقتضى وجود الصمت وعدم النطق؛ لأنه فى حضرة الحق تعالى يتلقى مايردُ على سمع قلبه من عجائب العلوم وغرائب الفهوم فكيف يصدر منهم نطقٌ أو تعبير على غير الوجه المذكور. والصمت من آداب الحضرة، قال الله عزّ وجل ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلَاتَسْمع إِلَّاهَمْسًا﴾[2].

---

(١) وفى نسخة: من أهل البداية

(٢) آية رقم ١٠٨ من سورة طه.

العبارات قوت العائلة المستمعين. وليس لك إلا ما أنت له آكل

المستمعون موسومون بالفقر والحاجة إلى معنى مايستمعون إليه من المواعظ والحكم، وهو قوت قلوبهم، وغذاء أرواحهم، كما أن المستطعمين والسُّؤالَ موسومون بالفقر والحاجة إلى قوت أبدانهم، وكما أن أقوات هؤلاء مختلفة فلا يصلح لواحد من هؤلاء مايصلح للآخر من الأطعمة والأشربة لاختلاف طبائعهم وأمزجتهم فكذلك أقوات الآخرين مختلفة، فلا يصلح لواحد منهم من العبارات التى تتضمن وجود القوت المعنوى مايصلح للآخر لاختلاف مذاهبهم وتباين مطالبهم، فإذا سمعت عبارة من عالم أو عارف أو أحد من أهل هذا الطريق ولم تحظ منها بشىء فاعلم أنها لاتصلح لقوتك وغذائك وهى صالحة لقوم آخرين، ومما ينتظم فى هذا السلك أن تقرع أسماع بعض الناس العبارة من بعض الأشخاص فيفهم منها معنى لم يقصده المتكلم ويتأثر باطنه بذلك تأثرًا عجيبًا، وقد يقع ذلك لجملة من الناس فيفهم كلّ واحد منهم مالايفهمه الآخر، ويحصل لهم بذلك التأثر مع أن المتكلّم لم يرد شيئًا من ذلك، وربما كان ذلك مضادًا له، وقد يسمع أرباب القلوب من الجمادات ويستعدون به لسنى الحالات قال فى «لطائف المنن»: «وربما فهم من اللفظ ضدّ ماقصد واضعه كما أخبرنا الشيخ الإمام مفتى الأنام تقى الدين محمد بن على القشيرى، رحمه الله، قال: كان ببغداد فقيه يقال له «الجوزى» يقرأ اثنى عشر علمًا فخرج يومًا قاصدًا المدرسة فسمع منشدًا يقول:

إذا العشرون من شعبان ولّت ... فواصل شُرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار ... فإن الوقت ضاق عن الصغار[1]

(١) وفى نسخة: فقد ضاق الزمان على الصغار.

فخرج هائمًا على وجهه إلى مكة ولم يزل مجاورا بها حتى مات، [قال] وقرئ على الشيخ «مكين الدين الأسمر» قول القائل:

لو كان لى مُسعد بالراح يسعدنى ... لما انتظرت لشرب الراح إفطارا
الراح شيء شريف أنت شاربه ... فاشرب ولو حملتك الراح أوزارا
يا من يلوم على صهباء صافية ... خذ الجِنان ودعنى أسكن النارا

فقال إنسان: هناك لاتجوز قراءة هذه الأبيات!! فقال الشيخ مكين الدين الأسمر للقارئ: اقرأ، هذا رجل محجوب!! والشيخ مكين الدين الأسمر هذا هو الذى شهد له الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه بأنه من السبعة الأبدال [قال] ويكفيك فى هذا أن ثلاثة سمعوا مناديا ينادى «ياسعتر برى» ففهم كلّ واحد منهم مخاطبة عن الله خوطب بها فى سرّه؛ فسمع الواحد: اسع تَر برّى» وسمع الآخر: «الساعة ترى برّى» وسمع الآخر: «ما أوسع برّى» فالمسموع واحد واختلفت أفهام السامعين، كما قال الله سبحانه ﴿تُسقى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بعضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾[1] وقال سبحانه ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾[2].

فأمّا الذى سمع: اسمع تَر برى فمريد دلّ على الله تعالى بالنهوض إلى الله بالأعمال، فيستقبل الطريق بالجدّ، فقيل له اسع الينا بصدق المعاملة تَر برّنا بوجود المواصلة.

وأما الثانى، فكان واصلًا إلى الله تعالى، طاولته الأوقات فخاف أن تفوته المواصلة فقيل له ترويحا على قلبه لما أحرقته نار الشغَف: الساعة تَرى برّى.

---

(١) آية رقم ٤ من سورة الرعد
(٢) آية رقم ٦٠ من سورة البقرة

وأما الآخر، فعارف كشف له عن وسع الكرم،فخوطب من حيث أشهد، فسمع: ما أوسع برّى.

[قال] وقال الشيخ محيى الدين بن العربى، رحمه الله تعالى: «دعانا بعض الفقراء إلى وليمة بزقاق القناديل بمصر، فاجتمع بها جماعة من المشايخ، فقدّم الطعام، وعمروا الأوعية، وهناك وعاء زجاج قد اتخذ للبول ولم يستعمل فقرب فيه ربُّ المنزل الطعام فالجماعة يأكلون، وإذا الوعاء يقول: مذ أكرمنى الله بأكل هؤلاء السادة منّى لا أرضى لنفسى أن أكون بعد ذلك اليوم محلاً للأذى ثم انكسر نصفين. فقال الشيخ محيى الدين: فقلت للجميع: سمعتم ما قال الوعاء؟ فقالوا نعم [قال] فقلت: ما سمعتم!! فأعادوا القول الذى تقدّم. قال. فقلت: قال قولاً غير ذلك. قالوا: وما هو؟ قلت: قال كذلك قلوبكم قد أكرمها الله بالإيمان، فلا ترضوا بعد ذلك أن تكون محلاً لنجاسة المعصية، وحب الدنيا». جعلنا الله وإياكم من أولى الفهم عنه والتلقن منه.

قلت: وهذه المنازع كلها مما يستملح ويستظرف، وتتأثر بها القلوب السليمة، وتنقاد لها النفوس الكريمة، وقدجرت عادة أئمة هذه الطريق باستعمالها وإيرادها فى محالها،فلا حرج علينا إذن فى ذكر بعض ذلك، إذا كانت له مناسبة تامة، ووجدت فيها فائدة خاصة أو عامة. وبالله التوفيق لا رب غيره.

ربما عبِّر عن المقام من استشرف عليه
وربما عبِّر عنه من وصل إليه، وذلك ملتبس إلا على صاحب بصيرة.

كما أنّ الواصل إلى مقام من مقامات اليقين يعبِّر عنه، كذلك يعبِّر عنه من استشرف عليه ولم يتحقق فيه بالمنازلة والمواصلة والتباس ذلك على من ليس له بصيرة ظاهرة، وأما ذو البصيرة فلا يخفى عليه ذلك، لأنه يرى فى الكلام صورة

المتكلم الباطنة وماهو عليه من كمال أو نقص، وقد قيل: «تكلموا تُعرفوا».

لاينبغى للسالك أن يعبِّر عن وارداته فإن ذلك يقلُّ عملها فى قلبه، ويمنعه وجود الصدق مع ربه

الواردات الإلهية لاينبغى للسالك أن يعبر عنها اختيارا منه، بل يخفيها ويصونها ولايطلع أحدًا عليها، إلا شيخا مرشدًا؛ لأن نفسه تجد فى ذلك لذة وانشراحًا، فتقوى به صفاتها فيقل بسبب ذلك عمل الواردات فى قلبه من التأثير المحمود، ولأجل غلبة أحكام نفسه وإيثار حظه يمنعه ذلك من وجود صدقه مع ربّه. وقد تقدم هذا المعنى فى قوله [استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك]

لاتمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق إلا أن ترى أن المعطى فيهم مولاك، فإذا كنت كذلك فخذ ما وافقك العلم

هذه قاعدة عظيمة يحتاج إليها السالكون المتجردون؛ ليبنوا عليها أحوالهم فيما يصل إليهم من الرفق[1] على أيدى الخلق، وقد ذكرها المؤلف، رحمه الله تعالى بعبارات بديعة محمودة موجزة، جمع فيها جملة المعانى التى يحتاج إليها من ذكرناه، فلنبسط كلامه فى ذلك على حسب عادتنا معه، على الوجه الذى ذكرناه فى مقدمة هذا التنبيه، وهذا قصدنا فى جميع ماتكلمنا عليه من مسائل كتابه.

ونقول على حسب ذلك: أرزاق العباد المعتادة لهم تنقسم إلى قسمين: أحدهما: رزقٌ يصلون إليه بأسباب وأعمال وتصرفات كالتجارات والصناعات وغيرهما، وهذا حال أهل الأسباب.

---

(١) أى العطاء

والثانى: رزقٌ يصل إليهم على أيدى الخلق من غير عمل ولاسعى، وهذا حال أرباب التجريد.

وكلّ واحد من القسمين له آداب وأحكام تخصه.

فأحكام القسم الأول وآدابه لم يتعرّض لها المؤلف رحمه الله تعالى، وهى مذكورة فى فنّ « الفقه» وغيره، فواجب على كلّ من دخل فى شىء من الأسباب تحصيل علمه وطلبُه من حيث هو.

وأحكام القسم الثانى وآدابه هى التى تعرض لها المصنف. وأجمل - رحمه الله تعالى - جميع ذلك فى مراعاة شرطين وجعلهما من شروط صحة الأخذ:

الشرط الأول: ألّا يرى العطاء إلا من مولاه عزّ وجلّ. وهذا هو الأصل. وإنما اشترطه على الأخذ؛ لأنه مقتضى حاله من تحقيق التوحيد، وتخليص التجريد، وبه يصح له مقام القناعة والتوكل، ويسقط من قلبه هم الرزق، وتزول به عنه علاقات الخلق، وإن لم يكن على هذا الوصف كان عبدًا للناس، مُولها قلبه إليهم، فيكثر طمعه فيهم، ورغبته فيما فى أيديهم، واستشرافه إليهم. فيقع بسبب ذلك فى كبائر الذنوب، من معاصى القلب والجوارح،مثل: المداهنة، والنفاق، والرياء، والتصنع، والتلبيس، والغش، وعدم النصيحة، وقلة الشفقة، وغير ذلك من الصفات المذمومة المناقضة للعبودية لله عزّ وجلّ.

قال يحيى بن معاذ، رضى الله تعالى عنه: «من استفتح باب المعاش من غير مفاتيح الأقدار وكل إلى المخلوقين».

ولا يَكفى فى تلك الرؤية المذكورة أن تكون علمًا وإيمانًا فقط، بل لابدَّ أن تكون: حالاً وذوقًا.

دعا بعض الناس شقيقًا البلخى، رضى الله تعالى عنه، وكان فى طبقته من أصحابه نحو خمسين رجلًا، فوضع الرجل طعامًا واسعًا وأنفق نفقة كثيرة، فلما قعدوا قال لهم شقيق: إن هذا الرجل يقول من لم يرنى صنعتُ هذا الطعام وأنى أقدّمه إليه فطعامى عليه حرام.

فقاموا كلّهم وخرجوا إلّا شابا كان فيهم نقصت مشاهدته عنهم، فقال صاحب المنزل لشقيق: رحمك الله ما أردتَ بهذا!!

قال: أردتُ أن اختبر توحيد أصحابى: أى كلهم لا يرونه فيما صنع، ولا ينظرون إليه فيما قدّم، إلّا ذلك الرجل وحده.

وإنما اشترطنا فى رؤية العطاء من الله تعالى أن يكون حالًا وذوقًا؛ لأن ذلك هو اللائق بحال المتجرِّد، كما ذكرناه؛ لأن التجريد حال شريف لا يُدخَل فيه بالاختيار والتعمد؛ لأن ذلك من اتباع هوى النفس وطلب الحظ والراحة.

وإنما يقيم الحقُّ تعالى فيه من أراده به من أهل التقوى والمراقبة بعد كمال شغله بالله تعالى، وجدّه فى الهرب عن كل ما يقطعه عن الله تعالى، فحينئذ يسلبه الحق من تدبيره واختياره، ويكاشفه بوحدانيته فى إيراده وإصداره، ويكون تركه للأسباب بحكم الوقت وإشارة الحال.

كما روى أن أبا حفص النيسابورى رضى الله عنه كان حدادًا، وكان غلامه يومًا ينفخ عليه الكير، فأدخل الشيخ يومًا يده فى النار وأخرج الحديدة من النار، فغشى على غلامه، وترك أبو حفص الحانوت وأقبل على أمره، وكان يقول رضى الله عنه: «تركت العمل فرجعت إليه، وتركنى العمل فلم أرجع إليه».

وقال إبراهيم الخواص، رضى الله تعالى عنه: لا ينبغى للصوفىّ أن يتعرض

للقعود عن الكسب، إلّا أن يكون رجلًا مغلوبًا قد أغنته الحال عن المكاسب، وأما من كانت الحاجات به قائمة، ولم يقع له عزوف يحول بينه وبين التكلّف فالعمل أولى به والكسب بسعى أحلّ له وأبلغ؛ لأن القعود لا يصلح لمن لم يستغن عن التكلّف».

وقد قال الشيخ أبو عبد الله القرشى، رضى الله تعالى عنه: «ما دامت الأسباب قائمة بالنفس فالاكتساب أولى».

وقال بعض المنقطعين: كنت ذا صنعة جليلة، فأريد منى تركها، فحاك فى صدرى: من أين المعاش؟ فهتف بى هاتف: «لا أراه، تنقطع إلىّ وتتهمنى فى رزقى، علىّ أن أخدمك وليا من أوليائى أو منافقًا من أعدائى».

وقد اشترط رسول الله ﷺ فى صحة قبول العطاء عدم الاستشراف إلى الناس، ولا يكاد يحصل هذا الشرط لمن ذكرناه من أهل التجريد إلّا بهذه الرؤية المذكورة، روى زيد عن خالد الجهنى، رضى الله عنه، قال، قال رسول الله ﷺ: «من جاءه معروف من أخيه من غير مسألة ولا استشراف نفس فليقبله فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه» وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من وجّه إليه شىء من هذا الرزق من غير مسألة ولا استشراف فليأخذه وليوسع فى رزقه فإن كان عنده غنى[1] فليدفعه إلى من هو أحوج منه»، وقال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، «كان رسول الله ﷺ يعطينى العطاء فأقول له: أعطه يا رسول الله من هو أفقر إليه منى، فقال ﷺ: خذه، فتموّله، أو تصدّق به».

وما جاءك من هذا المال وأنت غير مستشرف ولا سائل فخذه، ومالا،

(١) وفى نسخة: فإن كان عنده شىء.

فلا تتبعه نفسك، قال سالم: «فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحدًا شيئًا، ولا يردّ شيئًا أعطيه».

فالاستشراف إلى الناس مذموم قادح فى التوحيد، فلا ينبغى أن يأخذ المريد عطاء على هذا الوجه، روى أن أحمد بن حنبل رضى الله عنه خرج ذات يوم إلى شارع باب الشام، فاشترى دقيقًا ولم يكن فى الموضع من يحمله، فوافى أيوب الحمال فحمله، ودفع إليه أحمد أجرته، فلما دخل الدار بعد إذنه له اتفق أنّ أهل الدار قد خبزوا ما كان عندهم من الدقيق وتركوا الخبز على السرير ينشف، فرآه أيوب وكان يصوم الدهر، فقال أحمد لابنه صالح: ادفع إلى أيوب من الخبز، فدفع له رغيفين، فردّهما، فقال أحمد: ضعهما، ثم صبر قليلًا ثم قال خذهما والحقه بهما، فأخذهما، فرجع صالح متعجبًا، فقال له أحمد أعجبتَ من ردّه وأخذه؟ قال: نعم قال: هذا رجل صالح، لما رأى الخبز استشرفت نفسه إليه، فلما أعطيناه مع الاستشراف ردّه، ثم أيس، فرددناه إليه بعد الإياس فقبله.

وأما الاستشراف إلى الرزق مع قطع نظره عن الخلق، فلا يضرّه ذلك؛ لأنه خلق ضعيف ذو فاقة، ورزقه معلوم لابد منه، فاستشرافه إلى الرزق فى الحقيقة استشراف إلى الرازق، ولا ينافى ذلك حقيقة العبودية، ولكن إن كثر منها الاستشراف إلى الرزق وشَغَلت صاحبهَا عن دوام المحاضرة والمناجاة مع الحق فليصرفها عن ذلك صرفًا جميلًا، ولينهج لها من التعلّق والتوثّق بالله سبيلًا، قال الشيخ أبو عبد العزيز المهدوى، رضى الله تعالى عنه: «كنت فى بدايتى واقفًا بين العشاءين أصلى وأنا فارغٌ بلا سبب حتى جاءتنى النفس فقالت لى: السلام عليكم، قلت لها: وعليك السلام، قالت العَشاء!! فأدهتنى بداهية، فتوقفتُ، ثم ألهمنى الله تعالى أن قلت لها: أتدرين له موضعًا؟ قالت: لا. قلت

لها: أتدرى أى شىء هو ومتى هو؟ قالت: لا. قلت لها: أنا ربٌّ أو عبد؟! قالت: عبد، قلت لها: فالعبد يقدر على شىء؟! ما هذا الكفر والشرك اللذان أتيتنى بهما، اهربى إلى خالقك فاطلبى منه العشاء؛ لأنه خالقك والقادر على كل شىء فيعطيك ويجيب لك ما طلبت، فتُطعمى وتأكلى فمالك وإياى، وما هذه الحيرة؟ قال: فذهبت إلى خالقها. فجاء عشاء متمكن كثير، فأكلت. قال: وكذلك يُحْتج عليها، ومن هنا تثبت الأقدام. وذكر أيضًا مسألة عظيمة مفيدة تتضمن كيف يكون حال الفقير بالنسبة إلى الرزق، وما تحتاج بنيتُه من الرفق، وجعلها من قواعد الفقر والإرادة، فرأينا ذكرها فى هذا الموضع من الواجب المتيقن ليتحقق فى العمل بها كل من يقف عليها من مريد مبتدئ، قال رضى الله عنه: «اعلم أن الفقير لا يخلو، إمّا أن يكون جالسًا أو ماشيًا. أمّا قاعدة الجالس فإن جلسته موضع البيته، وهو مكانه وزمانه طرف سجادته لا يتعداها، ولا يكون التفاته لوقت، ولا إلى سبب معلوم، لأنه لا يدرى الأوقات ما هى، ولا يجدها، ولا يدرى متى هى، ولا وقتها، ويعلم أن جميع الأشياء تطلبه، وتحتاج إليه، لأنها خلقت من أجله وهو خليفة فيها، وقد فرغ من جمعها، فالالتفات والأمل لماذا؟! بل يكون هدفًا للأقدار تجرى عليه ولا كسب له ولا سبب فى التحصيل.

ثم قال: وأما الماشى من الفقير الذى يكون فى سفر أو غيره فلا تجاوز هِمَّتُه خطوتَه. مثاله: أن يكون ماشيًا فخطر له التغيّر والالتفاتُ إليه من بلد أو شخص أو مطعم، أو مشرب، فيهلك، ويظفر به العدوّ، وتزلّ قدمه؛ فإن تمادى فى التعلّق بشىء من هذه القواطع والشواغل ومشى إلى شىء منها، وفقده، ومات مات قاتلَ نفسه؛ وذلك أنه يكون فى يوم صائف ووهج، وقد أصابه العطش الشديد، فيعرض له خيال ماء، فيجىء العدوّ فيروّج عليه أنْ أسرع تلحقْ ذلك الماء فتشرب منه فيزول عطشك، فإن مشى راكنًا إلى هذا الخاطر يجىء

للموضع فيجده سرابًا، فهناك يظفر به ويقول له: الآن تموت، فيقتله من ساعته، فيموتُ قاتلَ نفسه؛ إذ كان جاهلًا بربّه وآياته، ولم يعرف دواءه من دائه، ولا تعلّم العلم، ولا سأل العلماء لبقائه مع نفسه قال: فحكمه إذا جاءه هذا الخاطر بالترويح من العدو فى سفره من السرعة إلى الماء والركون إلى الأغيار من منازل أو أشخاص أو غير ذلك أن يعرض على العدوّ ويقول إن الله تعالى: يمكن أن يتوفّانى قبل لحوقه، فبالضرورة يطيعه فى ذلك ويسلمه ويقول له أيضًا قال النبى ﷺ: «من مشى إلى طمعٍ فليمش رويدًا» وقال «من تأنّى أصاب أو كاد، ومن تعجّل أخطأ أو كاد، والعجلة من الشيطان»[1].

ومن هذا كثير فلا يشك شاك أنه كما يحتج للنفس والشيطان بهذه القواعد من العلم أنهم ينقطعون ولا حجة عندهم بعد الاستعانة بالله تعالى والتعلق به، ثم يقول له أيضًا: أتنكر أن الله تعالى قادر على أن يطعمنى ويسقينى إن شاء الله تعالى يُنبع لى عينًا الساعةَ قبل وصولى لذلك الماء؟ فيقول له الشيطان بالضرورة: نعم. فإذا كان هذا كذلك فالله سبحانه أعلم بمصالحى ومنافعى من كل مخلوق.

فإذا حصل هذا العلم رجع يمشى متأنيًا همّته مع خطرته[2] ناظرًا لما يرد عليه من ربّه، فإذا وصل إلى ما خطر له أوّلا أو رآه من بعد ولم يجد ما تعلّق به خاطره أولاً من صاحبٍ أو طعامٍ بقى على أصله لا تغيّر عنده ولا تردّد، فظفر بالعدو وقتله. كما فعل أيضا الشيطان بغيره الشىء أو ضدّه».

هذا ما أردنا ذكره من كلام هذا الإمام، وهو عندى من أنفس الكلام

---

(١) روى الطبرانى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من تأنى أصاب أو كاد، ومن عجل أخطأ أو كاد» وهو حديث صحيح.

(٢) وفى نسخة: مع حظوته وفى أخرى مع خطوته.

المقرِّب غايةَ المرام؛ لما تضمنه من المعانى البديعة والأنفاس الرفيعة، ولما فيه من تجريد التوحيد، والآداب المَرْضيَّة من العبيد، فهو جدير بأن يُكتب ويرسم، ويكمل به الغرض الذى تقدّم، والله تعالى أعلم.

وحكم الشرط الثانى: أن لا يأخذ إلّا ما يوافق العلم، وهذا شرط لازم للمتجرّد أيضا.

قال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله تعالى عنه: «وينبغى لمن لا معلوم عنده من الأسباب أن يتورّع فى أخذها، ويتخير المعطى لها كما يتخير أهل المكاسب فى الاكتساب؛ لأن لله تعالى فى كل شىء حكمًا، والقعود عن المكاسب لا يُسقط أحكامها، والقاعد عن الطلب لا يسقط أحكام المطالب، ولأن ترك العمل عمل يحتاج إلى علم، ولم تكن سيرة القرّاء[1] الصادقين أن يأخذوا من كل أحد، ولا فى كل وقت، ولا يأخذوا كل ما يُعطون مما يزيد على كفايتهم، إلا أن يكونوا ممن يخرجونه إلى غيرهم». اهـ

فموافقة العلم التى ذكرها المؤلف على قسمين: موافقة العلم الظاهر، وموافقة العلم الباطن، أمَّا موافقة العلم الظاهر فبأن لا يأخذ إلّا من يد بالغ عاقل تقى، وقد جاء فى الحديث: «لا تأكل إلّا طعام تقىّ ولا يأكل طعامك إلا تقىّ». فلا تأخذ من يد ظالم ولا عامل بالربا، ولا جاهل بما يحل ويحرم من وجوه المكاسب، ولا تأخذ من يد صبى، ولا عبد غير مأذون له، ولا معتوه.

وأمّا موافقة العلم الباطن فبأن لا يأخذ إلّا ما كان على وجه الرفق والمعونة فلا يأخذ إلّا ما هو مفتقر إليه فى الحال ولا غنى له عنه من ضرورياته

---

(١) وفى نسخة: الفقراء، ولعلها أصح.

وحاجاته من غير إسراف ولا إقتار، ولا بأس أن يأخذ ما يزيد على ذلك بأن كان فى خلقه سخاء وبذل وإيثار وتخلّق بمحاسن الأخلاق، لا ليتوصل به إلى حظّ عاجل من جاهٍ أو رئاسة، أو قبول عند الناس، ولا يأخذ ما يُعطاه على جهة الابتلاء والاختبار، أمّا الابتلاء فأن يأتيه قبل وقته، أو زائدًا على حاجته، فإن أخذه فليخرجه فى السر ليأمن بذلك من آفة الإظهار.

وأما الاختبار فألّا يأخذ شيئا قد نوى تركه لله تعالى من شهوة كان مبتلى بها قد ملكته وأسرته ومنعته القيام بحقوق ربّه، فليوف بعهد الله تعالى، وليدفع ذلك عن نفسه إن خاف انحلال عزمه، وفساد نيته، فإن لم يخف على ذلك فليأخذه وليخرجه إلى غيره، وهذا أشدّ شيء على النفس، وهو من أعظم درجات الزهد، ولا يأخذ من منّانٍ، ولا فخور، ولا مُظهر لعطيته، ولا يأخذ ممن يثقل على قلبه قبول عطيته؛ فقد قيل: لا تأكل إلّا طعام من يرى لك الفضل عليه فى أكله، ولا تأكل إلّا طعام من يرى أنه وديعة عنده، ولا تأكل إلا طعام زاهد، لأنه يُسرُّ بأكلك، ولا تأكل إلّا طعاما يراك صاحبه أفضل من الطعام.

وقد روى أنه أهدى إلى رسول الله ﷺ سمنٌ وأَقِط[1]، وكبشٌ، فقبل السمن والأقط، وردّ الكبش. وكان يَقْبل من بعض الناس ويَردُّ على بعض. وقال: «لقد هممت ألّا أقبل إلا من قرشي أو أنصارِّى أو ثقفى، أو دوسى» قال أبو طالب المكى: «وفَعَل هذا جماعةٌ من التابعين». جاءت إلى «فتح الموصلى» رضى الله تعالى عنه صُرَّةٌ فيها خمسون دينارًا، فقال: حدّثنى عطاء أن

---

(١) الأقط: [بفتح الهمزة وكسر القاف]، والأقط: [بفتح الهمزة وسكون القاف]، والإقط: [بكسر الهمزة وسكون القاف] = الجبن.

النبى ﷺ قال: «من آتاه الله رزقًا من غير مسألة فردّه فإنما يردّه على الله عزّ وجل»، ثم فتح الصُرَّة وأخذ منها درهما وردّ سائرها.

وكان الحسن يروى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، وحدّثنا عنه: أن رجلًا أهدى إليه كيسًا فيه ألوف، ورزمة[1] فيها من رقيق «خراسان» فردّ ذلك، فقال له بعض أصحابه فى ذلك، فقال له: من جلس مثل مجلسى هذا، وقبل من الناس شيئا مثل هذا لقى الله تعالى يوم القيامة وماله عند الله من خَلاق»[2].

وكان الحسن، رضى الله تعالى عنه: يقبل من أصحابه، وكان إبراهيم التيمى يسأل أصحابه الدرهم والدرهمين، ويَعْرِض عليه غيرهم المئين فلا يأخذ، وكان بعض العبّاد إذا دفع إليه بعض أهل الدنيا الشىء، قال: ضعه عندك وأعرض على قلبك حالى كيف أنا عندك بعد الأخذ أفضل، أو دون ذلك؟ وأصْدقنى، فإن قال: أنت عندى الآن أفضل منك قبل ذلك، أو قال له أنت عندى بعد الأخذ مثل ما كنت قبل ذلك، قبل منه. وإن أخبره بنقصانه فى قلبه لم يقبل منه.

وكان بعضهم يردّ على أكثر الناس صِلاتَهم، فَعُوتب فى ذلك، فقال: ما أردّ عليهم إلّا إشفاقا عليهم، ونصحا لهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به، فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم.

ويروى عن الأعمش أنه قال: «جاء شاب من العرب إلى إبراهيم التيمى بألفى درهم، فقال: يا أبا عمران، خذ هذه الدراهم والله ما هى من ذى سلطان، ولا من كذا، ولا من كذا. فقال له إبراهيم: بارك الله لك، وجزاك

---

(١) الرزمة [بكسر الراء] من الثياب وغيرها: ما جمع وشد معا.

(٢) الخلاق: النصيب من الخير.

خيرًا، فلما وَلّى، قلت: يا أبا عمران، ما منعك أن تأخذها، والله ما لأمرأتك قميص!! فقال: صدقت يا أبا سليمان، ولكن هذا شاب من العرب لم يحنكه السنُّ ولم تُحنّكه الآداب فكرهت أن يجلس فى حيّه فيقول: أعطيت إبراهيم ألفى درهم، فيحبط الله أجره وتذهب دراهمه».

وممن ذهب إلى هذا سفيان الثورى رضى الله عنه كان يشترط على بعض من كان يأخذ منه ألاَّ يذكره، لإشفاقه عليه، لا من أجله، بل من ذهاب أجره، لأنه قيل فى معنى قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾[1] قال: المنّ: أن يذكره، والأذى: أن يُظْهِره، وقال الجنيد للرجل الخراسانى الذى جاءه بالمال وسأله أن يأكله، فقال الجنيد: أنفقه على الفقراء. فقال الرجل أنا أعلم بالفقراء منك، ولم أختر هذا!! فقال له الجنيد: بل وأنا أؤمّل أن أعيش حتى آكل هذا!! فقال: إنّى لم أقل لك أنفقه فى الخلّ والبقل، وإنما قلت أنفقه فى الطيبات وألوان الحلاوات، وكلما نفد أسرعَ كان أحبَّ إلىَّ، فقال الجنيد: ومثلك لا يحلّ أن يردّ عليه، فقبله، فقال الرجل: ما ببغداد أحدٌ أعظم منّةً علىّ منك، فقال الجنيد: وما ببغداد أحدٌ ينبغى أن يقبل منه شىء إلاّ من كان مثلك».

وكان السرىّ السقطى يُوصّل إلى أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنهما الشىء فيردّه، فقال له سرىّ: يا أحمد، احذر آفة الردّ فإنها أشدّ من آفة الأخذ! فقال أحمد: أعد علىّ ما قلت، فأعاده، فقال له أحمد: «ما رددت عليك إلاّ وعندى قوت شهرٍ، فاحبسه لى عندك، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إلىّ».

وعلى الجملة، فلا ينبغى أن يأخذ المريد إلاّ من يد زاهدٍ عارف فبذلك يسلم من الآفات ويُكفى من جميع المئونات.

---

(١) الآية ٢٦٤ من سورة البقرة.

وقال أبو بكر الدقّاق: منذ أربعين سنة أصحب هؤلاء فما رأيت رِفقا لأصحابنا إلّا من بعضهم لبعض، أو ممن يُحبّهم ومن لم تصحبه التقوى والورع فى هذا الأمر أكلَ الحرامَ الصرف!! وإن أراد أن يسأل أمثال هؤلاء فليفعل، قال أبو طالب المكى رضى الله تعالى عنه: كان بشر بن الحارث، رضى الله تعالى عنه، لا يقبل من الناس شيئا، وكان بعضهم يقول: أُحب أن أعلم من أين يأكل؟ فقال له من يَخْبُرُ أمرَه: أنا أدرى من أين يأكل! كان له صديق عاقل، يعنى نظيره فى العقل والدين! لأن بعضهم كان لا يقبل إلّا من النظراء ولا يقبل من الأتباع.

وهذا الصديق العاقل الذى كان يقوم بكفايته ولم يكن يُظهر أمره ولا يلتقى معه هو السرى بن مغلّس السقطى رضى الله عنه، قال بشر:، رضى الله عنه: «ما سألت أحدًا قطّ شيئًا من الدنيا، إلّا سريًّا السقطى، لأنه قد صحّ عندى زهده فى الدنيا فهو يفرح بخروج الشىء من يده ويتبرَّم ببقائه عنده، فأكون قد أعنته على ما يحبُّ».

وكان سرى، رضى الله عنه، بوجّه إلى أحمد بن حنبل فى حاجاته فيقبل منه، وكان إذا ذكر عند أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه يقول: ذلك الفتى المعروف بطيب الغذاء إنه ليعجبنى أمره.

وإن بلغت به الحاجات كلَّ مبلغ وأشرف على الضعف، وتحققت الضرورة وسأل مولاه فلم يُقدِّر له بشىء ووقته يضيق عن الكسب، لشغله بحاله، فعند ذلك يقرع باب السبب، ويسأل مَن دون هؤلاء ممن جهل حاله.

جاء فى الأثر: «من جاع، فلم يسأل، فمات دخل النار».

وقد سأل الناسَ عند الحاجة، والفاقة نبى الله تعالى موسى والخضرُ عليهما

السلام، لقوله تعالى: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾[١].

وكان أبو جعفر الحداد، وهو شيخ الجنيد، رضى الله تعالى عنهما يسأل من باب أو بابين، بين العشاءين، ويكون ذلك معلومه عند حاجته من يوم أو يومين وكان له مقام فى الزهد والتوكل، قال أبو طالب: «ولم يعب هذا عليه عمومٌ ولا خصوص».

ونقل عن أبى سعيد الخراز، رضى الله تعالى عنه، أنه كان يمد يده عند الفاقة ويقول: ثمَّ شيءٌ لله..

ونقل عن إبراهيم بن أدهم، رضى الله تعالى عنه، أنه كان معتكفًا بجامع البصرة مدة، وكان يفطر فى كل ثلاثة أيام ليلةً، وليلةُ إفطاره يَطلبُ من الأبواب.

وكان الثورى يسأل فى البوادى من الحجاز إلى صنعاء اليمن، قال: كنت أذكر لهم حديثًا فى الضيافة، قال: فيُخْرجون إلىَّ طعامًا، فأتناول حاجتى وأترك ما يبقى.

وليجتنب المريدُ الأكلَ بالدين وإرفاق النسوان، فإن قيل: كيف يردّ ما يعطاه فى الوجوه التى حكمتم عليه بعدم الأخذ فيها، وهو إنما يأخذ من يد ربّه، كما تقدّم؟ وهل الردّ لذلك إلّا ردٌّ على الله تعالى، فكيف يستقيم ذلك؟.

فالجواب: أنّ القيام بحقّ الشريعةِ والطريقة لابدّ منه، والتوحيدُ لا ينافى ذلك، وقد قيل: «الكامل من لا يطفىء نورُ معرفته نور ورعه»، وكلّ باطن من العلم يخالف ظاهرًا من الحكم فهو مردود. ووجه صحة الردّ للعطاء عند

---

(١) من الآية ٧٧ من سورة الكهف.

مشاهدة التوحيد ظاهرٌ؛ إذ لا فرق فى ذلك بين يد المعطِى ويد الآخذ، فكما يشهد الآخذُ يدَ الله تعالى فى العطاء عند يد المعطِى فيأخذ ما يعطاه عند موافقة العلم اتّباعًا لإذن الله تعالى، وأمره يشهد يد الله تعالى فى المنع عند يد نفسه بالرد عند مخالفة العلم فلا يأخذه ولا يقبله اتّباعًا لنهى الله تعالى عن ذلك وعدم إذنه [فيه] كما فعله رسول الله ﷺ فى الكبش الذى أُهدى إليه مع السمن والأقِط، وكما فعله فتح الموصلى، والحسن البصرى رضى الله عنهما مع روايتهما للحديث الذى ذكر فيه أن ردّ الهدية ردّ على الله تعالى، وقد تقدم ذكره بلفظه، فبهذا يندفع ذلك الخيال، والله تعالى الموفّق لصالح الأعمال.

وإنما أطلت الكلام فى هذه المسألة، لأن الحاجة ماسَّةٌ إليها، وليُعلَم من ذلك أنَّ جميع تفاريعها ومسائلها داخل فى كلام المؤلف، رحمه الله تعالى، على حكم الإيجاز والاختصار، وكلامه فيها من بديع الكلام ومستحسنه.

ولشيخه أبى العباس المرسى رضى الله تعالى عنه، فى معنى ما ذكره كلام بديع مختصر منتزعٌ من كتاب الله عزّ وجلّ، نقله عنه فى «لطائف المنن» قال رضى الله عنه: «للناس أسباب، وسببنا نحن: الإيمان والتقوى، قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[1]. وقد جوَّد المؤلف - رحمه الله - صياغته وأحسن سياقته فى مقصد الإرشاد والهداية، والله أعلم.

ربما استحيا العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه، لاكتفائه بمشيئته، فكيف لا يستحى أن يرفعها إلى خليقته.

قد تقدَّم أن من الأدب ترك الطلب، والسؤال من الله تعالى اكتفاءً بمشيئته،

---

(١) الآية ٦٩ من سورة الأعراف.

ورضًا بسابق قسمته، وأن العارفين المحققين يستحيون من الله تعالى فى ذلك، فكيف لا يستحيون من مولاهم عزّ وجلّ عند سؤالهم للمخلوقين؟ وهل أدبهم فى ذلك واستحياؤهم من ربهم إلا واجب عليهم، فلا يسألون منهم شيئًا ولا يرفعون إليهم حاجة، لأنهم فقراء محتاجون ومولاهم هو الغنى الحميد، وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: [لا تتعد نيَّة همتك إلى غيره، فالكريم لا تتخطاه الآمال].

قال سهل بن عبد الله التسترى - رضى الله عنه - : «ما من نفس ولا قلب إلا والله مطّلع عليه فى ساعات الليل والنيل، فأيما نفس أو قلب رأى فيه حاجة إلى سواه سلّط عليه إبليس».

وقال الأستاذ أبو على الدقّاق - رضى الله تعالى عنه -: «من علامات المعرفة ألَّا تسأل حوائجك قلّت أو كَثرت إلا من الله سبحانه وتعالى، مثل موسى عليه السلام اشتاق إلى الرؤية فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾[1] واحتاج مرة إلى رغيف فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[2].

وذكَر الإمام أبو القاسم القشيرى - رضى الله تعالى عنه - أن بعض الفقراء كَان يأتى كل يوم ويقف بحذاء الكعبة بعدما يطوف ما شاء الله تعالى ويُخرج من خيبه رقعة ينظر فيها، فلما كان بعد أيام فعل مثل ذلك، ثم تباعد، ومات. فجاء بعض من يرمقه ونظر فى الرقعة فإذا فيها: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[3] قال: فكان الرجل أصابته الفاقة، فصبر، ولم يُظهر حالَه لمخلوق حتى مات.

---

(١) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٢٤ من سورة القصص.

(٣) من الآية رقم ٤٨ من سورة الطور.

وقال أبو بكر الجوهرى - رحمه الله تعالى -: كُنت بـ «عسقلان» على بُرْج أحرسُ، فمرّ بى رجل عليه جبّة صوف متخرّقة، فقمت إليه مسلّمًا، وعانقته وأجلسته، وجاريت معه فى فنون من العلم، وكان قدماه حافيتين، فقلت له: لم لا تسأل أصحابك فى نَعْل تقيك من الحفاء؟! فقال: يا أخى، لَردُّ أمسى بالحبال، وحَبس عين الشمس بالعِقال، ونقل ماء البحر بالغربال أهون علىَّ من موقف السؤال، وارتجائى من المخلوقين النوال، ثم أخرجنى من باب المدينة، فانتهى بى إلى صخرة منقورة فإذا عليها مكتوب: «كلْ مِنْ كَدّ يمينك وعَرق جبينك، فإن ضعف يقينك فاسأل المولى يعينك».

قال فى «التنوير»: «واعلم - رحمك الله - أن رفع الهمّة لسالكى طريق الآخرة عن الخلق، وعدم التعرض لهم أزين لهم من الحُلىّ للعروس، وهم أحوج إليه من الماء لحياة النفوس، ومن خُلعت عليه خِلعةُ المُلك فحفظها وصانها فحرىّ بأن تدام له ولا تُسلب عنه، والمدنّس لخلع المواهب حرىّ ألّا تترك له. فلا تُدنِّس، أيها الأخ، إيمانك بطمعك فى المخلوقين، ولا تجعلن اعتمادك إلا على رب العالمين. وكن؛ أيها الأخ «إبراهيميا»، فقد قال أبوك إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾[1] وما سوى الله آفل، إما وجودًا وإما إمكانًا، وقد قال سبحانه ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾[2] أى: اتّبعوا ملته. فواجب على المؤمن أن يتبع ملّة إبراهيم ومن ملّته رفعُ الهمة عن الخلق، فإنه يوم زُجّ به فى المنجنيق[3] تعرَّض له جبريل عليه السلام فقال له: ألك حاجة؟ فقال له: أمَّا إليك، فلا، وأما إلى الله تعالى فبَلَى. قال: فاسأله، قال: حسبى من سؤالى علمه

---

(١) آية رقم ٧٦ من سورة الأنعام.

(٢) من آية رقم ٧٨ من سورة الحج.

(٣) والمنجنيق فى الأصل: آلة حربية ترمى بها الحجارة.

بحالى، فانظر كيف رفع همته عن الخلق؛ ووجهها إلى الملك الحق، فلم يستغث بجبريل، ولا احتال على السؤال من ربه، بل رأى ربه أقربَ إليه من جبريل عليه السلام، ومن سؤاله، فلذلك سلمه من «نمروذ» ونكاله، وأنعم عليه بنواله وأفضاله، وخصَّه بوجود إقباله.

ومن مِلة إبراهيم معاداةُ كلّ ما شغل عن الله وصرف الهمَّة بالرد إلى الله لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[1] والغنى - إن أردت الدلالة عليه - فهو: اليأس من الناس.

ولقد قال الشيخ أبو الحسن - رضى الله عنه: يئست من نفع نفسى لنفسى فكيف لا أيأس من نفع غيرى لنفسى، ورجوتُ الله لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى. وهذا هو الكيمياء والأكْسير الذى من حصل له يحصل له غنىً لا فاقة بعده، وعزًّا لا ذُل معه، وإنفاقًا لا نفاد له، وهو كيمياء أهل الفهم عن الله.

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: «صحبنى إنسان وكان ثقيلًا علىّ، فبسطته يومًا، فانبسط، فقلت له: يا ولدى، ما حاجتك ولم صحبتنى؟ فقال: يا سيدى، قيل لى إنك تُحسن الكيمياء فصحبتك لأتعلم منك ذلك. فقلت له: صدقت وصدق من حدَّثك، ولكنى إخالك لا تقبل!! فقال: بل أقبل. فقلت له: نظرتُ إلى الخلق فوجدتهم على قسمين: أعداء وأحبَّاء، فنظرت إلى الأعداء فعلمت أنهم لا يستطيعون أن يشوكُونى بشوكة لم يردنى الله بها. فقطعت نظرى عنهم، ثم تعلّقتُ بالأحبَّاء فوجدتهم لا يستطيعون أن ينفعونى بشىءٍ لم يردنى الله به، فقطعت نظرى عنهم وتعلّقت بالله تعالى، فقيل لى: إنك لا تصل

---

(١) آية ٧٧ سورة الشعراء.

إلى حقيقة هذا الأمر حتى تقطع يأسك منّا كما قطعته من غيرنا أن نعطيك غير ما قسمناه لك فى الأزل».

وقال مرة أخرى لمَّا سئل عن الكيمياء: «أخرج الخلق من قلبك، واقطع يأسك من ربِّك أن يعطيك غير ما قسم لك».

قال: وَليس يدلّ على فهم العبد كثرةُ عمله، ولا مداومته على وِرده، وإنما يدلّ على نوره وفهمه غناه بربِّه، وانحياشه إليه بقلبه، وتحرره من رقّ الطمع وتحليه بحلية الورع، وبذلك تحسن الأعمال، وتزكُو الأحوال، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1] فحسن الأعمال إنما هو بالفهم عن الله، والفهم هو ما ذكرناه من الاغتناء بالله، والاكْتفاء به، والاعتماد عليه، ورفع الحوائج إليه، والدوام بين يديه، وكل ذلك من ثمرة الفهم عن الله تعالى» انتهى ما يتعلق بغرضنا من كلام صاحب التنوير وَهو من الكلام النفيس الخطير، وأنت - رحمك الله - إذا تأملته بعين بصيرتك، ناصحًا لربك فى علانيتك وسريرتك، علمت منه أنّ ما تضمنه عظيم الموقع، وأنه مستحسن منّا إيراده فى هذا الموضع، إذ هو منوط بالإيمان والتوحيد، محتاج إليه كلُّ سالك ومريد، فمن رعاه حق رعايته، وصرف إلى العمل بمقتضاه عنان عنايته، فقد تحقّق بمحاسن الإيمان، وكان من ولاية الله تعالى بمكان، ومن أهمله وضيّعه، وجهل قدره وموضعه، خيف عليه من الوقوع فى الشرك الخفىّ والجلىّ، واستحق بذلك أن يطرد عن باب مولاه العلىّ، فيقوى طمعه فى الخلق، ويضيق عليه متسعات أبواب الرزق، كما قال بعض العارفين المكاشفين قيل لى فى نوم كاليقظة، أو يقظة كالنوم.

---

(١) آية: ٧١ من سورة الكهف.

لا تُبدينَّ فاقةً إلى غيرى فأضاعفْها عليك، مكافأة لسوء أدبك، وخروجك عن حدّك فى عبوديتك، إنما ابتليتك بالفاقة لتفزع منها إلىّ، وتتضرّع بها لدىّ، وتتوكل فيها علىّ، سبكتك بالفاقة لتصير ذهبًا خالصًا فلا تزَيفنَّ بعد السبك.

وسَمْتُك بالفاقة وحكمت لنفسى بالغنى فإن وصلتها بى وصلتك بالغنى، وإن وصلتها بغيرى قطعت عنك مواد معونتى وحسمت أسبابك من أسبابى، طردًا لك عن بابى، فمن وكلتُه إلىَّ ملك، ومن وكلتُه إليه هلك». انتهى.

ومنهم من يأنف من قبول الرفق على أيدى الخلق وترتفع همته عن ذلك وإن لم يكن سؤالٍ ولا طلب، يحكى عن حماد بن سلمة رحمه الله تعالى أنه قال: كان فى جوارى امرأة أرملة لها أيتام.. وكانت ليلة ذات مطر، فسمعت صوتها تقول: يا رفيق ارفق. فخطر ببالى أنها أصابتها فاقة، فصبرت حتى احتبس المطر، فحملت معى عشرة دنانير، ودققت عليها الباب فقالت: حماد بن سلمة؟ فقلت: نعم، كيف الحال؟ فقالت: بخير وعافية، احتبس المطر ودفىء الصبيان، فقلت: خذى هذه الدنانير وأصلحى بها بعض شأنك، [قال]: فصاحت بُنيةٌ لها خماسية[1]: أتريد يا حماد أن تكون بيننا وبين معبودنا [واسطة]؟ ثم قالت لأمها: لما رفعتِ صوتك بإظهار السرّ[2] علمت أن الله يؤدبنا بإظهار الرفق على يد مخلوق!!».

وذكر الشيخ عبد الرحمن السلمى، عن ابن عباس بن دهقان قال: كنت عند بشر بن الحارث، رضى الله تعالى عنه، وهو يتكلم فى الرضا والتسليم فإذا

---

(١) لعلها من خمس خمسًا أى كان الخامس. يقال: خمس خمسًا القوم: أى كان خامسهم.

(٢) وفى نسخة لما رفعت صوتك باظهار الرفق جاء على يد مخلوق.

هو برجلٍ من المتصوفة، فقال له: يا أبا نصر، انقطعت عن أخذ البرّ من أيدى الخلق لإقامة الجاه، فإن كنت متحققًا بالزهد منصرفًا عن الدنيا فخذ من أيديهم لينمحى جاهك عندهم، واخرج بما يعطونك إلى الفقراء، وكن بعقد التوكل تأخذ قوتك من الغيب، فاشتد ذلك على أصحاب بشر، فقال بشر: اسمع أيها الرجل الجواب: الفقراء ثلاثة، فقير لا يسأل وإن أُعطى لا يأخذ فذلك من الروحانيين إذا سأل الله تعالى أعطاه وإن أقسم على الله أبرّ قسمه، وفقير لا يسأل وإن أعطى قبل، فذلك من أوسط القوم عقده التوكل والسكون إلى الله تعالى، فهو ممن توضع له الموائد فى حظيرة القدس، وفقير اعتقد الصبر وموافقة[1] الوقت، فإذا طرقته الحاجةُ خرج إلى عبيد الله وقلبه إلى الله بالسؤال، فكفارة سؤاله صِدْقُهُ. فقال الرجل: رضيتُ، رضى الله عنك.

إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه، فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا.

هذا ميزان صحيح باعتبار غالب الأنفس، لأنها مجبولة على الجهل والشره، فشأنها أبدًا إنما هو طلب الحظوظ والفرار من الحقوق كما تقدم عند قوله: «حظ النفس فى المعصية ظاهر جلىّ وحظها فى الطاعة باطن خفىّ».

فإذا وجد المريد من نفسه ميلًا وخفّة عند بعض الأعمال دون البعض اتهمها، وترك ما مالت إليه وخف عليها، وعمل بما استثقلته.

قال بعض العارفين: «منذ عشرين سنة ما سكن قلبى إلى نفسى ساعة».

وسكون القلب إلى النفس، هو: اتباعه للأخف عليها دون الأثقل، وهو

---

(١) وفى نسخة: ومدافعة.

معدود عندهم من نفاق القلب، ومن بقى عليه شيء من دواعى الهوى، وإن قلَّ، لا يؤمن عليه من مثل هذا، فخفة العمل على النفس إنما تكون لأجل موافقة هواها، وهواها لا يميل إلّا إلى الباطل، فإذا التبس عليك أمران، واجبان أو مندوبان، ولم تعلم أيهما أوجب أو أفضل لتقدِّمه على الآخر، فانظر أثقلهما على نفسك فاعمل به.

وإنما قلنا «باعتبار غالب الأنفس»، لأن النفس المطمئنة لا توصف بالجهل ولا بالشره، فقد يخفّ العمل عليها ولا يدل ذلك على أنه باطل، فليكن نظر العبد حينئذ إلى ما هو أكثر فائدة وأعظم مزية فليقدّمه على غيره.

وقد ذكر الشيخ «أبو طالب المكى» رضى الله تعالى عنه، حكاية عجيبة فى شره النفس وكونها لا تميل إلّا إلى الباطل قال: «حدثنى بعض إخوانى عن بعض هذه الطائفة قال: قدم علينا بعض الفقراء، فاشترينا من جار لنا حملا مشويا ودعوناه إليه فى جماعة من أصحابنا فلما مدّ يده أخذ لقمة وجعلها فى فيه، ثم لفظها، ثم اعتزل وقال: كلوا أنتم!! فإنه قد عرض لى عارض منعنى من الأكل. فقلنا لا نأكل إن لم تأكل!! فقال: أنتم أعلم، أما أنا فغير آكل!! ثم انصرف. [قال] فكرهنا أن نأكل دونه، فقلنا لو دعونا الشوَّاء فسألناه عن أصل هذا الحمل فلعل له سببًا مكروها، فدعوناه، فلم نزل به نسأله حتى أقرَّ أنه كان ميتةً، وأن نفسه شرهت إلى بيعه حرصًا على ثمنه، فشواه، ووافق أنكم اشتريتموه!! [قال] فرميناه للكلاب. [قال] ثم إنى لقيت الرجل بعد وقت فسألته، لأىِّ معنى تركتَ أكْله؟ وبأىِّ عارض؟ فقال أُخبرك: ما شرهت نفسى إلى طعام منذ عشرين سنة للرياضة التى ريضتها بها، فلما قَدَّمتم إلى هذا شرهت نفسى إليه شرهًا ما عهدته قبل ذلك، فعلمت أن فى الطعام علة، فكرهتُ أكله لأجل شدة شره النفس إليه».

قال الشيخ أبو طالب: فانظر - رحمك الله - كيف اتفقا فى شره النفس على قصة واحدة، ثم اختلفا بالتوفيق والخذلان فَعَصَم العالم بالورع والمحاسبة، وترك الجاهل مع شره النفس بالحرص وترك المراقبة، أعنى: البائع للحمل، وعُصم الآخرون للتوفيق بحسن الأدب، وهو: قمع شره النفس عن الأكل بعد صاحبهم، ثم تدارك البائع بعد وقوعه بصدق المشترى وحسن نيته»[١] انتهى.

وثَمَّ ميزان آخر [أصلح]، وأكثر تحقيقًا من الأول، وهو أن يقدِّر نزول الموت به، فأىُّ عمل سرَّه أن يكون مشغولاً به إذ ذاك فهو حق وما عداه باطل.

قال فى «لطائف المنن»: «والموت ميزان على الأفعال والأحوال كما هو ميزان فى دائرة الوقت[٢]، أما الرتب فكما تقدم يعنى: أنه علامة صحة مرتبة الولاية، وأما الأفعال والأحوال فإذا التبس عليك أمر لا تدرى هل يرضى الله فعله أو تركه، أو حالة أنت بها لا تدرى هل قمت فيها بحقٍ أو قمت فيها بهوى؟ فأَوْرِد الموت على ما أنت فيه من أفعال وأحوال، فكلُّ حالة وعمل تثبت مع تقدير ورود الموت عليها ولم تنهزم فهى حقّ، وكل حالة وعمل هزمها الموت فهى باطلة، إذ الموت حق، والحق يهزم الباطل ويدفعه لقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[٣] ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[٤] ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[٥].

---

(١) وفى نسخة: وحسن تنبيهه.

(٢) وفى نسخة: فى دائرة المرتب.

(٣) من الآية ١٨ من سورة الأنبياء.

(٤) من الآية ٤٨ من سورة سبأ.

(٥) من الآية ٨١ من سورة الإسراء.

وما كنت فيه قائمًا بحقّ، لم يهزمه الموت، إذ هو حق، والموت حق، والحق لا يهزم الحق.

قال: وتجاذبت الكلام أنا وبعض من يشتغل بالعلم فى أنه ينبغى إخلاص النيّة فيه، وأنه لا يُشتغل به إلّا لله تعالى فقلت له: الذى يقرأ العلم لله، هو الذى إذا قلت له تموت غدًا، لا يضع الكتاب من يده» انتهى

قلت: وهذا هو فصل الخطاب، ونهاية الصواب؛ فإن العبد فى هذه الحالة لا يصدر منه إلا العمل الصالح الخالص من شوائب الرياء وممازجة حظ النفس واتباع الهوى، فهذا هو المطلوب من العبد، ولا يستتم له ذلك إلا أن يتحقق بما يقدره من حلول الموت وحصول الفوت، وهذا هو معنى «قِصر الأمل» الذى هو أصل حسن العمل، وهو ألّا يقدّر لنفسه وقتًا ثانيًا يكون فيه حيًا، وعند ذلك يخلص عمله من الآفات، ويتطهرّ من أنواع الرعونات؛ لأن توقع الموت فى كل نَفَسٍ ولحظة يهدم عليه جميعَ ذلك، كما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى، وكلّ عمل استرسل فيه صاحبه غافلًا عن تقدير وقوع ذلك إن لم يكن متحققًا به، لم يسلم مما ذكرناه.

فإذن بعيدٌ من الإخلاص من يأخذ فى علم غير متعين عليه الأخذُ فيه، لا يجتنى ثمرته إلا فى ثانى حال، ويكون فى الحالة الراهنة متمكنًا من إيقاع طاعة تزيد مصلحتها على مصلحة ما أخذ فيه من العلم فيفوز بثوابها، ويتنجز له حصولُ التقرّب بها؛ لأن فى ذلك قوت نفسه، ووفارة حظّه، وآية ذلك: أنه قد يَعرض له فى حال أخذه فيه غرضٌ دنيوى يكون احتظاء نفسه به أكثر فيقدّمه على ما كان آخذًا فيه، ويتشاغل به من غير مبالاة بما يفوته من ذلك.

وإنما عبّرنا بلفظ «الأخذ» ليدخل فيه تعلم المتعلّم، وتعليم المعلم؛ فإن الأمر

فيهما واحد، وكل عمل لا إخلاص فيه ليس بالله ولا لله مردودٌ على صاحبه، مضروب به وجهه.

وبهذا يتبيّن لك غرور أكثر الخلق فى علومهم وأعمالهم إلا من رحم الله تعالى.

ولهذا نشاهد أكثر الناس عند نزول الموت بهم يندمون على ما أسلفوه من عمل، ويودّون أن لو أُنسيء لهم فى الأجل، وهيهات هيهات..!! فنعوذ بالله من الغفلة فى زمان المهلة؛ فإنها مبدأ كل عمل فاسد ومنشأ وجود الغرة والجهالة لكل عالم وعابد، وما ذكرنا من معرفة اختلاف درجات الصالح ليقدم الفاضل فيها على المفضول لا يصلح إلا لمن أيّده الله بنور اليقين، وجَبَلَه[1] على النصيحة فى الدين، وكان له حظٌ وافر من الخوف والحذر، وموافقة مولاه فى كل ورد وصدر.

ولا شك أن هذه المرتبة عزيزة المنال، متعذر إدراكها إلا من الآحاد من الرجال، وسبيل من لم يصل إليها ممن ذكرناه إذا كان منصفًا أن يستعين بنظر من هو أصح منه حالا، وأصوب مقالا وفعالا[2]، ويفوّض جميع أموره إليه، ويعتمد إشارته فى كلِّ ما يشير به عليه، وعلامة إنصافه: وجودُ اتهامه لنفسه، وعدم اعتماده على عقله وحَدْسه، ومن لم يكن منصفًا فالكلام معه هذيان فاسدٌ، وضرب فى حديد بارد، وسيأتى مزيد تنبيه على غرور الآخذين فى العلم فى موضع أليق من هذا.

من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات، والتكاسل عن القيام بالواجبات

---

(١) جبله: خلقه وفطره.

(٢) الفعال - بفتح الفاء - الفعل الحسن.

هذه من الصور التى يتبين بها خفّةُ الباطل وثقلُ الحقّ على النفْس

وما ذكره هو حال أكثر الناس؛ فترى الواحد منهم إذا عقد التوبة لا همَّة له إلا فى نوافل الصيام والقيام، وَتكرار المشى إلى بيت الله الحرام، وَما أشبه ذلك من النوافل. وَهو مع ذلك غير متدارك لما فرط فيه من الواجبات، وَلا متحمل[1] لما لزم ذمته من الظلامات وَالتبعات، وَما ذاك إلا لأنهم لم يشتغلوا برياضة نفوسهم التى خدعتهم، ولم يحفلوا بمجاهدة أهوائهم التى استرقتهم وملكتهم، ولو أخذوا فى ذلك لكان لهم فيه أعظمُ شغل، ولم يجدوا فسحة لشىء من التطوعات والنقل قال بعض العلماء: «من كانت الفضائل أهمَّ إليه من أداء الفرائض فهو مخدوع».

وقال محمد بن أبى الورد، رضى الله عنه،: «هلاك الناس فى حرفتين: اشتغال بنافلة وتضييع فريضة، وعمل بالجوارح بلا مواطأة القلب عليه، وإنما حُرموا الوصول بتضييعهم الأصول».

وقال الخوّاص، رضى الله عنه، : «انقطع الخلق عن الله بخصلتين؛ إحداهما: أنهم طلبوا النوافل وضيّعوا الفرائض، والثانية: أنهم عملوا أعمالاً بالظاهر، ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها، وأبَى الله أن يقبل من عامل عملاً إلاّ بالصدق وإصابةِ الحق».

قال الشيخ أبو طالب المكى، رضى الله عنه،: «فأفضل شىء للعبد معرفتُه بنفسه، ووقوفُه على حَدِّه، وإحكامُه لحالته التى أقيم فيها، وابتداؤه بالعمل بما افترض عليه بعد اجتنابه لما نُهى عنه بعلم يرشده فى جميع ذلك، وَوَرَع يحجزه عن الهوى فى ذلك، ولا يشتغل بطلب نفل حتى يفرغ من فرض؛ لأن

---

(١) فى أغلب النسخ: متحلل

النفل لا يصح إلا بعد حوز السلامة، كما لا يخلص الربح للتاجر إلا بعد حوز رأس المال، فمتى تعذرت عليه السلامة كان من الفضل أبعد، وإلى الاغترار أقرب» اهـ

قيد الطاعات بأعيان الأوقات كى لا يمنعك عنها وجود التسويف، ووسع عليك الوقت كى تبقى لك حصة الاختيار

أنعم الله عليك فيما أمرك به من الطاعات المؤقتة بالأوقات بنعمتين عظيمتين؛ إحداهما: تقييدها لك بأعيان الأوقات لِتُوقِعها فيها، فتفوز بثوابها ولو لم يفعل هذا لسوّفت بها ولم تعمل بها حتى تفوت فيفوتك ثوابها.

والنعمة الثانية: توسيع أوقاتها عليك ليبقى لك نصيب من الاختيار حتى تأتى بالطاعات فى حال سكون وتمهّل من غير حرج ولا ضيق. ولله الحمد على نعمه.

علم قلة نهوض العباد إلى معاملته فأوجب عليهم وجود طاعته فساقهم إليها بسلاسل الإيجاب، عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل.

لما علم الله تعالى قلّة نهوض العباد إلى معاملته الواجبة له عليهم، من: إقامة العبودية لمشاهدة الربوبية فى حال طواعية منهم، إذ فى ذلك قرّة أعينهم، وغايةُ نعيمهم أوجب عليهم وجود طاعته على حال كراهية منهم لأجل ما خوّفهم به إن لم يفعلوا، فساقهم بسلاسل تخويفه وتحذيره إليه[1]، واستدرجهم بذلك إلى ما فيه نعيمهم[2] مما لا علم لهم به، وفعل بهم ما يفعل

---

(١) وفى نسخة: فساقهم بسلاسل إيجابه إليه. فى أخرى فساقهم بسلاسل إيجابه وتحذيره إليه.

(٢) وفى نسخة: إلى ما فيه تعب لهم.

بالصبى ألا تراه كيف يؤدَّب ويُضرب[١] على استرساله على مقتضى طبعه وجبلته، ويُلزم أمورًا شاقة عليه فيفعلها وهو كاره لذلك. والغرضُ إنما هو حصوله على منافعه التى هو جاهل بها، فإذا كبر وعقل عرف ذلك عيانا.

وقد عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل، كما فُعل بأسارى الكفار حين يراد منهم الدخول فى الإسلام فيقادون إلى الجنة بالسلاسل فى رقابهم، وهذا حديث يروى عن رسول الله ﷺ هكذا: «عجب الله من أقوام يقادون إلى الجنة بالسلاسل»[٢]. قلت: وتعبير المؤلف، رحمه الله، بالسلاسل، والسوق بها، واستعمالُه ذلك فى التكاليف الواجبة التى ألزمَ العبادَ القيامَ بها من بديع الاستعارات، كما قال الشاعر، وهو أبو خراشٍ الهذلى:

وليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وكذلك تمثيله بالحديث المذكور فيه ذلك والإشارة به إلى مقصوده فى غاية الحسن.

قال بعض العلماء: يجوز أن يكون معنى التعجب المنسوب إلى الله تعالى فيه إظهارَ عجب هذا الأمر لخلقه؛ لأنه بديع الشأن، وهو أن الجنة التى أخبر الله تعالى بما فيها من النعيم المقيم، والعيش الدائم، والخلود فيها الذى من حُكْمِ مَن سمع به من ذوى العقول أن يسارع إليها ويبذل مجهوده فى الوصول إليها ويتحمل المكاره والمشقات لينالَها، هؤلاء يمتنعون عنها ويرغبون عنها، ويزهدون فيها حتى يُقادوا إليها بالسلاسل كما يُقاد إلى المكروه العظيم الذى تنفر منه الطباع وتألم منه الأبدان وتكرهه النفوس. وقد قرأ جماعة من القراء «بل

---

(١) وفى نسخة: ويصرف عن استرساله

(٢) حديث صحيح رواه البخارى والإمام أحمد وغيرهما رضى الله عنهم.

عجبتُ ويسخرون» بضم التاء. وفى حديث رسول الله ﷺ: «لقد عجب الله من فلان وفلانة فى قصة الأنصارى الذى قال لامرأته «أكرمى ضيف رسول الله ﷺ[١]» وهو حديث صحيح مشهور.

فالعجبُ منسوب إلى الله تعالى، وقد ورد فى الكتاب والسنة. فهو إذن من الصفات السمعية.

أوجب عليك وجود خدمته وما أوجب عليك إلا دخول جنته

هذه عبارة حسنة موافقة لمعنى ما تقدّم، والمقصود من هذا كلّه الإعلامُ بأن الله تعالى غنىّ عن خلقه لا تنفعه طاعتهم ولا تضرّه معصيتهم، وأن التكاليف كلَّها إنما أوجبها عليهم لِما يرجع إليهم من مصالحهم لا غير.

قلت: وما ذكره المؤلف، رحمه الله، هو حال عامة الناس الذين من شأنهم التأنّى[٢] وعدمُ الانقياد للأوامر والنواهى، ولذلك احتاجوا إلى التخويف والتحذير والموالاة للحضّ والمبالغة فى النكير.

وأمّا الخاصة منهم فلم يحتاجوا إلى شىء من ذلك؛ لأن الله تعالى شرح

---

(١) الحديث: هو عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: إنى مجهول، فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء! فقال: من يضيف هذا الليلة؟ فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته: أكرمى ضيف رسول الله ﷺ. وفى رواية: قال لامرأته هل عندك شىء؟ قالت: لا إلا قوت صبيانى قال: فعلليهم بشىء، وإذا أرادوا العشاء فنوميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئى السراج وأريه أنا نأكل فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين، فلما أصبح غدا على النبى ﷺ فقال: «لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة» متفق عليه

(٢) وفى نسخة: التأبى.

صدورهم ونوّر بصائرهم، وكتب فى قلوبهم الإيمان وحبَّب إليهم الطاعة وبغّض إليهم العصيان، فلم يقتصروا على ما اقتصر عليه المذكورون من فعل الواجبات واجتناب المحظورات فقط، بل أضافوا إلى ذلك المبادرة إلى أعمال الطاعات، والمسارعة إلى نوافل الخيرات، وبالجملة صارت أعمالهم كلّها قُربات، وذلك لتمام حريتهم[١] وصحة عبوديتهم «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه».

قال فى «التنوير»: «إنما جعل الحق، سبحانه، الإيجابَ على العباد علمًا منه بما هم عليه من وجود الضعف، وبما نفوسهم متصفة به من وجود الكسل فأوجب عليهم ما أوجبه لأنه لو خيرهم فيما أوجب عليهم لم يكونوا به قائمين إلاّ قليلاً، «وقليل ماهم» فأوجب عليهم وجود طاعته.

وفى التحقيق ما أوجب عليهم إلاّ دخول جنته فساقهم إلى الجنّة بسلاسل الإيجاب: عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل[٢].

قال: واعلم، رحمك الله، أنا تلمحنا الواجبات فرأينا الحق، سبحانه، جعل فى كلّ ما أوجبه تطوّعًا من جنسه فى أىّ الأنواع كان ليكون ذلك التطوّع من ذلك الجنس جابرًا لما عساه أن يقع من الخَلل فى قيام العبد بالواجبات، وكذلك جاء فى الحديث: «إنه يُنظر فى مفروض صلاة العبد فإن نقص منها شىء كمل من النوافل» فافهم، رحمك الله، هذا. ولا تكن مقتصرًا على ما فرض الله عليك، بل لتكن فيك ناهضةُ حبّ توجب إكبابك على معاملة الله

---

(١) وفى نسخة: خدمتهم

(٢) روى أحمد فى مسنده والبخارى وأبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل».

تعالى فيما لم يوجبه عليك، ولو كان العباد لا يجدون فى موازينهم إلّا فعل[١] الواجبات وثواب ترك المحرمات لفاتهم من الخير والمنّة مالا يحصره حاصر، ولا يحرزه حارز[٢]، فسبحان الله الفاتح للعباد باب المعاملة، والمهيىء لهم أسباب المواصلة.

قال: واعلم أن الحق - سبحانه - علم أن عباده ضعفاءَ وأقوياء، فأوجب الواجبات وبيّن المحرمات، فالضعفاء اقتصروا على القيام بما أوجبَ والتركِ لما حرّم، وليس فى قلوبهم من سلطان الحب ووجود الشغف ما يحملهم على المعاملة من غير إيجاب، فمثلهم مثلُ العبد يعلم السيد منه أنه إن لم يخارجه[٣] لم يُهد إليه شيئًا؛ فلذلك وقّت سبحانه الأوراد، ووظّف وظائفَ العبودية، وعرف ذلك بالطالع والغارب[٤] والزوال وصيرورة ظل كلِّ شىء مثلَه فى الصلاة، وبالحول فى الأموال النامية العين والماشية، وبوقت حصول المنفعة فى الزرع ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[٥]، وبعشر ذى الحجة فى الحج، وبشهر رمضان فى الصيام، فوظف الوظائف ووقتها وجعل للنفوس فيها فسحة الحظوظ والسعىَ فى الأسباب.

وأهلُ الله هم أهلُ الفهم عنه جعلوا الأوقات كلّها وقتًا واحدًا، والعُمْر كله نهجًا إلى الله تعالى قاصدًا، فعلموا أن الوقت كله له، فلم يجعلوا شيئًا منه لغيره؛ ولذلك قال الشيخ أبو الحسن، رضى الله تعالى عنه،: «عليك بورد واحد، وهو: إسقاط الهوى ومحبة المولى، أبتِ المحبةُ أن تستعمل محبًّا إلّا فيما يوافق محبوبه». وعلموا أن الأنفاس أمانات الحق عندهم وودائعَه لديهم فعلموا

---

(١) وفى نسخة: إلا فعال.
(٢) وفى نسخة: ولا يحزره حازر.
(٣) تخارج الرجلان اقتسما فأخذ بعضهم الدار مثلًا وبعضهم الأرض.
(٤) وفى نسخة: بالمطالع والمغارب.
(٥) آية ١٤١ من سورة الأنعام.

أنهم مطالبون برعايتها، فَوجَّهوا هممهم لذلك، وكما أنّ له الربوبية الدائمة كذلك حقوق ربوبيته عليك (دائمة؛ فربوبيتُه غيرُ مؤقّتة بالأوقات، فحقوق ربوبيته عليك)[1] ينبغى أن تكون أيضًا كذلك؛ لذلك قال الشيخ أبو الحسن، رضى الله عنه: «إن لكل وقت سهمًا يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية» ا هـ

من استغرب أن ينقذه الله من شهوته، وأن يخرجه من وجود غفلته فقد استعجز القدرة الإلهية وكان الله على كل شيء مقتدرًا.

من استرقته الشهوة، واستولت عليه الغفلة فلا ينبغى له أن يستغرب أن ينقذه الله من أسر شهوته، وأن يخرجه من وجود غفلته لِما يشاهد من استحكام ذلك فيه؛ فإنّ فى ذلك نسبةَ العجز إلى القدرة الإلهية، والله تعالى مُتَّصفٌ بالاقتدار على كلّ شيء وهذا من الأشياء.

وليعلم العبدُ أن قلوبَ العباد ونَواصيهم بيده؛ فلا يقنط، ولا ييأس، وليقصدْ باب مولاه بالذلة والانكسار والافتقار، فعساه يسهل عليه ما استصعبه ويُظهر فيه ما استغربه، وما ذلك على الله بعزيز.

وليعتبر هذا المعنى بالحكايات التى تروى عن الصالحين الذين تقدّمت لهم فى بدايتهم الزلّاتُ، ووقعت منهم قبل توبتهم الهفوات، فتداركهم الله تعالى بلطفه، واستنقذهم بجوده وعطفه، فأصلح أعمالهم، وصفى أحوالهم، وأبدل سيئاتهم حسنات، ورفعهم من أسفل سافلين إلى أعلى الدرجات، كلّ ذلك فى أقرب زمان، وأقصر مُدّةٍ وأوانٍ.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ.

والحكايات فى هذا المعنى عن الشيوخ، مثل سيدى «الفضيل بن عياض» و «عبد الله بن المبارك» و «أبى عقال بن علوان» وغيرهم، رضى الله تعالى عنهم، معروفةٌ مشهورةٌ.

وَمن أغرب ما رأيته فى هذا المعنى ما روَاه عبد الصمد بن مغفل، عن عمه وَهب بن منبه، رضى الله عنهما: أن رجلاً قتل نفسًا فجاء إلى سائح من سائحى بنى إسرائيل، فسأله عن ذلك قال: فرفع له السائح من الأرض عُرجونًا أبيض قديمًا حائلاً، ثم قال له: إذا اخضر هذا العرجون قُبلت توبتك، وَأرادَ السائح بذلك أن يؤيسه من التوبة لِعظم ذنبه.

فاخذ الرجلُ العرجونَ وَهو يطمع فى التوبة وَيعزم، فتاب، وجعل يعبد الله زمانًا، ويدعو حتى اخضرَّ ذلك العرجون بإذن الله تعالى وقدرته.

وأغربُ من هذا وأعجبُ ماخرجه مسلم فى صحيحه من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: (كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا فسأل عن أعبد أهل الأرض، فَدُلَّ على راهب، فأتاه فقال: قتلت تسعة وتسعين نفسًا، فهل لى من توبة؟! فقال: لا !! فقتله فكمل به المائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟! انطلق إلى أرض كذا، وكذا؛ فإنَّ بها أناسًا يعبدون الله عزَّ وجلَّ فاعبد الله معهم ولاترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا أتى نصف الطريق أتاه [ملك] الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب؛ فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قطّ!!

فأتاهم مَلَك فى صورة آدميّ، فجعلوه حَكَمًا بينهم، فقال: قيسوا مابين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه، فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد، فقبضته ملائكة الرحمة).

قال قتادة، قال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه ملك الموت نأى بصدره.

وقال عيسى بن دينار: «كان يقال: ما وفق الله عبدًا لعمل إلا وهو يريد أن يقبله منه، ولا وفق الله عبدًا لنزوع عن ذنب إلا وهو يريد أن يغفر له».

وقد ذكر القاضى يونس بن عبد الله المعروف بـ «ابن الصفار» رحمه الله فى كتاب «التيسير لصالح العمل»: أنه أخبره ثقة من أهل العلم قال: كان رجل من أهل الأدب له أصحاب تجمعه بهم مجالس مكروهة، فدعوه ذات يوم فلم يجبهم، فقالوا له: ما يمنعك من إجابتنا؟ فقال: دخلت البارحة فى الأربعين، وأنا أستحى من سنّى!! ثم لزم الخير والعبادة.

قال: وروى عن عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، أنه قال: «وجبت حجة الله على ابن الأربعين»

وذكر فيه أيضا عن مغُيث بن سمّى قال: كان رجل من بنى إسرائيل يعمل بالخطايا، فبينما هو يسير ذات يوم ذَكَر ما سلف من عمله فقال: اللهم غفرانك. فمات على ذلك الحال، فغفر له.

وذكر فيه أيضًا عن رجل من العلماء أنه رأى فى منامه شيخًا وجماعة من الشعراء قد أحدقوا به يسألونه قال: فقلت له: أيها الشيخ اخبرنى بأحكم بيت قالته العرب، فأنشدنى:

صبا ما صبًا حتى علا الشيبُ رأسَه فلما علاه قال للباطل أبعد

قال: فوالله لقد نفعنى الله عزّ وجلّ بهذا البيت ماذكرته بعد ذلك عند شهوة أو خطيئة إلا ارتدعت عنها، وأرجو أن لايفارقنى الانتفاع به مابقيت إن شاء الله تعالى.

وفى الكتاب المذكور حكايات مستحسنات فى هذا المعنى، فطالع ذلك فيه والله المستعان لارب غيره.

ربما وردت الظلم عليك ليعرفك قدر ما أنعم به عليك.

الظَلَم: أضداد الأنوار. فما من نور إلّا وفى مقابلته ظلمة. وكلّ ظلمة على قدر نورها، والشىء يعرف بضدّه، كما قيل:

وبضدّها تتبين الأشياء

فما أورده عليك من ظلمات الحجبة والغيبة فى ليالى الهجر والفرقة فإنما ذلك ليعرِّفك قدر ما مَن عليك من أنوار التجلى والحضور فى نهاية القربة والوصلة فجميع ذلك نِعم سابغة عليك من غير علم منك بذلك.

من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها

أكثر الناس لايعرفون قدر النعم إلا إذا فقدوها، وذلك لأجل غلبة الغفلة عليهم حين وجودها عندهم.

قال سرىّ السقطىّ، رضى الله عنه: «من لم يعرف قدر النعم سلبها من حيث لا يعلم»

وقال الفضيل، رضى الله عنه: «عليكم بمداومة الشكر على النعم؛ فقلَّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم».

وقال بعض البلغاء: «إذا كانت النعمة وسيمة، فاجعل الشكر لها تميمة».

وقال آخر: «شكر النعمة عصمةٌ من حول النقمة». وفى معنى هذا قيل: «إنما يعرف قدر الماء من بلى بالعطش فى البادية، لا من كان على شاطىء الأنهار الجارية». وقيل أيضا: «الولد العاق المصر على تأبيه إنما يعرف قدر الآباء يوم وفاة أبيه». وقيل: «نعم الله مجهولة، وتعرف إذا فُقدت».

ومن دعاء بعض الصالحين: «اللهم عرّفنا نعمتك بدوامها، ولاتعرّفها لنا بزوالها».

قلت: ولأجل غلبة الجهل بالنعم إلا عند الفقد وتضييع الشكر عليها من العبد أمرنا رسول الله ﷺ بالنظر إلى من هو أسفل منّا، لئلا نرى نعمة الله علينا، والسعيد من وعظ بغيره، قال رسول الله ﷺ فيما روى عنه أبو هريرة، رضى الله عنه: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولاتنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لاتزدروا نعمة الله عليكم»[١].

وروى أيضا عنه ﷺ أنه قال: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه»[٢].

قال الشيخ أبو حامد رضى الله عنه «كان بعض الصوفية وظف على نفسه كل يوم أن يحضر دار المرضى فيشاهدهم ويشاهد عللهم، ومحنهم ويحضر حبس السلطان، ويشاهد أرباب الجنايات، ومحنهم، فى التعرض لإقامة العقوبات، ويحضر المقابر فيشاهد أصحاب العزاء وتأسفهم على مالا ينفع مع اشتغال الموتى بما هم فيه، وكان يعود إلى بيته، ويشتغل بالشكر طول النهار على نعم الله عليه فى تخليصه من تلك البلايا» ا . هـ.

---

(١) حديث صحيح رواه الإمام أحمد والإمام مسلم وغيرهما عن أبى هريرة.
(٢) حديث صحيح متفق عليه، أخرجاه عن أبى هريرة.

وكان الربيع بن خيثم، رضى الله عنه، حفر فى داره قبرًا، وكان يضع فى عنقه غُلا، وينام فى لحده، ثم يقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّى أَعمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾[1]. ثم يقوم ويقول: ياربيع، قد أعطيت ماسألت. فاعمل، قبل أن تسأل الرجوع فلا تُرد. هذا كله موافق لأمر رسول الله ﷺ فى الحديثين المذكورين. ولاطريق للعبد الغافل إلى تعرّف النعم الموجودة لديه أبلغ منه؛ فإذا عرف نعم الله تعالى عليه اشتغل بالشكر عليها من قبل أن تزال عنه، فلا يكون له سبيل إليها. وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله: [من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها]

لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك؛ فإنّ ذلك مما يحط من وجود قدرك.

إذا ترادفت نعم الله تعالى عليك فلا ينبغى أن تدهشك عن القيام بشكرها من حيثُ ترى عجز نفسك عن توفية ذلك، وألاّ قبل لك به فتتركه، فإن الله تعالى رفع قدرك وأعلى أمرك وجعل القليل منك كثيرًا، وأشهدك من حُسن توليه لك، ونسبة أفعالك إليه مايؤذن بعظم سيادتك ورفعة قدرك، فَلِم تبخس نفسك حقّها عن قدرها فتراها عاجزة عن الشكر والقيام بمقتضى الأمر، لا على وجه الأدب والإتيان[2] من الشكر بما وجب كأن الأمر فى ذلك إليها.

قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه: «ما من نعمة إلاّ والحمد لله أفضل منها والنعمة التى ألهم الله بها الحمد أفضل من الأولى؛ لأن بالشكر يستوجب المزيد». وفى أخبار داود عليه السلام: «إلهى، ابن آدم، ليس فيه شعرةُ

---

(١) الآية ٩٩، ١٠٠ من سورة المؤمنون.

(٢) وفى نسخة بمقتضى الأمر على وجه الأدب والتأدب من الشكر.. الخ.

إلّا وتحتها نعمة وفوقها نعمة فمن أين يكافئك؟! فأوحى الله تعالى إليه: يا داود إنى أعطى الكثير وأرضى باليسير، وإنّ شكر ذلك أن تعلم أنّ مابك من نعمة فمنى».

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، إليه: إنى بأرض قد كثرت فيها النعم حتى أشفقت علىّ[١] من قبل ضعف الشكر»، فكتب إليه عمر: إنّى كنت أراك أنك أعلم بالله مما أنت إن الله تعالى لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته لو كنت لاتعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل، قال الله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وسُليمانَ عِلمًا وَقَالاَ الْحمْدُ لله الذى فَضَّلَنا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ المؤْمنينَ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذينَ اتَّقوا رَبَّهُمْ إلى الجنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إذَا جَاءوها وَفُتِحَتْ أبْوَابُها وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلاَمٌ عَلَيْكُم طِبتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ، وقَالُوا الْحَمدُ لله الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾[٣] الآيات وأىُّ نعمة أعظم من دخول الجنة؟

تمكنُ حلاوةِ الهوى من القلب هو الداء العضال[٤]

القلبُ محل الايمان والمعرفة واليقين، وهذه هى الأدوية لأمراضه التى أوجبها وجود الهوى والشهوة؛ فإذا تمكن الداء من القلب لم يبق للدواء محل، فلذلك أعضل أمرهُ تعذر برؤه.

لايُخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج، أو شوق مقلق.

---

(١) وفى نسخة (على من قبلى).
(٢) الآية ١٥ من سورة النمل.
(٣) الآية ٧٣، ٧٤ من سورة الزمر.
(٤) الداء العضال هو الذى لاتزيده المداواة إلا تمكنا وقوة.

الشهوة المتمكنة من القلب لايخرجها إلا وارد قوى قاهر غلاب يرد عليه وذلك: إمَّا خوف مزعج، أو شوق مقلق، وما عدا هذين الأمرين لا استقلال له بذلك.

كما لايُحبُّ العمل المشترك كذلك لا يحب القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله والقلبُ المشترك لا يُقبل عليه.

العمل المشترك هو المشوب بالرياء والتصنع، والقلب المشترك هو الذى فيه محبة غير الله تعالى والسكون إليه والاعتماد عليه؛ فالعمل المشترك معتل بنظر صاحبه إلى الناس، والقلب المشترك معتل بنظر صاحبه إلى نفسه[١]. فالعمل المشترك لايُحبّه، ولا يَقْبله، ولا يثيب عليه؛ لفقد الإخلاص منه، والقلبُ المشترك لا يحبّه ولا يُقبل عليه ولا يرضى عنه؛ لعدم وجود الصدق فيه، فمن صحَّح أعماله بالإخلاص وأحواله بالصدق كان محبوبًا لله تعالى، مُثابًا، مرضيا عنه، عنه؛ وإلّا فلا[٢]. وقال رضى الله عنه:

أنوار أذن لها فى الوصول، وأنوار أذن لها فى الدخول

الأنوار الواردة على القلوب من خزائن الغيوب تنقسم إلى قسمين:
أنوارٌ أذن لها فى الوصول إلى ظاهر القلب فقط.
وأنوارٌ أذن لها فى الدخول إلى صميم القلب وسويدائه.

---

(١) وفى نسخة (إلى الأغيار).

(٢) يقول الله سبحانه: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾،وعن الضحاك بن قيس فيما أخرجه البزار والبيهقى قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول: أنا خير شريك، فمن أشرك معى شريكا فهو لشريكى، يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم فإن الله تبارك وتعالى لايقبل من الأعمال إلا ماخلص له، ولا تقولوا هذه لله وللرحم، فإنها للرحم وليس لله منها شيء، ولا تقولوا هذه لله ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم وليس لله منها شيء».

فالأنوار الواصلة إلى ظاهر القلب يُشاهد العبدُ معها نفسه وربَّه، ودنياه وآخرته، فيكون تارة مع نفسه وتارة مع ربِّه، وطورًا يسعى فى العمل لآخرته، وطورًا يعمل فى أمور دنياه.

والأنوار الداخلة إلى صميم القلب وسويدائه لا يظهر فيها إلا وجود الله عز وجل؛ فذلك لايُحبُّ سواه ولا يعبد إلّا إيَّاه.

قال بعض العارفين: «إذا كان الإيمان فى ظاهر القلب كان العبد محبا للآخرة والدنيا، وكان مرَّة مع الله تعالى ومرَّة مع نفسه؛ فإذا دخل الايمان باطن القلب أبغض العبد دنياه وهجر هواه».

وفى لفظ آخر: «إذا كان الإيمان فى ظاهر القلب يعنى: أعلى الفؤاد، كان المؤمن يحب الله حبا متوسطًا فإذا دخل الإيمان فى باطن القلب، وكان فى سويدائه، أحبه الحب البالغ»

قال الشيخ أبو طالب المكى: «ومحبة العبد ذلك: أن ينظر فإن كان يؤثر الله تعالى على جميع هواه ويغلب محبته على هواه حتى تصير مَحبَّةُ الله هى محبَّةُ العبد من كل شيء فهو محب لله تعالى حقا، كما أنه مؤمن به حقا، وإن رأيت قلبك دون ذلك فلك من المحبة بقدر ذلك».

وقال بعض العلماء: «ظاهر القلب محلُّ الإسلام وباطنه مكّان الإيمان، فمن هاهنا يتفاوت المحبّون فى المحبة؛ لفضل الإيمان على الإسلام وفضل الباطل على الظاهر.

ربّما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشوًّا بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت، فَرِّغ قلبك من الأغيار يملؤه بالمعارف والأسرار

الأنوار الإلهية قد ترِد على القلب فلا تجد فيه موضعًا لاستقرارها؛ لما غلب عليه من رعونات البشرية واستحكم فيه من صور الآثار الكونية، فترتحل من حيث تنزل لأنها مقدّسة مطهرة؛ فإذا أردت حلول الأنوار فيه وتجَلّى المعارف والأسرار له ففرغه من الأغيار، وامح عنه صور الآثار، قال الله تعالى: ﴿والَّذِينَ جَاهَدُوا فينَا لنهْدِيَنَّهُم سُبُلَنَا وَإنَّ الله لَمع المُحْسنِينَ﴾[1].

وقد تقدّم من كلام المؤلف، رحمه الله تعالى: [كيف يشرقُ قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته]

فلا تستبطئ منه النوال، ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال.

تقدم التنبيه على هذا المعنى عند قوله: [لا تطالب ربّك بتأخير مطلبك، ولكن طالب نفسك بتأخير أدبك]، والعبارتان متفقتان معنى وإن اختلفتا لفظا.

حقوق فى الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لايمكن قضاؤها؛ إذ ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد، وأمر أكيد، فكيف تقضى فيه حق غيره وأنت لم تقض حق الله فيه

الحقوق الكائنة فى الأوقات هى وظائف العبادات الظاهرة، مِن: صلاة، وصيام، وغيرهما؛ فمن فاته شىء منها فى وقته المعين أمكنه قضاؤه فى وقت آخر؛ إذ قد جعل له فى ذلك مجال رحب فيستدرك فيه مايفوته من تلك الحقوق.

والحقوق المضافة إلى الأوقات هى المعاملات الباطنة التى تقتضيها أحوال العبد وواردات قلبه المتلونة عليه، ووقت كل عبد ماهو عليه من ذلك.

---

(١) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

فالعبد مطالب بحقوق جميع ذلك عند وروده عليه؛ إذ لله تعالى على كل عبد عند كلّ حالٍ يحلّ به أو واردٍ يرِد عليه حق جديد وأمر أكيد، ولا يسعه إلا أن يوفيه إذ ذاك، فإن فاته لم يجد مجالاً لقضائه، ولايمكنه ذلك.

فعلى العبد أن يكون مراقبًا لقلبه حتى يقوم بمراعاة تلك الحقوق التى لايمكنه قضاؤها إن فاتت.

قال سيدى أبو العباس المرسى. رضى الله عنه،: «أوقات العبد أربعة لاخامس لها: النعمة والبلية، والطاعة، والمعصية، ولله تعالى عليك فى كل وقت منها سهمٌ من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية، فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله عليه أن هداه لها ووفقه للقيام بها.

ومن كان وقته المعصية فمقتضى الحق منه وجودُ الاستغفار والندم.
ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر وهو فرح القلب بالله.

ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا بالقضاء والصبر، والرضا رضا النفس عن الله، والصبر مشتق من الإصبار، وهو: نصب الغرض[1] للسهام. وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضا لسهام القضاء، فإن ثبت لها فهو صابر. والصبر ثبات القلب بين يدى الربّ، وفى الحديث عن رسول الله ﷺ: «من أعطى فشكر وابتُلى فصبر وظلم فغفر وظَلم فاستغفر، ثم سكت رسول الله ﷺ، فقالوا: ماذا له يارسول الله؟ فقال: «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» أى لهم الأمن فى الآخرة وهم المهتدون فى الدنيا.

ما فات من عمرك لا عوض له، وما حصل لك منه لا قيمة له.

---

(١) الغرض: الهدف.

عُمر العبد ميدان[١] لأعماله الصالحة المقرِّبة له من الله تعالى والموجبة له جزيل الثواب فى الدار الآخرة.

وهذه هى السعادة التى لها يكدح العبدُ ويسعى من أجلها، وليس له منها إلّا ما سعى، كما قال تعالى ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾[٢] فكلُّ جزء يفوته من العمر خاليًا من عمل صالح يفوته من السعادة بقدره، ولا عوض له منه.

قال الجنيد، رضى الله عنه: «الوقت إذا فات لا يستدرك وليس شيءٌ أعزَّ من الوقت» وكلُّ جزء يحصل له من العمر غير خالٍ من ذلك يتوصل به إلى مُلْك كبير لا يفنى، ولا قيمة لما يوصل إلى ذلك؛ لأنه فى غاية الشرف والنفاسة ولأجل هذا عظمت مراعاة السلف الصالح رضى الله عنهم لأنفاسهم ولحظاتهم، وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم ولم يضيعوا أعمارهم فى البطالة والتقصير، ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم إلّا بالجدّ والتشمير.

وقد قال أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه: «بقية عمر المرء مالها ثمن يُدْرك فيها ما فات ويحيى ما أمات».

وقد نظم بعض الشعراء فى المعنى، رحمه الله وأرضاه، فقال:

بقية العمر عندى مالها ثمن ... وإنَّ غدًا غيرُ محسوب من الزمن
يستدرك المرءُ فيها كلَّ فائتةٍ ... من الزمان ويمحو السوء بالحسَن

وقال رجل لعامر بن عبد الله بن قيس رضى الله عنه، وهو يريد «الجمعة»: «قف حتى أكلمك» فقال له: لولا أنّى أُبادر لوقفتُ لك. قال له:

---

(١) وفى نسخة: ميزان.

(٢) الآية: ٣٩ من سورة النجم.

وما تبادر؟ قال: أبادر خروج روحى».

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه: «أدركت أقوامًا كانوا على ساعاتهم أشفقَ منكم على دنانيركم ودراهمكم». يقول: كما لا يخرج أحدكم دينارًا ولا درهمًا إلا فيما يعود عليه نفعه، فكذلك لا يحبُّون أن تخرجَ ساعة من أعمارهم إلّا فيما يعود عليهم نفعه.

وقال السرى السقطى رضى الله عنه: «خرجت من «بغداد» أريد الرباط، إلى «عبادان» لأصوم بها رجب وشعبان. فاتفق لى فى طريقى «علىٌّ الجرجانى» وكان من الزهّاد الكبار، فدنا وقتُ إفطارى، وكان معى ملح مدقوق وأقراص. فقال: ملحك مدقوق ومعك ألوان من الطعام لن تُفلح ولن تدخل فى سَنن المحبين!! فنظرت إلى مِزْود[1] كان معه فيه سويق الشعير، فسفّ منه، فقلت: ما دعاك إلى هذا؟ قال: إنى حسبت ما بين المضغ والسفّ سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة.

وفى الخبر: «ما من ساعة تأتى على العبد لا يذكر الله تعالى فيها إلّا كانت عليه حسرة». ويقال: «إنَّ العبد تُعرض عليه ساعاته فى اليوم والليلة فيراها خزائن مصفوفة أربعًا وعشرين خزانة، فيرى فى كل خزانة نعيمًا ولذة وعطاء وجزاء؛ لِما كان أودع خزائنه من ساعاته فى الدنيا من الحسنات فيسرّه ذلك ويغتبط به، فإذا مرّت به فى الدنيا ساعاته التى لم يذكر الله فيها رآها فى الآخرة خزائن فارغة لا عطاء فيها ولا جزاء عليها، فيسوؤه ذلك ويتحسَّر عليه كيف فاته، حيث لم يدّخر فيها شيئًا فيرى جزاءه مدْخورًا، ثم يلقى فى نفسه الرضا والسكون».

---

(١) المزود: ما يوضع فيه الزاد والطعام فى السفر.

وجاء فى الخبر: «إنَّ أهل الجنّة بينما هم فى نعيمهم إذ سطع لهم نور من فوق أضاءت منه منازلهم كما يضىء الشمس والقمر لأهل الدنيا فينظرون إلى رجال من فوقهم أهل عِلّيين يروتهم كما يرون الكوكب الدرىّ فى أفق السماء وقد فَضّلُوا عليهم فى الأنوار والجمال والنعيم المقيم كما فضّل القمر على سائر النجوم فينظرون إليهم يطيرون على نُجب[1] تسرح بهم فى الهواء يزورون ذا الجلال والإكرام، فينادونهم هؤلاء: يا إخواننا ما أنصفتمونا!! كُنّا نصلّى كما تصلّون، ونصوم كما تصومون، فما هذا الذى فضلتم به علينا؟ فإذا النداء من قِبل الله تعالى: إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويعطشون حين تُرْوون، وَيَعْرُون حين تكتسون، ويذكُرُون حين تسكتون[2]، ويبكون حين تضحكون، ويقومون حين تنامون، ويخافون حين تأمنون؛ فلذلك فُضِّلوا عليكم اليوم. فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِى لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3].

وقال أبو علىّ الدقاق، رضى الله عنه: «رؤى بعضهم مجتهدًا، فَقيل له فى ذلك، فقال: وَمَنْ أَوْلى منى بالجهد وأنا أطمع أن أَلْحق الأبرار والكبار من السَّلف، قال الله تعالى: ﴿وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[4].

وفى معناه أنشدوا:

السباقَ السباقَ قولاً وَفِعلاً ... حَذِّر النفسَ حسرةَ المسبوق

ما أحببتَ شيئًا إلا كنت له عبدًا، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدًا.

---

(١) مطايا.
(٢) وفى نسخة: حين تكسلون.
(٣) آية رقم ١٧ من سورة السجدة.
(٤) آية رقم ٢٦ من سورة المطففون.

المحبةُ للشيء تقتضي الانقيادَ[١] له وشدّةَ العلاقة به، وألّا يبغى به بدلًا كما قيل: «حُبُّك للشّيْء يُعْمى ويُصِمّ».

وذلك معنى استعباده للمحبّ له، فمن أحبَّ غيرَ الله عزّ وجلَّ فقد استعبدهُ ذلك الغير كائنًا ما كان، والله لا يحب أن تكون لغيره عبدًا، ولا يرضى بذلك (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم والخميصة[٢]، والقطيفة والزوجة).

وقال محمد بن السماك: «كتب إليّ أخ: إن استطعت ألّا تكون لغير الله عبدًا ما وجدت من العبودية بُدًّا فافعل».

وقال الجنيد، رضى الله تعالى عنه: «إنك لن تكون على الحقيقة له عبدًا وشيء مما دونه لك مُسْترقّ، وإنك لن تصل إلى صريح الحرية، وعليك من حقوق عبوديتك بقية».

وسئل عمن لم يبق عليه من الدنيا إلا مقدار مصّ نواة فقال: «المكاتب عبد ما بقى عليه درهم».

ومن الحكايات فى هذا المعنى ما ذكر عن أبى عبد الله الرازى، رضى الله عنه، نزيل «نيسابور»، قال: «كسانى ابن الأنبارى صوفًا، ورأيت على رأس الشبلى قلنسوة ظريفة تليق بذلك الصوف، فتمنيت فى نفسى أن يكونا جميعًا لى، فلما قام الشبلى من مجلسه التفت إليّ، فتبعته، وكان من عاداته إذا أراد أن أتبعه أن يلتفت إليَّ. فلما دخل داره دخلت، فقال: انزع الصوف، فنزعته، فلفّه، وطرح عليه القلنسوة، ودعا بنار فأحرقهما».

ومثل هذا، مما كان ينكره عليه من لم يعرف مقصوده فى ذلك، شيء كثير ورد عنه.

---

(١) وفى نسخة: تقتضى الاستعباد له.

(٢) الخميصة: ثواب أسود مربع.

لا تنفعه طاعتك ولا تضرُّه معصيتك، وإنما أمرك بهذه ونهاك عن هذه لما يعود عليك.

الحق تعالى غنيٌّ عن أعمال العاملين؛ لأنّه مُنَزّه عن الأعواض والأغراض، فلا تنفعه طاعتك ولا تضرّه معصيتك، وإنما أمرك ونهاك لِما يعود عليك من المصالح والمنافع فى الدارين لا غير، وذلك على سبيل التفضّل منه من غير إيجاب عليه، وقد تقدَّم التنبيه على هذا المعنى عند قوله: [عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل].

قال فى «لطائف المنن»: «اعلم رحمك الله أنَّ الله لم يأمر العبادَ بشىء وجوبًا، أو يقتضيه منهم ندبًا إلّا والمصلحة لهم فى فعل ذلك الأمر، ولم يقتض منهم تركَ شىء تحريمًا أو كراهة إلّا والمصلحة لهم فى ترك ما أمرهم بتركه وجوبًا أو ندبًا، ولسنا نقول كما قال مَنْ عُدِل به عن طريق الهدى «إنه يجب على الله رعايةُ مصالح عباده»[1]، بل إنما نقول: ذلك عادة الحق وشرعته المستمرُّ فعلها مع عباده على سبيل التفضّل، فليت شعرى إذا قالوا يجب على الله رعاية مصالح عباده، فمن هو الموجب عليه؟ ثم إذا نظرنا فرأينا كلَّ ما هو واجب أو مندوب إليه يستلزم الجمع على الله، وكلَّ منهى عنه أو مكروه يتضمن التفرقة عنه، فإذًا مطلوب الله من عباده وجودُ الجمع عليه، لكن الطاعات هى أسباب الجمع ووسائله؛ فلذلك أمر بها، والمعصية هى أسباب التفرقة ووسائلها فلذلك نهى عنها» اهـ.

لا يزيد فى عزِّه إقبالُ من أقبل عليه ولا يُنقص من عزه إدبارُ من أدبر عنه.

---

(١) يقصد بهم فرقة المعتزلة ويرد عليهم ردا قويا.

عزّة الله تعالى صفة من صفات ذاته، وصفاته فى غاية الكمال والتمام، فهى منزّهة عن الزيادة والنقصان وسببية العلل.

وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به وإلا فجلَّ ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل هو بشيء.

الوصول إلى الله تعالى الذى يشير إليه أهل هذه الطريقة هو الوصول[١] إلى العلم الحقيقى بالله تعالى، وهذا هو غاية السالكين، ومنتهى سير السائرين، وأما الوصول المفهوم بين الذوات فهو متعالٍ عنه.

وقال الجنيد، رضى الله تعالى عنه: «متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير له بمن له شبيه ونظير، هيهات!! هذا ظن عجيب إلا بما لطف اللطيف من حيث لا دَرْك ولا وَهْم، ولا إحاطة إلا إشارة اليقين وتحقيق الإيمان».

قال الشيخ أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردى، صاحب كتاب «عوارف المعارف» رحمه الله تعالى: «واعلم أن الاتصال والمواصلة أشار إليهما الشيوخ وكلّ من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان، فهو رتبة فى الوصول، ثم يتفاوتون؛ فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال، وهو رتبة فى «التجلّى» فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله تعالى، ويخرج فى هذه الحالة عن التدبير والاختيار، وهذه رتبة فى «الوصول». ومنهم من يقف فى مقام الهيبة والأنس بما يكاشفه قلبه من مطالعة الجمال والجلال، وهذا تجلّ بطريق الصفات وهو رتبة فى «الوصول» ومنهم من يرتقى إلى مقام «الفناء» مشتملا باطنه أنوارَ اليقين والمشاهدة، مُعَمًّى فى شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من

---

(١) أى وصول القلب للعلم بجلال الله سبحانه وعظمته على وجه يباشر القلب ويجرى معناه فى الجوارح.

تجلّى الذات لخواصّ المقرَّبين. وهذه رتبة فى «الوصول». وفوق هذا رتبةُ «حقّ اليقين» ويكون من ذلك فى الدنيا «لُمح» وهو سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى تحظى بها روحُه وقلبه، وهذا من «أعلى مراتب الوصول».

فإذا تحققت الحقائق بعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه فى أوّل المنزل فأين الوصول؟ هيهات!! منازل طريق الوصول لا تنقطع أبد الآباد فى عمر الآخرة الأبدىّ، فكيف بالعمر القصير الدنيوى[١]؟!!

قربك منه أن تكون مشاهدًا لقربه، وإلا فمن أين أنت ووجود قربه.

القربُ الحقيقى قربُ الله منكَ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾[٢] ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾[٣] وقال عزّ من قائل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٤]. وحظّك من ذلك إنما هو مشاهدتك لقربه فقط فتستفيد بهذه المشاهدة شدّة المراقبة وغلبة الهيبة والتأدّب بآداب الحضرة، وأمّا أنت فلا يليق بك إلّا وصف العبد وشهوده من نفسك كما يقول المؤلف رحمه الله تعالى بعد هذا [إلـهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك].

الحقائق[٥] ترِد فى حال التجلى مجملة وبعد الوعى يكون البيان، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إنّ علينا بيانه.

---

(١) إن كلام المؤلف وكلام الشارح والكلام الذى أورده الشارح عن أئمة الصوفية نفى واضح لما يزعمه أعداء الصوفية من أن الصوفية يقولون بوحدة الوجود أو بالحلول.

(٢) آية ١٨٦ من سورة البقرة. (٣) آية ٨٥ من سورة الواقعة.

(٤) آية ١٦ من سورة ق.

(٥) الحقائق هى ما يجرى على لسان أهل الحقيقة من الفوائد الجامعة والنكات الحكيمة وهى لا ترد باستعمال ولا تتوقف على أسباب.

حقائق العلوم اللدنيّة يقذفها الحقُّ تعالى فى أسرار العارفين عند براءتهم من الدعوى، وتحررهم من رِقّ الأشياء، وتعرّضهم باللجاء والافتقار لما يَفْتَح عليهم المولى، يكرمهم الحق تعالى بها تحقيقًا لوعده لهم من غير تعلّم ولا دراسة.

وعند ورودها عليهم، وتجلّيها لهم، تكون مجملةً: لا تتبين لهم معانيها، ولا يدركون جهات حقيقتها.

فإذا وَعَوْها، وتصرَّفت فيها أذهانُهم بالاعتبار والتأمل تبيّن لهم معناها وظهر لهم موافقتُها لما بأيديهم من العلوم العقلية والنقلية من غير مخالفة، حتى أن بعضهم ربّما يجرى على لسانه وبنانه كلامٌ كثير من غير أن يُلْقِى له بالًا، فإذا فرغ من ذكره أو رسمه يتصفحه ويتأمله فيجده صحيحًا مستقيمًا. وقد أخبرنى بنحو ذلك من له قَدَمُ صدق فى هذا الطريق عن نفسه، قال الإمام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه: «وأصحاب الحقائق يجرى بحكم التصرف عليهم شيءٌ لا علم لهم به على التفصيل، وبعد ذلك يُكشف لهم وجهه، فربما يجرى على لسانهم شيءٌ لا يَدْرون وجهه، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهانُ ما قالوه من شواهد العلم، إذ تحقيق ذلك بجريان الحال فى ثانى الوقت». انتهى كلام الإمام أبى القاسم، وهو موافق لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى، والله أعلم. وكأنهما أشارا بذلك إلى المسألة المتعارفة بينهم من موافقة الحقيقة للشريعة، وقد عبّروا عن ذلك بعبارات؛ فقد سئل عبد الله بن طاهر الأبهرى رضى الله عنه، عن الحقيقة، فقال: الحقيقة كلّها علم. فسئل عن العلم فقال: العلم كله حقيقة.

وقال الشبلى، رضى الله عنه: «الألسنة ثلاثة: لسان علم، ولسان حقيقة، ولسان حق.

فلسان العِلم: ما تأدّى إلينا بالوسائط.

ولسان الحقيقة: ما أوصله الله إلى الأسرار بلا واسطة.

ولسان الحق، ليس إليه طريق».

وقال «رويم» رضى الله عنه: «أصح الحقائق. ما قارن العلم».

وقال أبو بكر الوراق رضى الله عنه: «كنت فى تيه بنى إسرائيل، فوقع فى قلبى أن علم الحقيقة بخلاف علم الشريعة، فإذا شخص تحت شجرة أم غيلان صاح بى وقال: يا أبا بكر، كل حقيقة تخالف الشريعة فهى كفر». وإشارة المؤلف رحمه الله، بالآية التى ذكرها إلى هذا المعنى بيّنة.

متى وردت الواردات الإلـهية[1] عليك هدمت العوائد عليك - وإن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها.

الواردات الإلـهية على العبد تمحو عنه جميع رعوناته، وتهدم عليه مستمر عاداته، ولها سلطنة عظيمة على ذلك؛ فإذا وردت على قلب مشجون بأنواع الخبائث والرذائل أزالت عنه ذلك بمرَّة، وأنْبتت عوضًا عن ذلك أحوالاً عَليَّة، وأوصافًا مرضية، وأنشد سيدى أبو العباس، رضى الله تعالى عنه، فى هذا المعنى:

لو عاينت عيناك حين تزلزلت ... أرضُ النفوس ودُكَّت الأجبال
لرأيت شمس الحقّ يسطع نورها ... حين التزلزل والرجـالُ رجال

---

(١) الواردات الإلـهية هى ما يتجلى للقلوب من المعارف التى تبرز عنها الحقائق، فإذا وردت هذه الواردات على القلب لم يبق فيه متسع لغيرها فتأخذ بجامعه.

الأرض: أرض النفوس، والجبال: جبال العقل، والشمس: شمس المعرفة والإشارة بالآية الكريمة إلى هذا المعنى بيّنة:

الوارد يأتى من حضرة قهار؛ لأجل ذلك لا يصادمه شيء إلا دمغه - بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق -

الوارد مرسوم بسمة القهر والغلبة لوروده من حضرة القهّار الغالب على أمره؛ لأجل ذلك لا يصادمه شيء من رعونات البشرية إلّا دمغه وأزاله، وهو أيضًا حق ورد على باطل، والباطل لاثبات له مع الحق، والإشارة بالآية الكريمة إلى هذا المعنى بيّنة.

كيف يحتجب الحق بشيء والذى يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر.

قد أشبع المؤلف رحمه الله تعالى الكلام على هذا المعنى فى أول الكتاب، وأتى فيه بالعجب العجاب، وقد نبهنا عليه هناك.

لا تيأس من قبول عمل لم تجد فيه وجود الحضور، فربما قبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلا.

العمل الذى لا يجد صاحبه حضورًا فيه ينبغى له ألّا ييأس من قبوله فإن ذلك إلى الله تعالى، فقد يقبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلاً من وجدان حضور أو حلاوة أو غير ذلك، ولو لم يكن إلّا قصدُ التقرب به وسقوطه عن نظره وقد تقدّم التنبيه على هذا المعنى عند قوله: [لا عمل أرجى للقلوب].

لا تزكين واردًا لا تعلم ثمرته، فليس المراد من السحابة الإمطار، وإنما المراد منها وجود الإثمار.

الوارد مراد لثمرته، لا لوجدان حظ نفسك منه، كما أن السحابة مرادة لوجدان الإثمار الذى اقتضاه وجود إمطارها، لا لمجرد وجود إمطارها.

وثمرة الوارد إنما هى تأثّر القلب به، وتبدُّل صفاته المذمومة بصفات محمودة كما تقدّم.

فإن لم تعلم وجود هذا فيك فلا تزك[1] الوارد، ولا تفرح به؛ فإن فى ذلك نوعًا من الاغترار، وانخداعًا بلبسة الإظهار، فكن على حذر منه.

لا تطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها وأودعت أسرارها فلك فى الله غنى عن كل شىء وليس يغنيك عنه شىء.

أنوار الواردات المنبسطة على العبد هى: تكيّف ظاهره وباطنه بكيفيات العبودية وأسرارها المودعة فيه بما لاح له من عظمة الرّبوبية، فإذا أفادك الوارد هذه الفوائد فلا تطلبن بقاءه فى حال كونه، ولا تأس على فقده إذا فقدته؛ فإن لك فى الله غنى عنه وعن غيره، وليس لك غنى عن الله تعالى فى شىء من الأشياء كما قال الشاعر:

لكل شىء إذا فارقته عِوضٌ وليس لله إنْ فارقتَ من عِوض

قال أبو عبد الله بن عطاء الله، رضى الله عنه: «إياك أن تلاحظ مخلوقًا وأنت تجد إلى ملاحظة الحق سبيلاً». ويدخل فى هذا المعنى الذى ذكره ابن عطاء الله، رضى الله عنه جميع الأغيار، والأنوار، والمقامات، والأحوال، والدنيا، والآخرة، والنعم الباطنة والظاهرة. فلاتلاحظ شيئًا من ذلك ولاتركنن إليه، ولا تعتمد عليه، بقى أو ذهب، فإن ذلك قادحٌ فى إخلاص التوحيد.

---

(١) وفى نسخة فلا تركن إلى الوارد.

قال فى «التنوير»: «واعلم أن البارى - سبحانه - إنما يدخلك فى الحال لتأخذ منها، لا لتأخذ منك، وإنما جاءت تحمل هدية التعريف من الله إليك فيها، فتوجَّه إليها باسمه «المبدئ» فأبداها وأبقاها، حتى إذا أوصلت إليك ما كان لك فيها، فلما أدّت الأمانة توجّه إليها باسْمه «المعيد» فأرجَعَها وتوفّاها فلا تطالبنّ بقاء رسول بعد أن بلّغ رسالته، ولا أمين، بعد أن بلّغ أمانته. وإنما يفتضح المدّعون بزوال الأحوال وبعزلهم عن مراتب الأنزال، هناك يبدو العوار، وتنهتك الأستار، فكم من مدّعى الغنى بالله وإنما غناه بطاعته أو بنوره، أو فتحه. وكم مِن مُدّعى العزّ بالله وإنما اعتزازه بمنزلته وصَوْلته على الخلق، معتمدًا على ما ثبت عندهم من معرفته. فكن عبدًا لله، لا عبد العلل، وكما كان الله لك ربا ولا علة، فكن عبدًا له ولا علة، لتكون له كما كان لك». اهـ.

وقال سيدى أبو العباس المرسى، رضى الله عنه: «عبدٌ هو فى الحال بالحال وعبد هو فى الحال بالمحوّل، فالذى هو فى الحال بالحال عبد الحال، والذى هو فى الحال بالمحول عبد المحوّل، وأمارة من هو فى الحال بالحال أن يأسى عليها إذا فقدها، ويفرح بها إذا وجدها، والذى هو فى الحال بالمحوّل لا يفرح بها إذا وُجدت، ولا يحزن عليها إذا فُقدت، وفى الإشارات عن الله سبحانه «لا تركن إلى شىء دوننا فإنه وبالٌ عليك، وقاتل لك، فإن ركنت إلى العلم تتبعناه عليك وإن أويت إلى العمل رددناه عليك، وإن وقفت بالحال وقفناك معه، وإن أنست بالوجد استدرجناك فيه، وإن لحظت إلى الخلق وكلناك إليهم، وإن اغتررت بالمعرفة نكرناها عليك، فأىّ حيلة لك؟! وأىّ قوة معك فارْضِنا لك ربا، حتى نرضاك لنا عبدًا».

تطلعك إلى بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له واستيحاشك لفقدان ما سواه دليل على عدم وصلتك به.

وجدان العبد لربّه ووصولُه إليه هو غاية مطالبه ومنتهى آماله ومآربه، وبه يفوز بالنعيم، ويحظى بالملك العظيم، وعند ذلك ينسى كلَّ محبوب، ويلهى به عن كل مفروح به ومرغوب، وهذه هى صفة أهل «التفريد» الذين استتروا فى ذكر الله المجيد، كما روى عن أبى عبد الله اليسرى، رضى الله عنه قال: سألت رجلاً بـ «اللكام» ما الذى أجلسك فى هذا الموضع؟ فقال لى: وما سؤالك عن شىء إن طلبته لم تدركه، وإن لحقته لم تقع عليه؟! قلت: تخبرنى ما هو، قال: علمى بأن مجالسة الله تستغرق نعيم الْجنان، ثم قال: أوّاه!! قد كنت أظن أن نفسى ظفرت، ومن الخلق هربت، فإذا أنا كذّاب فى مقالتى، لو كنت محبًّا لله صادقًا ما اطّلع علىّ أحد!! فقلت: أما علمتَ أن المحبين خلفاء الله فى أرضه، مستأنسين بخلقه يبعثونهم على طاعته!! فصاح صيحة وقال لى: يا مخدوع، لو شممت رائحة الحبّ وعاين قلبك ما وراء ذلك من القرب لما احتجت أن ترى فوق ما رأيت، ثم قال: يا سماء، ويا أرض، اشهدا أنى ما خطر على قلبى ذكر الجنة والنار قطّ، إن كنت صادقًا فأمتنى، فوالله ما سمعت له كلامًا بعدها، وخفت أن يسبق إلىَّ الظنُّ من الناس مَن قتله فتركتُه ومضيت فبينما أنا على ذلك، وإذا أنا بجماعة، فقالوا: ما فعَل الفتى؟ فكنيت عن ذلك، فقالوا: ارجع فإن الله قد قبضه، فصليت معهم عليه، فقلت لهم مَن هذا الرجل؟ ومن أنتم؟ قالوا: ويحك!! هذا رجل به كان يمطر المطر، قلبُه على قلب إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، أما رأيتَه يخبر عن نفسه أنَّ ذكر الجنة والنار ما خَطر على قلبه فهل كان أحدٌ كذا إلا إبراهيم الخليل، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام؟ فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن السبعة المخصوصون من الأبدال. قلت: علمونى شيئًا. قالوا: لا تحب أن تُعرف. ولا تحب أن يُعرف أنك ممن يحبُّ ألاَّ يُعرف، وفى مثل هذا الحال أنشدوا:

كانت لقلبى أهواء مفرّقة ... فاستَجْمعت إذْ رأتك العينُ أهوائى

فصار يحسدنى من كنتُ أحسده وصرتُ مولى الورى مُذْ صرتَ مولائى
تـركت للناس دينـاهم ودينهم شُغلاً بذكرك يا دينى ودنيائى

وقد سئل أبو سليمان الدارانى، رضى الله عنه، عن أقرب ما يتقرّب به العبد إلى الله تبارك وتعالى، فقال: «أقرب ما يتقرب به إليه أن يطلع الله على قلبه وهو لا يريد من الدنيا والآخرة غيره».

فهذه هى العلامة الصادقة، والدلالة القاطعة على التحقق بهذا المقام العظيم؛ فإن كان له شعور بشىء من الأغيار المحبوبة فتطلّع إلى بقائها، أو استوحش لفقدانها فذلك دليل على عدم تحققه بذلك فليعرف منزلته وَحَدَّه، وليعمل فى تصحيح هذا المقام جُهده، وقال رضى الله عنه:

النعيم، وإن تنوعت مظاهره، إنما هو لشهوده واقترابه. والعذاب؛ وإن تنوعت مظاهره، إنما هو لوجود حجابه، فسبب العذاب وجود الحجاب، وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم.

مظاهر النعيم المتنوعة هى ما ورد من أنواع الثواب فى الدار الآخرة من الحور، والقصور، والولدان، والغلمان، والمآكل والمشارب والملابس، إلى غير ذلك من أنواع المسرَّات والملذات.

ومظاهر العذاب المتنوعة، هى: ما ورد من أنواع العقاب فيها من: الجحيم والحميم، والزَّقوم، والحيات والعقارب والسلاسل والأغلال والأنكال، وغير ذلك من أنواع الآلام والعقوبات.

وليس وجود النعيم والعذاب بسبب وجود هذه الأشياء ومباشرتها للمنعَّم والمعذّب، وإنما ذلك لما تضمنته وظهر فيها من وجود قرب الله تعالى وشهوده

للمنعّم، أو وجود حجابه وإعراضه من المعذّب، فهذان الأمران بهما يقع النعيم والعذاب على التحقيق.

ما تجده القلوب من الهموم والأحزان فلأجل ما منعت من وجود العيان.

وجود الهموم والأحزان الدنيوية والأخروية من نتائج رؤية النفس واعتبارها وبقاء حظها، وهو الذى منع العبد من وجود العيان، فلو قد فنى عن رؤية نفسه وذهب عن مراعاة حظّه، لظفر بوجود العيان، ولم يكن له همّ ولا حزن ألبتة، بل يكون متصل الحبور، دائم الفرح والسرور، كما قال تعالى ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾[١] فالمعيةُ المذكورة لا يجتمع معها حزن وهمٌّ، وهى ما قلناه من وجود العيان، والعيان، والله أعلم، درجةٌ فوق درجة اليقين كما قال الشاعر:

كبُرَ العِيان علىّ حتى أنه صار اليقينُ من العيان توهما

قال الشبلى، رضى الله عنه: «من عرف الله لا يكون له غمٌّ أبدًا».

وقيل: أوحى الله سبحانه، إلى داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: «يا داود إنّ محبتى فى خلقى أن يكونوا روحانيين وللروحانيين علم، هو أن لا يغتموا وَأنا مصباح قلوبهم، يا داود، لا يمزج[٢] الهمّ قلبك فينقص ميراث حلاوة الروحانيين» وسيأتى فى كلام المؤلف رحمه الله [أوحى الله إلى داود عليه السلام: بى، فافرح، وبذكرى فتنعم].

فباستنارة القلب بنور المعرفة، واحتظائه بوجود العيان والرؤية يخرج منه الهمّ، ويحل محلّه الروحانية.

---

(١) من الآية: ٤٠ من سورة التوبة.

(٢) وفى نسخة: لا تلزم الهم قلبك.

على أنّ فى وجود الهموم والأحزان لمن لم يبلغ هذا المقام، إذا لم يقدر على دفعها عن نفسه، فوائد جزيلة لا ينبغى أن تُستحضر من قِبل إنها موجبة لخمود النفس وصفاء القلب، وزوال الأشر والبطر، والفرح بالدنيا.

ثم هى كفاراتٌ إن كانت فى الأمور الدنيوية، ودرجاتٌ إن كانت فى الأمور الأخروية.

والهمُّ متعلقٌ بما يكون فى المستقبل والحزن متعلق بما كان فى الماضى

من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك ويمنعك ما يطغيك.

وجدان الكفاية من الرزق وعدم الزيادة عليها والنقصان منها من نعم الله تعالى التامة الكاملة على العبد: لما له فى ذلك من حصول جميع المصالح الدينية والدنيوية، أما مصالح الدين فى عدم الزيادة على الكفاية فظاهرٌ؛ إذ لو وجدها ربّما أوجب له ذلك طغيانًا، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[1] فالاستغناء هو وجود الزيادة على الكفاية، وهو سبب لطغيان أصل كل معصية لله عزّ وجل.

وقصة ثعلبة بن حاطب، حين طلب الدعاء من النبى ﷺ أن يرزقه مالاً، وما آل إليه أمره أمر «مشهور»[2].

---

(١) الآيتان ٦، ٧ من سورة العلق.

(٢) نذكر هنا هذه القصة بطولها لما فيها من عظة بالغة، وعبرة يحسن بكل إنسان أن يتدبرها.

عن أبى أمامة الباهلى عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقنى مالاً، قال فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه» قال: ثم قال مرة أخرى، فقال: «أما ترضى أن تكون مثل نبى الله؟ فوالذى نفسى بيده لو شئت أن تصير الجبال معى ذهبا وفضة لصارت». قال. والذى بعثك =

.....

= بالحق، لئن دعوت الله فرزقنى مالاً لأعطين كل ذى حق حقه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً». قال: فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وَاديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك ماسواهما، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة وهى تنمى كما ينمى الدود حتى ترك الجمعة، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله ﷺ: «ما فعل ثعلبة؟» فقالوا: يارسول الله! اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة، فأخبروه بأمره، فقال: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة». وأنزل الله جل ثناؤه: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ الآية ونزلت فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ، رجلين على الصدقة من المسلمين رجلاً من جهينة، ورجلاً من سليم، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين، وقال لهما: «مرا بثلعبة وبذلان -رجلا من بنى سليم- فخذا صدقاتهما، فخرجا حتى آتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية، ما أدرى ما هذا؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلى، فانطلقا وسمع بهما السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله، فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأوها قالوا: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك. فقال: بلى، فخذوها فإن نفسى بذلك طيبة وإنما هى له، فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة، فقال: أروني كتابكما، فقرأه فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيى، فانطلقا حتى أتيا النبى ﷺ، فلما رآهما قال: «يا ويح ثعلبة» قبل أن يكلمهما ودعا للسلمى بالبركة فأخبراه بالذى صنع ثعلبة، والذى صنع السلمى، فأنزل الله عز وجل: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن﴾ الآية، قال: وعند رسول الله ﷺ، رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبى ﷺ، فسأله أن يقبل منه صدقته فقال: «إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك فجعل يحثو على رأسه التراب فقال له رسول الله ﷺ: هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى» فلما أبى رسول الله ﷺ، أن يقبل صدقته رجع إلى منزله فقُبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئا، ثم أتى أبابكر رضى الله عنه حين أستخلف فقال قد علمت منزلتى من رسول الله وموضعى من الأنصار فأقبل صدقتى فقال أبوبكر لم يقبلها=

وقال سعد بن أبي وقاص، رضى الله عنه: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى».

وفى حديث أبى الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما طلعت شمس ولا غربت إلا بجنبها مَلَكَان يناديان يُسْمِعان الخلائق غيرَ الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم؛ فإن ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى».

وأمّا مصالح الدنيا فى ذلك فسيأتى التنبيه عليها فى قول المؤلف، رحمه الله تعالى: «ليقلّ ما تفرح به يقلّ ما تحزن عليه».

وأمّا مصالح الدين عند وجود الكفاية وعدم النقصان منها فمن أجل تَوَصُّله بذلك إلى الاستعانة بها على طاعة الله تعالى، ولأجل ذلك عظمت النعمة بها على العبد قال الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[1] أى: لا تنس نصيبك فى الآخرة أن تتوصّل إليه بما آتاك الله من الدنيا.

وأما مصالح الدنيا فى ذلك فظاهر لا يحتاج إلى التنبيه عليه؛ إذ بذلك يحصل طيبُ العيش وراحةُ القلب والبدنِ وصيانةُ الوجه عن ذلِّ المسألة عند وجود الحاجة والفاقة.

= منك رسول الله ﷺ، وأبى أن يقبلها، فقُبض أبو بكر ولم يقبلها. فلما وُلى عمر رضى الله عنه أتاه فقال: يا أمير المؤمنين اقبل صدقتى فقال لم يقبلها رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك؟ فقُبض ولم يقبلها، فلما ولى عثمان رضى الله عنه أتاه فقال: اقبل صدقتى. فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر، ولا عمر، وأنا أقبلها منك؟ فلم يقبلها منه، فهلك ثعلبة فى خلافة عثمان» ا. هـ

(١) آية رقم ٧٧ من سورة القصص.

فعلى العبد أن يشكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة، ويقنع بما أباح له من هذه المنّة الجسيمة، فيستعجل بذلك راحة نفسه، والاستغناء عن بنى جنسه، ويحصل له بذلك حلاوة الزهد فى الأمور العاجلة، وتجافى القلب عن زهراتها فإنْ طلبَ من الدنيا ولم يقنع بما قسم له منها خيف عليه من اقتحام المهالك؛ إذ يجره الحرص والطمع إلى ذلك.

قال بعض العارفين: «كلُّ مَنْ لا يعرف قدر ما زُوِى عنه من الدنيا ابتلى بأحد وجهين: إمّا بحرصٍ مع فقر يتَقطع به حسراتٍ، أو رغبة فى غنى تنسيه شكر ما أنعم به عليه».

وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: (ليس الغنى عن كثرة العَرض، وإنما الغنى غنى النفس)[١].

وغنى النفس عن الدنيا شرف الأولياء المختارين، وعزّ أهل التقوى من المؤمنين المحسنين، ولقد صدق الشاعر فى قوله:

غنى النفس ما يكفيك من سدّ خَلة[٢] فإن زدت شيئًا عاد ذاك الغنى فقرًا

يحكى عن بنان الحمّال، رضى الله عنه، أنه قال: «كنت مطروحًا طاويًا على باب «بنى شيبة» سبعة أيام لم أذق شيئًا، فنوديت فى سرّى إنّ من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أعمى الله عيْنَى قلبه».

وقال عبد الواحد بن زيد، رضى الله عنه،: «ذكر لى أنّ فى خراب «الأُبُلّة» جارية مجنونة تنطق بالحكمة، فلم أزل أطلبها حتى وجدتها فى خربة

---

(١) حديث صحيح رواه الإمام أحمد وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) الخلة (بفتح الخاء): الفقر والحاجة.

جالسة على حَجر وعليها جبة صوف، وهى محلوقة الرأس، فلما نظرت إلىَّ قالت من غير أن أكلمها: مرحبا بك يا عبد الواحد، فقلتُ لها: رحّب الله بك، وعجبتُ من معرفتها بى، ولم ترنى قبل ذلك فقالت: ما الذى جاء بك ها هنا؟ قلت: جئت لتعظينى. قالت: واعجبًا لواعظٍ يُوعظ. ثم قالت: يا عبد الواحد، اعلم أنّ العبد إذا كان فى كفاية، ثم مال إلى الدنيا سلبه الله سبحانه وتعالى حلاوة الزهد فيظل حيران والهًا، فإن كان له عند الله نصيب عاتبه وَحْيًا فى سرّه، فقال: عبدى أردتُ أن أرفع قَدْرك عند ملائكتى وحملة عرشى، وأجعلك دليلًا لأوليائى وأهل طاعتى فى أرضى، فملتَ إلى عَرض من أعراض الدنيا وتركتنى فورَّتُك بذلك الوحشة بعد الأنس، والذلّ بعد العزّ، والفقر بعد الغنى، عبدى ارْجع إلى ما كنتَ عليه أرجعْ عليك ما كنت تعرفه من نفسك».

قال: ثم تركتْنى وَوَلَّتْ عَنِّى؛ فانصرفْتُ وبقلبى حسرةٌ منها.

وفى بعض الكتب: «إنّ أهون ما أصنع بالعالم إذا مال إلى الدنيا أن أسلبه حلاوة مناجاتى».

وذكر أبو إبراهيم اسحق بن إبراهيم النجيبى القرطبى المالكى، رحمه الله، فى كتاب «النصائح» له عن ابن عبد ربّه الشامى ثم الدمشقى، أنه كان من أكثر أهل دمشق مالًا، فخرج مسافرًا، فأمسى إلى جانب نهر ومرعى، فنزل به، قال: فسمعت صوتًا يكثر حمد الله تعالى فى ناحية «المرج» فاتبعته، فوافيت رجلًا ملفوفًا فى حصير، فسلّمت عليه، فقلت: من أنت يا عبد الله؟ فقال: رجل من المسلمين. فقلت: فما حالك هذه؟ قال: حالُ نعمةٍ يجب علىّ حمد الله عليها. فقلت: وكيف، وإنما أنت فى حصير؟ قال: ومالى لا أحمد الله تعالى وقد خلقنى فأحسن خلقى، وجعل منشئ ومولدى فى الإسلام، وألبسنى العافية فى

أركانى وستر علىّ ما أكره ذكره ونشرَه، فمنْ أعظمُ نعمةً ممن أمسى فى مثل ما أنا فيه؟ فقلت له: إن رأيت - رحمك الله - أن تقوم معى إلى المنزل فإنا «نُزُولٌ» على النهر هناك، قال: ولم؟ قلت: لتصيب من الطعام ونعطيك ما يغنيك عن لبس الحصير!! قال: ما لى حاجة، فراودته على أن يتبعنى، فأبى، فانصرفْت وقد تقاصرت فى نفسى، ومقتُّها إذ لم أخلف بدمشق رجلًا يكاثرنى فى غنىٍ وأنا ألتمس الزيادة!! فقلت: اللهم إنى أتوب إليك من سوء ما أنا فيه، فبتُّ لا يعلم إخوانى ما أجمعت عليه، فلما كان من السحر رَحَلوا كنحو رحلتهم فيما مضى، وقَدَّموا إلىَّ دابتى فصرفتها إلى دمشق، وقلت: ما أنا بصادق فى التوبة إن مضيت إلى متجرى. فسألنى القوم، فأخبرتهم، وعاتبونى على المضىّ، فأبيت، فلما قدم دمشق وضع يده يتصدَّق بماله فما زال يفرّقه فى سبيل الخيرات حتى احتُضر، فما وجدوا عنده إلا قدر ثمن الكفن.

زاد غيرُ أبى إبراهيم: وكان يقول - يعنى ابن عبد ربّه المذكور - والله، لو أنَّ نهركم - يعنى نهر «دمشق» - سال ذهبًا ما خرجت إليه، ولا أخذت شيئًا منه، ولو قيل لى: مَنْ مَسَّ هذا العمود مات لقمتُ إليه وعانقته شوقًا إلى الله ورسوله.

ليقلّ ما تفرح به يقلّ ما تحزن عليه

درءُ المفاسد عند العقلاء أهمّ من جلب المصالح؛ فمن زوى الله عنه فضول الدنيا فرضى بذلك وقنع منها باليسير ولم يتطلّع إلى زيادةٍ من مال أو جاه فهو كامل العقل حسن النظر لنفسه، لأنه دفع عن نفسه وجود الحزن بتركه لما يفيد حصول مصلحة الفرح الذى يزول عن قرب، وَاعْتَاضَ من ذلك الرائحة الدائمة، كما قيل:

ومن سَرَّه أن لا يرى ما يسوؤه فلا يتخذ شيئًا يخاف له فقدا
فإن صلاح المرء يرجع كله فسادًا إذا الإنسان جاز له الحَدَّا

وقيل لبعضهم: لِمَ لا تَغْتَمّ؟ فقال: لأنى لا أقتنى ما يغمنى فَقْدُه؛ فالمفروح به هو المحزون عليه إن قليلًا فقليل، وإن كثيرًا فكثير، كما قيل:

على قدر ما أُولعتَ بالشيءِ حُزْنُه ويَصْعب نزعُ السهم مهما تمكَّنا

يحكى أنَّ رجلًا حمل إلى بعض الملوك قدحًا من «فيروزج»[1] مرَصَّعًا بالجواهر، لم يُر له نظير، ففرح الملك به فرحًا شديدًا، فقال لبعض الحكماء عنده: كيف ترى هذا؟ قال: أراه مصيبة وفقرًا!! قال: وكيف ذلك؟ قال: إن انكسر كان مصيبةً لا جبر لها، وإن سُرِق صرتَ فقيرًا إليه ولم تجد مثلَه، وكنتَ قبل أن يُحمل إليك فى أَمْنٍ من المصيبة والفقر. فاتَّفق أن انكسر القدح يومًا، فعظمتْ مصيبة الملك فيه، وقال: صدق الحكيم، ليته لم يُحمل إلينا!!

وأمثالُ هذه المصيبة وأعظمُ منها نازلة بكل من له عَلاقةٌ بشىء من أسباب الدنيا، فإنها إن لم تؤخذ منه بغَصْب أو سرقة أو جائحة نازلة فلابدّ له أن يؤخذ هو عنها بالموت الهازم للّذات، المنغّص للشهوات، فإن كان له ألف محبوب مثلا نزل به عند الموت ألفُ مصيبةٍ فى وقت واحد؛ لأنه كان يحبها كلُّها وقد سُلبتْ منه فى كَرةٍ واحدة، ولذلك كان الزهد فى الدنيا من قضايا العقل.

قال سهل بن عبد الله، رضى الله تعالى عنه: «للعقل ألف اسم، ولكل اسم منها ألف اسم، وأوّل كل اسم منها (ترك الدنيا)».

قال الحسن، رضى الله تعالى عنه: «كيف يسمى عاقلا مَنْ يُمسى ويُصْبح فى

---

(١) فيروزج: حجر كريم.

الدنيا، ومباهاة أهلها فى المطاعم والمشارب والملابس والمراكب أولئك هم الخاسرون» و «أولئك هم الغافلون» و «أولئك هم الجاهلون».

وأنشدوا:

أيها المرء إنَّ دُنياكَ بحرٌ طافحٌ موجُه فلا تأْمَنْها
وسبيلُ النجاة فيها بيِّنٌ وهو أخذ الكفاف والقوت منها

وقال أبو علىّ الثقفى، رضى الله عنه: «أُفّ من أشغال الدنيا إذا أقبلت، وأُفّ من حسراتها إذا أدبرت، والعاقل من لا يركن إلى شىء إذا أقبل كان شُغلًا، وإذا أدبر كان حسرة، وقد قيل معناه:

ومن يَحْمد الدنيا لشىءٍ يسرُّه فسوف لَعَمْرِى عن قليلٍ يلومُها
إذا أدبرتْ كانتْ على المرء حسرةً وإن أَقْبلتْ كانت كثيرًا همومُها

وقيل لأبى القاسم الجنيد، رضى الله عنه،: «متى يكون الرجل موصوفًا بالعقل؟ فقال: إذا كان للأمور مُميِّزًا، ولها مُتَصفِّحًا، وعما يوجبه عليه العقل باحثًا، يلتمس بذلك طلبَ الذى هو أَوْلَى ليعمل به وَيُؤْثِرَه على ما سواه.

فإذا كان كذلك فمن صفته ركوبُ الفضل فى كلّ أحواله بعد إحكام العمل بما فرض الله عليه وليس من صفة العقلاء إغفالُ النظر عما هو أحقّ وأَوْلى، ولا من صفتهم الرضا بالنقص والتقصير، فمن كانت هذه صفته بعد إحكامه لما يجب عليه من عمله، وترك التشاغل بما يزول وترك العمل بما يفنى وينقضى وذلك صفة لكلّ ما احتوت عليه الدنيا كذلك لا يرضى أن يشغل نفسه بقليل زائل ويسير حائل يصدّه التشاغل به والعمل له عن أمور الآخرة التى يدوم نعيمها ونفعها، ويتأبد سرورها، ويتصل بقاؤها، وذلك أن الدين يدوم نفعه، ويبقى على العامل له حظُّه، وما سوى ذلك زائل متروك ومفارَق موروث يخاف

مع تركه سوء العاقبة فيه، ومحاسبة الله عليه، وكذلك صفة العاقل لتصفحه الأمور بعقله والأخذ منها بأوفرها.

قال الله تعالى: ﴿الذينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنه أُولَئِكَ الذينَ هَدَاهُمُ اللّهُ وأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[1] بذلك وصفهم الله تعالى. وذوو الألباب هم ذوو العقول، وإنما وقع الثناء عليهم بما وصفهم الله به للأخذ بأحسن الأمور عند استماعها.

وأحسن الأمور هو أفضلها وأبقاها على أهلها نفعًا فى العاجل والآجل، وإلى ذلك ندب الله عزّ وجل من عقل فى كتابه، انتهى كلام الجنيد، رضى الله عنه، وهو فى غاية الحسن ونهاية التحقيق، وفيه مناسبة لما كنا بصدده من التنبيه على كلام المؤلف رحمه الله تعالى فرأيت ذكره ها هنا لائقًا، والله تعالى الموفق للعمل بمنّه وكرمه.

وإن أردت أن لا تعزل فلا تتول ولاية لا تدوم لك

هذه من أمثلة ما تقدّم؛ لأن الولاية مآلها إلى الحزن؛ بسبب وقوع العزل عنها. ومقتضى نظر العقل ترك الولاية المفروح بها لئلا يقع فى العزل المحزون به.

إن رغبتك البدايات زهدتك النهايات، إن دعاك إليها ظاهر نهاك عنها باطن

بدايات الأمور وظواهرها تُرغب الجاهل فيها؛ وتدعوه إليها؛ لأنها رائقة الحسن، مليحة الظاهر فَيغترُّ الجاهل بذلك فتقوده إلى ما فيه ضرره وهلاكه.

---

(١) آية رقم ١٨ من سورة الزمر.

ونهايات الأمور وبواطنها تزهد العاقل وتنهاه عنها بما أشهدته من سماجتها وقُبحِ باطنها فيعتبر العاقلُ بذلك، فيهرب منها، ويسلم من شرّها، وقد تقدّم هذا المعنى عند قوله [الأكوان ظاهرها غِرّةٌ وباطنها عِبرة].

قال وهب بن منبِّه، رضى الله تعالى عنه،: «صحب رجل بعض الرهبان سبعة أيام ليستفيد منه شيئا، فوجده مشغولا عنه بذكْرِ الله تعالى، والفِكر، لا يفتر، ثم التفت له فى اليوم السابع فقال: يا هذا، قد علمتُ ما تريد: حُبُّ الدنيا رأس كل خطيئة، والزهد فيها رأس كل خير، والتوفيق نجاح كلّ برّ، فاحذر رأسَ كلِّ خطيئة، وارغب فى رأس كلِّ خير، وتضرَّع إلى ربّك أن يهب لك نجاح كلِّ برّ. قال: وكيف أعرف ذلك؟ قال: كان جدّى رجلًا من الحكماء قد شبّه الدنيا بسبعة أشياء؛ شبهها بالماء المالح يَغُرُّ ولا يُروى ويضرّ ولا ينفع، وبظلِّ الغمام يغرّ ويخذل، وبالبرق الخُلَّب يَغُرّ ولا ينفع وبسحاب الصيف يَغرُّ ولا ينفع، وبزهر الربيع يَغُرّ بِنَضْرته ثم يصفر فتراه هشيمًا، وبأحلام النائم يرى السرور فى منامه فإذا استيقظ لم يجد فى يده شيئًا إلّا الحسرة، وبالعسل المشوب بالسُّمِّ الزُعاف يَغرّ ويقتل. فتَدبرتُ هذه الأحرف السبعة سبعين سنة ثم زدت فيها حرفًا واحدًا فشبهتها بالغول التى تُهلك من أجابها وتترك من أعرض عنها.

فرأيت جدّى فى المنام فقال لى: يابنىّ أنت منى وأنا منك فقلت له: فبأىّ شىء يكون الزهد فى الدنيا؟ قال: باليقين، واليقين بالصبر، والصبر بالعِبر، والعِبر بالفِكَر.

ثم وقف الراهب وقال: خذها ولا أراك خلفى إلّا متجرّدًا بفعل دون قول، فكان ذلك آخر العهد به.

وقال محمد بن على الترمذى، رضى الله عنه: «لم تزل الدنيا مذمومة فى

الأمم السابقة عند العقلاء منهم، وطالبوها مهانون عند الحكماء الماضين، وما قام داع فى أمةٍ إلا وقد حذّر من متابعة الدنيا وجمعها والحبّ لها. ألا ترى مؤمن آل فرعون كيف قال: ﴿اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[١]، وقال: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾[٢] أى: لن تصل إلى سبيل الرشاد وفى قلبك محبة الدنيا وطلبٌ لها.

والحكايات والآثار فى أحوال الدنيا، وغرورها، وشرورها أكثر من أن تُحصى، ولا شىء أبين فى ذلك من قول الله تعالى فى صفتها: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٣].

إنما جعلها محلا للأغيار ومعدنًا للأكدار تزهيدًا لك فيها

ورود الأغيار والأكدار الدنيوية على العبد نِعَمٌ من الله تعالى عليه؛ لأن ذلك - لا محالة - يدعوه إلى الزهادة فى الدنيا والتجافى عنها، وَيَصْرِف عنه وجود الغباوة والجهالة لأجل تمسكه بالخيال، وما يستضرّ به فى الحال والمآل؛ لأن الموجب لرغبته فيها وحرصه على نيلها إنما هو ما يتوهمه فيها من الحصول على مُنْيته وَبُغْيَته وقضاءِ غرضه من شهوته ونهمته من غير مكدّر ولا منغّص، ولو تصوّر له حصوله على هذه الأشياء على حسب ما يحبه ويهواه كان ينبغى له أن يرغب عنها عوضًا عن الرغبة فيها إن كان عاقلًا؛ لأن مآل أمرها إلى

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة غافر. (٢) من الآية ٣٩ من سورة غافر.
(٣) من الآية ٢٠ من سورة الحديد.

الفناء والزوال، والافتقار والانقضاء والارتحال، وقد قالوا: «شَرٌّ لا يدوم خيرٌ من خيرٍ لا يدوم». وقال الشاعر:

أَشَدُّ الغمِّ عندى فى سرور ... تَيَقَّنَ عنه صاحبُه ارتحالا
أرى الدنيا على مَن كان فيها ... تدور فلا تُدِيم عليه حالا

ثم هى مانعة له من سعادة الآخرة، والقرب من الله عزَّ وجلَّ، الذى هو غاية طلب الطالبين ونهاية رغبة الراغبين، فكيف وهو مُعَرَّض فيها لأنواع المصائب والفجائع، ووقوع الأغيار والأكدار، فما مِن أحدٍ فيها إلا وهو فى كل حال ووقت غرض لأسهم ثلاثة: سهم بَلِيَّة، وسهم رَزِيَّة، وسهم مَنِيَّة، فإذا نزل به ذلك عادت النعمة نقمة، وانقلبت الْحِبرَةُ[1] عَبرة، وصارت الفرحة ترحة، وهكذا شأن الدنيا أبدًا، فلا يفى مرجوّها بمخوّفها، ولا يقوم خيرها بشرِّها، ولقد صدق الشاعر فى قوله:

إن الليالى لَمَ تُحْسِن إلى أحد ... إلا أساءت إليه بعد إحسان

وصدق أيضًا من قال:

ما قام خيرك يا زمانُ بِشَرِّه ... أَوْلَى بِنا ما قَلَّ منك وما كَفى
زَمَنٌ إذا أعطى استردَّ عطاءَه ... وإذا استقام بدا له فَتَحَرَّفا

وقد كتب علىٌّ بن أبى طالب إلى سلمان، رضى الله عنهما: «إنما مثل الدنيا كمثل الحيَّة ليِّنٌ ملمسُها، قاتلٌ سمّها، فأعرض عنها وعَمَّا يعجبك منها، لقلّة ما يصحبك منها، ودع عنك هُمومَها لما تيقنت من فراقها، وكن أسرُّ ما تكون

---

(١) الحبرة [بفتح الحاء وسكون الباء]: السرور والبهجة.

فيها أَحْذَر ما تكون منها، فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخص[١] منها إلى مكروه».

وقال بعض البلغاء: «دارُ الدنيا كأحلام المنام، وسرورها كظل الغمام، وأحداثُها كصوائب السهام، وشهواتها كشرب السمام، وفتنتها كالأمواج الطوام».

وقال أبو العتاهية:

هي الدار دار الأذى والقذى ... ودار الفناء ودار الغِيَر
ولو نلتها بحذافيرها ... لَمُتَّ ولم تقض منها الوطر
أيا مَن يُؤَمِّل طول البقاء ... وطولُ الخلود عليه ضرر
إذا ما كبرت وفات الشباب ... فلاخير فى العيش بَعد الكبر

وأنشد أبو منصور الثعالبى، رحمه الله، فى ذمّ الدنيا:

تنحَّ عن الدنيا فلا تخطبنَّها ... ولا تخطبن قَتَّالةَ مَن تُناكح
فليس يفى مرجوّها بمخوفها ... ومكروهها إن تأمَّلت راجح
لقد قال فيها الواصفون وأكثروا ... وعندى لها وصف لعَمْرِى صالح
سلافٌ[٢] قصارها زُعاف ومركبٌ ... شهىّ إذا استلذذته فهو جامح
وشخص جميل يؤنس الناسَ حسنُه ... ولكن له أسرار سوء قبائح

---

(١) أشخصه المكروه: أزعجه.

(٢) السلاف والسلافة: ما سال قبل العصر، وهو أفضل العصير. وسلافة الشىء المعصور أوله.

والقصارى: الجهد والغاية، يقال: قصاراك أن تفعل كذا؛ أى غاية جهدك وآخر أمرك وكل مستطاعك أن تفعل كذا.

الزعاف: السم القاتل.

فإذا علم العبد هذا كلّه عِلْم اليقين، وتمكّن من قلبه غاية التمكين، لم يتصوّر منه مع ذلك وجود رغبة ألبتة؛ لأنه إذ ذاك يجمع بين خيبتين وخسارتين، ويأتيه الموت وهو صِفْر[1] اليدين من منافع الدارين وذلك هو الخسران المبين.

قال أبو هاشم الزاهد، رضى الله عنه،: «إن الله وَسَمَ الدنيا بالوحشية؛ ليكون أُنس المريدين به دونها، وليقبلَ المطيعون إليه بالإعْراض عنها، وأهلُ المعرفة بالله من الدنيا مستوحشون، وإلى الآخرة مشتاقون» وقيل: أوحى الله تعالى إلى الدنيا تضيّقى وتشددى على أوليائى، وترفّهى وتوسعى على أعدائى: تَضيّقى على أوليائى حتى لا يتعرفوا بِكِ عنى، وتوسعى على أعدائى حتى يشتغلوا بك عنى، فلا يتفرغوا لذكرى.

علم أنك لا تقبل النصح المجرّد فذوّقك من ذواقها ما يسهّل عليك وجود فراقها.

النصح المجرّد لا يقبله إلّا من لم يستحكم فيه حُبّ العاجلة والأُنسُ بلذاتها الفانية، وكان كريم الطبع سهل القياد وأمّا من رسخت فيه تلك الخبائث، وتمكنت من باطنه، وكان لئيم السجيَّة صَعْب المقادة، فلابد فى قصد هدايته وإرشادِه من زيادة على النصح والوعظ، وهو: وجود ما يقهره ويجبره، وليس ذلك إلا ما ذكرناه، فاعرف قدر النعمة عليك بذلك، واعمل بمقتضاها، وسلِّم لربك فى حكمته وقدرته وحسن ظنِّك به، وقد تقدَّم هذا المعنى عند قوله [من لم يقبل على الله بملاطفة الإحسان قُيِّد إليه بسلاسل الامتحان].

العلم النافع هو الذى ينبسط فى الصدر شعاعه، وينكشف به عن القلب قناعه

---

(١) صفر اليدين: خالى اليدين.

العلمُ النافعُ هو العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه، والعلمُ بكيفية التعبدّ له والتأدب بين يديه، فهذا هو العلم الذى ينبسط فى الصدر شعاعه فيتسع وينشرح للإسلام، ويكشف عن القلب قناعه فتزول عنه الشكوك والأوهام، وفى حكمة داود، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، «العلم فى الصدر كالمصباح فى البيت»، وقال محمد بن على الترمذى، رضى الله عنه،: «العلم النافع هو الذى تمكن فى الصدور وتصور، وذلك أن النور إذا أشرق فى الصدور تَصوَّرت الأمور حَسنَها وسيئَها، ووقع بذلك ظل فى الصدور فهو صورة الأمور فيأتى حَسنَها ويجتنب سَيئها، فذلك العلم النافع من نور القلب خرجت تلك العلائم إلى الصدور، وهى علامات الهدى، والعلم الذى قد تعلمه، فذلك علم اللسان، إنما هو شىء قد استودع الحفظ، والشهوة غالبة عليه قد أطاحت به وأذهبت بظلمتها ضوءَه.

وقال أبو محمد عبد العزيز المهدوى، رضى الله عنه،: «والعلم النافع هو: علم الوقت، وصفاء القلب، والزهد فى الدنيا، وما يُقرب من الجنة وما يبعد عن النار، والخوفُ من الله والرجاء فيه، وآفات النفوس، وطهارتها، وهو النور المشار إليه أنه نور يقذفه الله فى قلب من يشاء دون علم اللسان والمنقول والمعقول.

وقال مالك بن أنس رضى الله عنه،: «ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو نور يقذفه الله تعالى فى القلوب».

وإنما منفعة العلم أن يُقرِّب العبدَ من ربه، ويبعده عن رؤية نفسه، وذلك غاية سعادته ومنتهى طلبه وإرادته، قال الجنيد، رضى الله تعالى عنه: «العلم: أن تعرف ربَّك، ولا تعدو قدرك».

وهذه عبارة مختصرة وجيزة، جمع فيها -رحمه الله- مقصود علوم الصوفية،

وهى: معرفة الله تعالى، وحسن الأدب بين يديه، وهذه هى العلوم التى ينبغى للإنسان أن يستغرق فيها عمره الطويل، ولا يقنع منها بكثير ولا قليل.

وقد قال سيدى أبو الحسن الشاذلى - رضى الله عنه -: من لم يتغلغل فى هذه العلوم - يعنى علوم الصوفية - مات مُصرًّا على الكبائر وهو لا يعلم. وما سوى هذه العلوم قد لا يحتاج إليها، وربما أضرَّ بصاحبها مداومتهُ عليها، وقد استعاذ رسول الله ﷺ فى الخبر المشهور عنه «مِن عِلْم لا ينفع».

ثم ذكر المؤلف، رحمه الله تعالى، عبارة أخرى فى بيان العلم النافع وتعريفه يلازمه، فقال:

خير العلم ما كانت الخشية معه

خير العلوم ما يُلزم وجود الخشية لله تعالى؛ لأن الله تعالى أثنى على العلماء بذلك، فقال، عزّ من قائل،: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1] فكل علم لا خشية معه فلا خير فيه، بل لا يسمى صاحبه عالمًا على الحقيقة.

قال الربيع بن أنس، رحمه الله، فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾: من لم يخش الله فليس بعالم؛ ألا ترى أن داود - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - قال: ذلك بأنك جعلتَ العلم خشيتك والحكمةَ الإيمان بك فما عَلِمَ مَن لم يخشك، ولا حكمة لمن لم يؤمن بك!».

قال فى «لطائف المنن»: «فشاهد العلم الذى هو مطلوبُ الله الخشية لله تعالى، وشاهد الخشية موافقة الأمر أما علم تكون معه الرغبة فى الدنيا والتملق

---

(١) آية رقم ٢٨ من سورة فاطر

لأربابها، وصرف الهمة لا كتسابها، والجمع والادخار والمباهاة والاستكثار وطول الأمل ونسيان الآخرة، فما أبْعَدَ مَنْ هذا العلم علمه مِن أَنْ يكون مِن ورثة الأنبياء؛ وهل ينتقل الشيءُ الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التى كان بها عند الموروث عنه؟

ومَثَل مَن هذه الأوصاف أوصافُه من العلماء مثل الشمعة تضيء على غيرها وهى تحرق نَفْسَها. جعل اللّهُ العلم الذى عَلمه مَن هذا وصفُه حجةً عليه وسببا فى تكثير العقوبة لديه» اهـ

وكان سهل بن عبد الله، رضى الله عنه، يقول: «لا تقطعوا أمرًا من أمور الدنيا والدين إلا بمشورة العلماء تُحمدوا العاقبة عند الله تعالى: قيل يا أبا محمد: مَن العلماء؟ قال: الذين يُؤثرون الآخرة على الدنيا، ويؤثرون الله تعالى على نفوسهم».

وقد قال عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، فى وصيته: «وشاور فى أمرك الذين يخشون الله تعالى».

وقال الواسطى، رضى الله تعالى عنه،: «أرحمُ الناسِ العلماءُ؛ لخشيتهم من الله تعالى وإشفاقِهم مما علمهم الله عزّ وجل».

وقال فى التنوير، فى قوله ﷺ، (طالب العلم تكفل الله له برزقه): اعْلم أنَّ العِلمَ حيث ما تكرر فى الكتاب العزيز أو فى السنة إنّما المراد به العلمُ النافعُ الذى تقارنه الخشية وتكتنفه المخافة قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1] فبين أن الخشية تلازم العلم. وفهم من هذا أن العلماء إنما هم

---

(١) الآية ٢٨ من سورة فاطر.

أهل الخشية، وكذلك قول الله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[١] ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٢] ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[٣] وقوله ﷺ (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم)[٤] وقوله ﷺ (العلماء ورثة الأنبياء)[٥] وقوله هنا (طالب العلم تكفّل الله برزقه) إنما المراد بالعلم فى هذه المواطن: العلم النافع القاهر للهوى، القامع للشهوة؛ وذلك متعين بالضرورة؛ لأن كلامَ الله وكلام رسوله ﷺ أجل من أن يحمل على غير هذا - وقد بينا ذلك فى غير هذا الكتاب - والعلم النافع هو الذى يستعان به على طاعة الله عزّ وجل، ويُلْزِمُك المخافةَ من الله تعالى، والوقوفَ على حدود الله، وهو علم المعرفة بالله، ويشمل العلمُ النافعُ العلمَ بالله والعلمَ بما أمر الله به إذا كان تعلّمه لله تعالى». ا هـ

وقد تقدّم المعيار الصادق على صحة دعوى التعلّم والتعليم لله عند قوله [إذا التبس عليك أمران].

وقال الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى، رضى الله تعالى عنه،: «كل علم لا يُورث صاحبَه الخشيةَ والتواضع والنصيحة للخلق والشفقة عليهم، ولا يحمله على حسن معاملة الله تعالى ودوام مراقبته وطلب الحلال وحفظ الجوارح وأداء الأمانة ومخالفة النفس ومباينة الشهوات فذلك العلم الذى لا ينفع، وهو الذى استعاذ منه النبى ﷺ فقال (أعوذ بك من علم لا ينفع)

---

(١) الآية ٨٠ من سورة القصص. (٢) من آية ١١٤ من سورة طه.

(٣) آية ٧ من سورة آل عمران.

(٤) «وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يفعل»، جزء من حديث رواه الترمذى.

(٥) «وإن العلماء ورثة الأنبياء» جزء من حديث فى مدح العلم أخرجه أبو داود والترمذى.

ووصف الله تعالى العلماء بالخشية فقال ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وقال رجلٌ للشعبى: أيها العالم. فقال: اسكت، العالمُ مَن يخشى الله تعالى.

وقال بعض السلف: «من ازداد علمًا فليزدد خشوعًا».

وقال رجل للجنيد، رضى الله عنه: أىّ العلم أنفع؟ قال: «ما دلّك على الله تعالى، وأبعدك عن نفسك».

قال: والعلمُ النافع: ما يدلُّ صاحبَه على التواضُع، ودوامِ المجاهدة، ورعاية السرّ، ومراقبة الظاهر، والخوف من الله، والإعراض عن الدنيا وعن طالبيها، والتقلل منها، ومجانبة أربابها، وترك ما فيها على مَن فيها مِن أهلها، والنصيحة للخلق، وحسن الخلق معهم، ومجالسة الفقراء، وتعظيم أولياء الله تعالى، والإقبال على ما يعنيه، فإن العالم إذا أحب الدنيا وأهلَها وجَمَعَ منها فوق الكفاية يغفل عن الآخرة وعن طاعة الله تعالى بقدر ذلك، وقد قال الله عزَّ وجل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[1]، وقال النبى ﷺ: «مَن أحبَّ دنياه أضرَّ بآخرته ومن أحبَّ آخرته أضرَّ بدنياه، ألا فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[2].

وقال الفضَيل بن عياض، رضى الله تعالى عنه: «العالم طبيبُ الدِّين وَحُبُّ الدنيا داء الدين، فإذا كان الطبيب يجرُّ الداء إلى نفسه فمتى يُبْرِئُ غيرَه».

فإذا وفّق الله العالم من العلماء للإقبال على الله وعلى أوامره، والإعراض عن الدنيا وما فيها ومَن فيها:

---

(١) الآية ٧ من سورة الروم.

(٢) حديث صحيح رواه الإمام أحمد فى مسنده والحاكم فى مستدركه عن أبى موسى رضى الله تعالى عنه.

فأوّلُ ما يلزمه أن يعرف نِعم الله عليه فى ذلك ويقوم بواجب الشكر، ويزيد تواضعًا واجتهادًا، ويعلم أنه محمول على ذلك، وأن ذلك بتوفيق من الله تعالى، لا بمجاهدة منه؛ فإنَّ مجاهدته أيضًا ومعرفتَه لنعم الله عليه بزيادة توفيق الله.

فإذا كان العامل بهذا المحل من الدين كان إمامًا يقتدى به فى أحكام الظاهر وأحوال الباطن، يَهْتَدِى بنوره كلُّ من صحبه، ويستضىءُ بعلمه كلّ مَن اتّبعه ويكون حُجَّة لله على عباده، وبركة فى بلاده.

ومن قاده علمه إلى طلب الدنيا وطلب العلوّ فيها، وطلب اتّباع الرياسة واستتباع الخلق فهو العلم الذى هو غير النافع، وهو المغترُّ به، ولا حسرة أعظم من أن يهلك العالم بما يرجو به نجاته. ونحن نعوذ بالله من الخذلان» انتهى. ثم عبّر المؤلف، رحمه الله تعالى، بعبارة أخرى من معنى ما تقدَّم فقال:

العلم إن قارنته الخشية فلك[1]، وإلا فعليك

العلم الذى تلازمه الخشيةُ لك؛ لأنك تنتفع به فى دنياك وآخرتك. وليس ذلك إلا ما ذكرناه.

والعلم الذى لا خشية فيه عليك، لأنك تستضرّ به فيهما.

وهذا هو الفرق بين علماء الآخرة وعلماء الدنيا، من حيثُ إنَّ علماء الآخرة موصوفون بالخشية والرهبة، وعلماء الدنيا مَوْسُومُون بالأمن والغرَّة.

وقد بيّن علماؤنا، رضى الله عنهم، حال الفريقين وأوضحوا أمرهم بالنعوت والعلامات، وأطالوا فى ذلك النفَس، لما شاهدوا من انتشار الفساد فى الأرض

---

(١) فلك، أى فلك أجره وثوابه، وإلا فعليك وزره وعقابه، أو فلك محجة، وإلا فعليك حجة، قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يغدو مبايع نفسه فمعتقها أو موبقها».

بسبب جهل الناس بالعلم النافع أىَّ شىء هو!!

فمن أراد الشفاء فى ذلك واستيفاء الكلام عليه، وما فى ذلك من الأخبار والآثار فعليه بالنظر فى كتاب «العلم» من كتاب «إحياء علوم الدين» لأبى حامد الغزالى، رضى الله تعالى عنه، ولباب ذلك ما ذكره المؤلف، رحمه الله، ها هنا.

وقد قال الفضيل بن عياض، رضى الله عنه: «كان العلماء ربيعَ الناس: إذا نظر إليهم المريض لم يسرُّه أن يكون صحيحًا، وإذا نظر إليهم الفقير لم يودّ أن يكون غنيا، وقد صاروا اليوم فتنة على الناس».

قال هذا فى زمانه الصالح، فكيف لو أدرك زماننا هذا؟! فإنَّا للّهِ وَإنَّا إليه راجعون.

واعلم أنه قد ورد فى الكتاب والسنة من فضل العلم والعلماء مالا يحصى كثرة، ولا يُرجى حصول ذلك إلا لمن صَحَّتْ فيه نيَّته، وصِحَّةُ نيَّته فى ذلك أن يكون غرضه فيه طلبَ مرضاة الله تعالى واستعماله فيما ينفع عنده، وإيثاره الخروج عن ظلمة الجهل إلى نور العلم، فهذه هى النية الصحيحة التى تُحْمد عاقبتُها آجلًا، وتجتنى ثمرتها فى طاعة الله عاجلًا.

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كلُّ يوم لا أزداد فيه علمًا يقرّبنى من الله عزَّ وجلَّ فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم».

وقال الحسن، رضى الله تعالى عنه: «كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يُرى ذلك فى تخشعه ولباسه وبصره ولسانه وصلاته وهديه وزهده، وإن كان الرجل ليصيب البابَ من أبواب العلم فيعمل به فيكون خيرًا له من الدنيا بما فيها لو كانت له ليضعفها فى الآخرة وليأتينَّ على الناس زمانٌ يشتبه فيه

الحق والباطل، فإذا كان ذلك لم ينفع فيه إلا دعاء كدعاء الغريق».

وقال سفيان الثورى، رضى الله عنه: «إنما يتعلم العلم ليتقى به الله، وإنما فضُل العلم على غيره؛ لأنه يتقى الله به».

فإن اختل هذا المقصد، وفسدت نية طالبه: بأن يستشعر به التوصل إلى منالٍ دنيوى، من مال أو جاه، فقد بطل أجره، وحبِط عمله، وخسر خسرانًا مبينًا.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ فيما روى عنه أبو هريرة رضى الله عنه: «مَن تَعلّم علمًا مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به غَرضًا من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة»، يعنى: ريحها.

وكان الحسن، رضى الله تعالى عنه، يقول: «والله ما طلب هذا العلم أحدٌ إلا كان حظُّه منه ما أراد به».

وقال الحسن: «عقوبة العالم موتُ القلب. فقيل له: وما موت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة».

فإذا انضاف إلى هذا الغرض أن يتصدّى به إلى تولّى الأعمال السلطانية كائنة ما كانت، أو يتوصَّل به إلى اكتساب مال من حرام أو شبهة، فقد تعرَّض لغضب الله تعالى وسخطه وباء بإثمه وآثام المقتدين به، وكان الجهل إذ ذاك خيرًا له من العلم وأحمد عاقبة.

---

(١) من الآية ٢٠ من سورة الشورى.

وقال أبو عمر بن عبد البرّ، رحمه الله تعالى: «.. وروينا عن الأوزاعى، رضى الله عنه، قال: شكت النواويس[١] إلى الله عزَّ وجل، ما تجد من نتن جيف الكفار، فأوحى الله تعالى إليها: «بطونُ علماء السوء أنتَن مما أنتم فيه» قال: وروينا عن الفضيل بن عياض، وأسد بن الفرات، قال: بلغنى أن الفسقة من العلماء ومن حملة القرآن يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان، قال الفضيل بن عياض، رضى الله عنه: لأن من علم ليس كمن لم يعلم».

قلت: والغالب على طلبة العلم فى هذه الأعصار هذا الوصف المذموم؛ لأن حبَّ الدنيا قد استولى عليهم واستهواهم، والحرصَ على التقدّم والترؤس قد ملكهم فأصمّهم وأعماهم، ولذلك أمارات وعلامات لا تحصى ولا تخفى، وفى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يخرج فى آخر الزمان رجال يختلسون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللّين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله تعالى: أبى تغترُّون، أم علىَّ تجترئون، فبى حلفت لأبعثنَّ على أولئك فتنةً تَدَع الحليم منهم حيران» رواه أبو هريرة رضى الله عنه.

وروى أبو الدرداء، رضى الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنزل الله تعالى فى بعض الكتب - أو أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ويلبسون للناس مسوك[٢] الكباش

---

(١) قال المنجد: الناووس، والناءوس: مقبرة النصارى، والجمع نواويس. ويطلق على حجر منقور تجعل فيه جثة الميت.

(٢) المسك - بالميم المفتوحة وسكون السين: الجلد، والجمع: مسك ومسوك، بضم الميم والسين، ولعل المراد به هنا: القناع.

وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرّ من الصبر إيّاى يخادعون وبى يستهزئون لأتيحنّ لهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران».

وفى بعض الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ: «يأتى على الناس زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه، ولا من الإسلام إلا اسمه، قلوبهم خربة من الهدى، ومساجدهم عامرة من أبدانهم، شرّ من تظل السماءَ يومئذ علماؤهم، منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود».

واعلم أنَّ العلم النافع المتفق عليه فيما سلف وخلف إنما هو العلم الذى يؤدى بصاحبه إلى الخوف والخشية، وملازمة التواضع والذلة، والتخلّق بأخلاق الإيمان، وتوافق الإسرار والإعلان، إلى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة فيها، وإيثار الآخرة عليها، والموالاة فى الله، والمعاداة فيه، والحرص على التفطّن للأسباب الباعثة له على الاستقامة، ولزوم الأدب بين يدى الله تعالى فيراعيها حِفظًا وطلبًا، ومعرفة الأسباب المضادة له عن ذلك فيرفضها رفضًا وهربًا، إلى غير ذلك من الصفات العلية والمناجى السنيّة، فبهذا كلّه يحصل له فوائد العلم وثمراته الدنيوية والأخروية.

فإذا خلا طالب العلم عنها، أو عن بعضها، فإن كان ما يطلبه علمًا حقيقيًّا كان حجة عليه، وإن كان رسميا كان وبالاً واصلاً إليه. والعياذ بالله من ذلك.

قال فى «لطائف المنن»: «ربما غرَّ الغافل من طلبة العلم من قال: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله. وليس فى قول هذا القائل ما يستروح إليه من طلب العلم للرياسة والمنافسة به، وإنما أخبر هذا القائل عن أمرٍ مُنَّ به عليه، وفتنةٍ سَلّمه الله منها، لا يلزم أن يقاس عليه فيها غيره، وذلك بمثابة مَن به مرضٌ مزمن فى المِعَى أعيا علاجه الأطباء وضاق عليه خُلُقه، فأخذ خنجرًا

وضرب به مراق[١] بطنه ليقتل نفسه، فصادف ذلك المِعى فقطعه، فخرج الداءُ منه، فهذا لا يستصوب العقلاءُ فعلَه، وأنه نجحت عاقبتُه، وليست سلامة العواقب رافعة للعتب عن الملقين أنفسهم للتهلكة:

* ليسَ المخاطر محمودًا وإن سلما *

وقال فى موضع آخر: «.. ولا يغرنّكَ أن يكون به انتفاع للبادى والحاضر، فقد قال ﷺ: «إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[٢].

ومَثَل مَن تعلّم العلم لا كتساب الدنيا وتحصيل الرفعة فيها كمثل من رفع العذرة[٣] بملعقة من الياقوت، فما أشرف الوسيلة وما أخس المتوسل إليه!!

ومثل منَ قطع الأوقات فى طلب العلم فمكث أربعين سنة أو خمسين سنة يتعلم العلم ولايعمل به كمثل من قعد هذه المدَّة يتطهر ويجدد الطهارة فلم يُصَلِّ صلاة واحدة!!

إذ مقصود العلم العمل، كما أنَّ المقصود بالطهارة وجود الصلاة.

ولقد سأل رجل الحسن البصرى عن مسألة فأفتاه فيها، فقال الرجل للحسن: قد خالفك الفقهاء!! فزجره الحسن وقال: ويحك!! وهل رأيت فقيهًا؟! إنما الفقيه الذى فَقَه عن الله أمره ونهيه.

---

(١) وفى نسخة: مزق بطنه: والمِزَق، بميم مكسورة وزاى مفتوحة، جمع مزقة وهى القطعة، والمرق، بكسر الميم وفتحا: الجلد، والجمع أمراق.

(٢) حديث صحيح، ورواه الإمام أحمد وغيره براوية أخرى: «إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم».

(٣) العذرة: الغائط.

قال: وسمعت شيخنا أبا العباس يقول: «الفقيه من انفتق الحجاب عن عين قلبه» والرجل الذى سأل الحسن البصرى هو «فرقد السنجىّ»، والله أعلم. وقد رُوى عنه فى صفة الفقهاء كلام أتمُّ ممَّا ذكره صاحب كتاب «لطائف المنن».

قال فرقد السنجى: «سألت الحسن عن مسألة فأجابنى عنها، فقلت له: إن الفقهاء يخالفونك!! فقال لى: ثكلتك أمُّك فُرَيقد!! وهل رأيت فقيهًا بعينك؟! إنما الفقيه الزاهدُ فى الدنيا الراغب فى الآخرة، البصير بدينه المداوم على عبادة ربِّه، والورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم المجتهد فى العبادة، المقيم على سنّة المصطفى ﷺ، الذى لاينبُذُ مَن فوقه، ولايسخر ممن هو دونه، ولا يأخذ على علم علّمه الله له حُطاماً».

قلت: وعلى المعلم أن يتفقد أحوال من يتعلم منه، فلا يبذل علمه إلا لمن يتوسم فيه الخير والصلاح؛ إذ بذلك تستقيم له النيات والمقاصد التى ذكرناها، ولا يبذله لمن هذا ممن علم حاله أو جهله.

قال رجل لسفيان الثورى، رضى الله عنه: «إنك إن نشرت مامعك من العلم رجوت أن ينفع به الله بعض عباده وتؤجر على ذلك، فقال سفيان الثورى: والله لو أعلم بالذى يطلب هذا العلم لايريد به إلا ما عند الله لكنت أنا الذى آتيه فى منزله؛ فأحدِّثه بما عندى ممن أرجو أن ينفعه الله به».

وقد سئل بعض العلماء عن شىء فلم يجب، فقال له السائل: أما سمعت رسول الله ﷺ قال: «من كتم علمًا نافعًا جاء يوم القيامة ملجمًا بلجام من النار[1]؟!

---

(١) رواه ابن عدى فى الكامل بسند ضعيف.

فقال له: اترك اللجام واذهب، فإن جاء من يستحقه وكتمته فليلجمنى به».

وفى قوله عزّ من قائل: ﴿وَلَاتُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ﴾[1] تنبيه على أن حفظ العلم ممن يفسده ويستضرّ به أولى، كما قيل:

ومن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وقد حكى عن بعض الأمم السابقة أنهم كانوا يختبرون المتعلم مدة فى أخلاقه؛ فإن وجدوا فيه خُلقًا رديئًا منعوه من العلم أشدّ المنع، وقالوا: إنه يستعين بالعلم على مقتضى الخلق الردئ فيصير العلم آلة شرٍّ فى حقّه.

وقد قالت الحكماء: «زيادة العلم فى الرجل السوء كزيادة الماء فى أصول الحنظل: كلما ازداد رِيًّا ازداد مرارةً».

وهذا كله صحيح مجرَّب فينبغى إذن للعالم ألَّا يهمله بل يراعيه، ويمتثله، ولا اعتبار بما يتوهمه فى تعليمهم من وجود المصالح على تقدير حصول توفيق الله تعالى لهم لأن يعملوا ببعض مايتعلمونه من العلم الصحيح إن كانت لهم ولاية حكم، أو غير ذلك، فإنّ المفاسد التى تقع بسبب ذلك لهم فى خاصة أنفسهم، والمفاسد التى تتعدى منهم إلى غيرهم أكثر، ودرء المفاسد أهمّ عند العقلاء من جلب المصالح، أمّا المفاسد التى تختص بهم فهى تقوية صفاتهم الذميمة وأخلاقهم اللئيمة بما يطلبونه من العلم، لأنهم يستشعرون بذلك التوصل إلى جميع مطالبهم الدنيوية على غاية الكمال والتمام، فإذا استشعروا بذلك توجهوا بهممهم إليه، وعكفوا بالجدّ والاجتهاد عليه، ولولا هذا الاستشعار لم يتصورّ منهم ذلك، فإذا حصلوا على شىء من ذلك وظهرت لهم

---

(١) الآية ٥ من سورة النساء

مخايل وصولهم إلى أغراضهم المذكورة فرحوا بذلك واغتبطوا به، وكلما ازدادوا علما ازدادوا فرحا واغتباطا بما هم فيه، وهذا الفرح والاغتباط فى غاية الذمّ منهم لأن ذلك متعلق بأسباب الدنيا، وهى بمنزلة السمّ القاتل الذى يوجب موت قلوبهم وقسوتها وبعدها عن التأثر بالمواعظ والحكم كما قيل:

إذا قسا القلبُ لم تنفعه موعظةٌ كالأرض إن سبخت لم ينفع المطر

وعند ذلك تنتعش نفوسهم، وتتقوى صفاتها، وتظهر آثار ذلك على ظواهرهم من التكالب على الدنيا، والركون إلى من هى عنده من أبنائها المترفين، وليس لهم مايتوسلون به إليهم سوى علمهم فيحتالون على تحصيل إقبالهم عليهم، وصرف وجوههم إليهم بالتفنن عندهم بأنواع من الحيل، ولايسلمون فى ذلك من الرياء والتصنع والنفاق والدهان، ويجرهم ذلك إلى أنواع من المحظورات وضروب من العصيان مع مايحل بهم فى ذلك من الذل والهوان، فإذا نالوا ذلك أو بعضه حصل لهم مقصود نفوسهم، وتمكنوا من جميع حظوظهم، فخرجوا من الحرية إلى استبعاد الأغيار، واستبدلوا بالجهل النافع العلم الضار.

وقد قال الفضيل بن عياض: «لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وشحّوا على دينهم وأعزّوا العلم، وصانوه، وأنزلوه حيث أنزله الله لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقاد لهم الناس، وكانوا لهم تبعا، وعزّ الإسلام وأهله، ولكنهم أذلّوا أنفسهم، ولم يبالوا بما نقص من دينهم إذ سلمت لهم دنياهم، فبذلوا علمهم لأبناء الدنيا ليصيبوا بذلك مافى أيدى الناس، فذلوا وهانوا على الناس» انتهى ولله در الشاعر رحمه الله حيث يقول:

يقولون لى: فيك انقباضٌ وإنما رأوا رجلًا عن موقف الذل أحجما

إذا قيل هذا موردٌ قلت: قد أرى ... ولكن نفسَ الحرِّ تحتمل الظما
وما كلُّ برق لاح لى يستفزنى ... وما كل أهل الأرض أرضاه مُنعما
ولم أبْتَذل فى خدمة العلم مهجتى ... لأخدم من لاقيت إلا لِأخدما
أأغرسه عزًا وأجنيه ذِلّةً ... إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أنَّ أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا، ودنّسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهّما

وقال وهب بن منبه رضى الله عنه، لعطاء الخراسانى: «كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم، وكانوا لايلتفتون إلى دنيا غيرهم، وكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة فى علمهم، فأصبح أهل العلم فيها اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة فى دنياهم، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا فى علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم».

وقال ذو النون المصرى، رضى الله عنه: «كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا للدنيا، وتركا لها، فاليوم يزداد الرجل بعلمه للدنيا حبًّا، ولها طلبا، وكان الرجل ينفق ماله على علمه ويكسب الرجل اليوم بعلمه مالاً، وكان يرى على طالب العلم زيادة فى باطنه وظاهره، فاليوم يرى على كثير من أهل العلم فسادٌ فى الباطن والظاهر».

فانظر - رحمك الله - إلى ماذكره هؤلاء الفضلاء تجده لازما لطلبة هذا الزمان، «وليس الخبر كالعِيان».

ثم بعد وقوع هذه المفاسد بهم، وتوغلهم بها فى سوء أدبهم يتعذر عليهم بعد ذلك سلوك طريق الحق لِمَا استحكم فى قلوبهم من علامات سوء الخلق؛ فقد قيل: التعمق فى الباطل قطعٌ لآمال الرجوع عنه، فكلما كان بعد المسافة من

الحق أتم كان اليأس من الرجعة أوجب، وأعظم الوبال عليهم اغترارهم بحالهم، واستحسانهم لسيىء أعمالهم، واعتقادهم أنهم سالكون سبيل النجاة فى الدار الآخرة ونيل الثواب فيها، وأنهم هم الذين حازوا الرتب الشريفة، والمناقب المنيفة، التى اختص بنيلها العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وليس عندهم من المعرفة وعلوم التحقيق مايخرجون به من هذا الغرور؛ لأنهم لم يسلكوا طريق ذلك، ولم يهتدوا لما هنالك، فهذا هو الفساد الذى يختص بهم ولايشاركون غيرهم فيه.

وأمّا الفساد الذى يتعدى إلى غيرهم فأظهر من كل ظاهر، وناهيك بمن ملكته نفسه أشدّ ملك، واستعبدته أشدَّ استعباد هل يبقى عليه شيء من الشر أو نوع من أنواع الفساد إلا ويقع فيه إذا تمكن منه.

ومن دقيق مايسرى عنهم من الفساد من غير قصد منهم لذلك وقوع الاغترار للجهلة والأغمار بمشاهدة حالهم، فإنهم يشاهدونهم قد حازوا من رتب الدنيا ماأرادوه ويتوهمون أنهم نالوا شرف الآخرة بما أفادوه واستفادوه، فيحملهم ذلك على الاقتداء بهم فى طلب العلم إن كانوا ممن فيه قابلية لذلك، فيقعوا فيما وقعوا فيه من المهالك، أو يؤديهم ذلك إلى محبتهم، وموالاتهم، واتخاذهم أربابًا يسمعون منهم ويطيعونهم فى أوامرهم ونواهيهم، ثم يخرج بهم استحسان حالهم إلى الداء الدفين، وهو مسارقة طباعهم الدنيئة وأخلاقهم الرديئة فإن نفوس العامة قابلة لذلك ومهيأة له، بمنزلة الصبى الذى ترسخ فيه أخلاق آبائه ومنازعهم ومذاهبهم، وعند ذلك يبطل فى حقهم ماهو مقصود من بعثة الرسل من التزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة، وحب الفقر والمسكنة، وإيثار التواضع والذلة، والتخلق بأخلاق الايمان والإسلام، وشدة الحذر من ارتكاب المناهى والآثام، ثم يئول بهم ذلك إلى الشرك الخفى والجلىّ، ثم يحيق

بهم المكر السيئ ، والعياذ بالله تعالى، ويكون وبال جميع ذلك راجعًا إلى العالم لتيسير أسباب ذلك على يديه، ولقد صدق ابن المبارك رحمه الله حيث يقول:

وهل أفسد الدينَ إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها
فباعوا النفوس ولم يربحوا ... ولم تَغْل فى البيع أثمانُها
لقد رتع القوم فى جيفة ... يَبِينُ لذى العقل أنتانُها

وروى عن حذيفة بن اليمان، رضى الله تعالى عنه: «أنه أخذ حصاة بيضاء فوضعها فى كفة، ثم قال: إن الدين قد استضاء إضاءة هذه، ثم أخذ كفا من تراب، فجعل يذره على الحصاة حتى واراها، ثم قال: والذى نفسى بيده ليجيئن أقوام يدفنون الدين هكذا كما دفنت هذه الحصاة، ولتسلكنْ سبيل الذين كانوا من قبلكم حَذْو القدم بالقدم والنعل بالنعل».

قلت: ومنشأ وجود هذه المفاسد خراب بواطنهم وظلمة قلوبهم بسبب فقد اليقين منها، وانكشاف أنوار الإيمان فيها، وإفلاسهم من حقائق ذلك، وعدم اختصاصهم بشىء منه، فصاروا بذلك مأسورين لأهوائهم، منقادين لأغراضهم وآرائهم، ففسدت بذلك نياتهم ومقاصدهم، «والأعمال بالنيات[1]»؛ فإذا كانت النيات صالحة كانت الأعمال صالحة، وترتب عليها آثار الصلاح، وانعطف من ذلك على القلوب مزيد إشراق وحميد أخلاق يؤذن ذلك بوجود القرب من الله، ونيل درجة الحب منه، وإذا كانت النيات فاسدة كانت الأعمال أيضا فاسدة، وترتب عليها آثار فاسدة وانعطف من ذلك على والقلوب زيادة ظلمة ورداءة

---

(١) إشارة إلى الحديث الشريف الذى صدر به الإمام البخارى كتابه «وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»

همة تقتضى البعد من الله تعالى وحصول المقت منه، وطلب العلم عمل من الأعمال، مُعرّض للصحة والاعتلال وليت شعرى: هؤلاء الذين استغرقوا أعمارهم فى طلب العلم والأثر، وأتعبوا أنفسهم بالدراسة والنظر، وقطعوا أيامهم ولياليهم بالجوع والسهر، وسمحت نفوسهم بفراق ملذوذاتها والبعد عن جميع مألوفاتها، هل بعثهم على ذلك باعث الدين أو باعث الهوى، ولاشك أن باعث الدين غير متصور منهم، بل هو محال فى حقهم؛ لما قدمناه من خراب البواطن وظلمة القلوب، وكيف يتصور ذلك منهم وهم لم يعملوا على تخلصهم من التكاليف الواجبة عليهم فى ظواهرهم وبواطنهم بل لم يعرفوا ذلك ألبتة، وإن ادّعوا أنهم على أحوال لايجب عليهم فيها حكم يحتاجون إلى تعرفه والقيام به فهم مخدوعون، ومن أين لهم ذلك، والعلم به لايحصل ضرورة، فلابد لهم من استفادته، ولاعناية لهم بهذا أيضا، وإنما كان يتصور منهم باعث الدين لو توفرت أغراضهم كلها عليه، ووصلوا إلى مايمكنهم الوصول إليه من شهواتهم ولذاتهم بسبب مّا، من أسباب الدنيا، ثم يصرفون مافضل من أوقاتهم عن محاولة هذه المطالب ونيلها إلى طلب العلم عوضا عن البطالة التى يتبرم بها صاحبها ويدعوه فراغه من أشغال دنياه إلى قطع ذلك الوقت بلهو ولعب، أو ارتكاب معصية وذنب، لا البطالة التى يكون فيها استراحة لنفسه، واستجمام لعقله وحسّه، ففى هذه الحال قد يصحّ باعث الدين من أمثال هؤلاء.

وأما الحال التى وصفناها فلا يتصور عليها باعث إلّا الدنيا المجردة المجاوزة للحد فى الذم والمقت بمنزلة من هو حريص على الاتساع فى الدنيا والحصول على غاية ملاذها؛ فإنه يعمل فيما يوصله إلى ذلك وإن كان فيه هلاكه: فتراه يرتكب الأخطار، ويخوض لجج البحار، ويجوب البرارى والقفار، ويهون عليه- فى جنب مايأمله- كلّ مشقة تصيبه وبليّة تنزل به.

ولو لم يفعل هذا لم يحصل إلّا على سدّ الرمق[١]، والاقتصار على التبلغ[٢] والعُلَق[٣]. فكذلك هؤلاء الذين كلامنا فيهم، لو لم يتصوروا فى خواطرهم الحصول على كليات أغراضهم: من اتساع مالهم، وجاههم فى دنياهم، ووصولهم مع ذلك إلى رفيع الدرجات فى عقباهم، لم يبلغوا ذلك المبلغ فى الاجتهاد، ولاقتصروا على بعضه.

وهذه كلها أمور بينةٌ لا إشكال فيها عند من له أدنى تمييز وفهم، وليس المانعُ لأكثر من ينتسب إلى العلم من العمل بمقتضى ماذكرناه خفاءه عليهم، كيف، وهم يعتقدون صحته ويسلمون حاصله وحقيقته فى الاحايين عندما ينجلى عن قلوبهم بعض ظلماتها، وتنزحزح عن عظيم غمراتها، إمّا بتذكير مذكر من الخلق، أو وعظ واعظ فى قلوبهم من قبل الحق، ثم يرجعون فى سائلا أوقاتهم إلى مألوفاتهم ومعتاداتهم، وإنما المانع لهم من ذلك انفراد الله تعالى بالمشيئة والقدرة واستئثاره بالخذلان والنصرة؛ فإذا أراد الله تعالى أن يضل عبدًا من عباده لم ينصره عقل، ولم ينفعه علم، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾[٤].

وفى مثل هذا الموطن تبطل أحكام الأسباب، ويتحقق أرباب الحقائق العظمة والجلال، والعزّة والكمال لربّ الأرباب، فليعتبر بما ذكرناه أرباب الأبصار، وليسلموا أحكام الواحد القهار لعلهم بذلك يهتدون إلى منهج

---

(١) أى: مايمسك قوته ويحفظها والرمق (بفتح الراء والميم) بقية الحياة.

(٢) التبلغ: مايكفى من العيش.

(٣) العلق (بضم العين وفتح اللام) جمع علقة مثل غرفة وغرف وهو ماتتبلغ به الماشية ويقال: فلان لايأكل إلا علقة، أى: مايمسك نفسه.

(٤) آية ٤١ من سورة المائدة.

التحقيق حين يضل غيرهم عن سواء الطريق:

* مصائبُ قومٍ عند قوم فوائد *

وليقل العبد المؤمن إذا نظر إليهم، واعتبر بما جرى من سوء القضاء عليهم: «الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاهم به، وفضلنى عليهم تفضيلا» فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من رأى مُبتلى فقال: الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به هذا، وفضلنى عليه وعلى كثير ممن خلق تفضيلا عافاه الله من ذلك البلاء كائناً ما كان[1]»

فعلى المعلّم الناصح لنفسه، السالم فى عقله وحدسه[2]، العامل على تصحيح أعماله وهممه، المشفق على دينه الذى هو منوط بلحمه ودمه، أن يتأمل هذه المفاسد، ويقيس بها ماتوهمه من المصالح الناشئة عن تعليمه بزعمه، ويدقق النظر فى ذلك كما يدققه فى أكثر المسائل التى لايحتاج إليها، ولايقدم على التعليم فى هذه الأزمنة ذوات العلل المزمنة حتى يقطع بوجوب ذلك عليه من غير تردد ولاتجويز وقوع خطأ فى نظر، ولاسبيل له إلى هذا ولايسعه خلاف ذلك إن كان منصفًا.

قال بعضهم: «رأيت سفيان الثورى حزينًا، فسألته عن ذلك، فقال: وهو بَرِم، ما صرنا إلّا متجرًا لأبناء الدنيا»!!

قلت: وكيف ذلك؟ قال: يلزمنا أحدُهم حتى إذا عُرف بنا، وحمل عنا،

---

(١) حديث حسن رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) الحدس (بفتح الحاء وإسكان الدال) النطق والقول بالرأى.

وجعل عاملًا أو حاجبًا، أو قهرمانًا[١] أو جابيًا[٢]، يقول حدثنا سفيان الثورى!!.

وعليه أيضًا أن يحرص على مخالفة نفسه فيما تدعوه إليه من التعليم؛ لأن كلّ ما تستحليه النفس ويوافق غرضها مصحوبٌ بالآفات والعلل التى تقدح فى إخلاص الأعمال، وإخلاص الأعمال شرط فى وجوب القبول، وعند ذلك يذهب عمله باطلًا، ولا ينال بسعيه طائلًا، وقد تقدم من كلام على بن أبى طالب، رضى الله عنه (كونوا لقبول العمل أشدّ اهتمامًا منكم للعمل) عند قوله [ما قلّ عملٌ بَرز من قلب زاهد].

وتقدّم أيضًا الكلام على اتهام النفس فى دعائها إلى ما ظاهره خيرٌ عند قوله [إذا التبس عليك أمران].

ولْيُتَعلم الجزمُ فى ذلك من بشر بن الحارث الحافى، رضى الله عنه، كان يقول: «أنا أشتهى أن أحدّث، ولو ذهبت عنّى شهوة الحديث لحدَّثت».

وكان سبب تركه طلب الحديث أنه سمع أبا داود الطيالسى يحدّث عن شعبة، أنه كان يقول: الإكثار من الحديث يصدّكم من ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون!! فلما سمعه منه قال: انتهينا.. انتهينا، ثم ترك الرحلة فى طلب الحديث وأقبل على العبادة.

وروى أيضا مثل هذا الكلام عن مسعر بن كدام.

فإذا كان الإكثار من طلب الحديث بهذه المثابة عند إمامَىْ المحدّثين فى

---

(١) القهرمان: الوكيل أو أمين الدخل والخرج.

(٢) الجابى: جامع الضرائب والخراج.

زمانيهما مع ما فيه من الفوائد الأخروية، فما ظنّك بغيره من محدثات العلوم ومبتدعاتها ؟!

ولقد ذكر الشيخ الحافظ أبو عمر بن عبد البرّ، رحمه الله، بإسناده إلى عبدالله بن مسلمة القعنبيّ، رحمه الله، قال: دخلت على مالك بن أنس، رضى الله عنه، فوجدته باكيًا، فسلّمت عليه، فردّ السلام، ثم سكت عنّى يبكى، فقلت له: يا أبا عبد الله، ما الذى أبكاك؟ فقال لى: يا ابن قعنب، أبكى على ما فرط منّى، ليتنى جلدت بكل كلمة تكلّمت بها فى هذا الأمر بسوط، ولم يكن فرط منى بما فرط من هذا الرأى وهذه المسائل ولقد كان لى سعة فيما سبقت إليه».

قال هذا فيما كان آخذا فيه من المسائل المحققة المبنية على أصول صحيحة غير ملفقة، فما الظنّ بما انتشر بعده من الهذيان الذى صار بحكم العادة واقتضاء العصبية وتمالؤ الناس على الضلال وتقليد الرؤساء الجهّال دينًا قويمًا وصراطًا مستقيمًا ؟!

وعلى كلّ واحد من العالم والمتعلّم أن يشتغل بما هو عليه مما هو مأمور به ومسئول عنه من مراقبة ربّه وإصلاح نفسه وقلبه، فله فى ذلك شغل شاغل عمّا يفرّق همّه، ويقسى قلبه، وينسيه ذكر ربّه، عزّ وجّل.

قال وهب بن منبهّ: «ذُكِر طلب العلم عند مالك بن أنس، فقال: إن طلبه لحَسنٌ إذا صحّت فيه النية، ولكن انظر ماذا يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى، ومن حين تمسى إلى حين تصبح، فلا تُؤْثرنّ عليه شيئًا».

وكان سفيان الثورى يقول لأهل العلم الظاهر: «طلب هذا ليس من زاد الآخرة».

وكان يقول: «ليس طلب الحديث من عدَّة الموت، لكنه علّة يتشاغل به الرجل».

وكان يقول: «لولا أن للشيطان فيه حظًّا ما ازدحمتم عليه» يعنى العِلم.

فهذه نبذة قصدت إلى بثّها فى الموضع اللائق بها من هذا التنبيه ليتنبه بها من سبق له من الله زوال العمى عن بصره.

ومراجعة خوفه وحذره من المعلمين والمتعلمين، وليتبين بها كلام المؤلف رحمه الله غاية التبيين، وبالله الذى لا إله سواه نستعين.

متى آلمك إقبال الناس عليك، أو توجههم بالذم إليك فارجع إلى علم الله فيك؛ فإن كان لا يقنعك علمه فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشدَّ من مصيبتك بوجود الأذى منهم.

العبد لا ينبغى أن يكون مطمحُ نظره إلّا إلى مولاه، فلا يفرح إلّا بإقباله عليه، ولا يحزن إلّا لإعراضه عنه، ولا ينظر إلى المخلوقين فى إقبال ولا إعراض، ولا مدح، ولا ذم، فإنهم لا يُغْنُون عنه من الله شيئًا، وقد تقدَّم مثل هذا المعنى فى قوله رحمه الله: [غِبْ عن نظر الخلق إليك ينظر الله إليك، وغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك].

فمتى آلمه عدم إقبالهم عليه، أو توجههم بالذم إليه فليرجع إلى ما بينه وبين ربه، فإن كان قانعًا بعلمه، راضيًا بقسمته كان له فى ذلك أعظم سلوان عما يفوته من جهة المخلوقين، بل لا يجد وقعًا فى قلبه لما عسى أن يكون منهم من إقبال أو إعراض، وإن لم يكن راضيًا ولا قانعًا، فمصيبته بذلك أعظم من مصيبته بأذى الناس له، بل لا مصيبة له فى أذى الناس ألبتة عند من عرف سرَّ ذلك على ما يذكره المؤلف الآن رحمه الله تعالى.

قال إبراهيم التيمى، رضى الله تعالى عنه، لبعض أصحابه: ما يقول الناس فىّ؟ فقالوا: يقولون إنك مُراءٍ. فقال: الآن طاب العمل. فقال بشر رضى الله عنه: اكتفى والله بعلم الله، فلم يحب أن يُدخل مع علم الله علم غَيره.

وقال بشر الحافى: «سكون النفس إلى قبول المدح لها أشدّ عليها من المعاصى».

إنما أجرى الأذى على أيديهم كيلا تكون ساكنًا إليهم.
أراد أن يزعجك عن كل شىء حتى لا يشغلك عنه شىء.

وجود أذى الناس للعبد نعمة عظيمة عليه، لاسيما ممن اعتَادَ منه الملاطفة والإكرام، والمبرّة والاحترام؛ لأن ذلك يفيده عدم السكون إليهم، وترك الاعتماد عليهم، وفقد الأنس بهم، فيتحقق بذلك عبوديتهُ لربه عز وجل. قال سيدى أبو الحسن الشاذلى، رضى الله تعالى عنه: «آذانى إنسان مرّة، فضقت ذرعًا بذلك، فنمت فرأيت كأننى يقال لى: من علامات الصدِّيقية كثرة أعدائها ثم لا يبالى بهم».

وقال بعض العارفين: «الصيحة من العدوّ سوط الله يضرب به القلوب إذا ساكنت غيره، ولولا ذلك لرقد القلب فى ظلّ العزّ والجاه، وهو حجاب عن الله عظيم».

وقال سيدى أبو محمد عبد السلام شيخ سيدى أبى الحسن الشاذلى، رضى الله عنهما، فى دعائه: «اللهم إن قومًا سألوك أن تسخرّ لهم خلقك فسخرّت لهم خلقك، فرضوا منك بذلك، اللهم إنى أسألك اعوجاج الخلق علىّ حتى لا يكون لى ملجأ إلا إليك».

وقال أبو الحسن الورّاق النيسابورى، رضى الله عنه: «الأنس بالخلق

وحشة، والطمأنينة إليهم حمقٌ، والسكون إليهم عجز، والاعتماد عليهم وَهْن، والثقة بهم ضياع، وإذا أراد الله بعبد خيرًا جعل أنسه به وبذكره وتوكّله عليه، وصان سرّه عن النظر إليهم، وظاهرَه عن الاعتماد عليهم».

وقد قالوا: «الزهّاد يخرجون المال عن الكيس تقرّبا إلى الله تعالى، وأهل الصفاء يخرجون الخلق والمعارف من القلب تحققًا لله عز وجل».

قال فى «لطائف المنن»: «.. اعلم أن أولياء الله تعالى حكمهم فى بداياتهم أن يسلّط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا، وتكمل فيهم المزايا، وكيلا يساكنوا هذا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد ومن آذاك فقد اعتقك من رقّ إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه؛ ولذلك قال ﷺ: (من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا له) كلُّ ذلك ليتخلص القلب من رق إحسان الخَلق، وليتعلق بالملك الحق، قال: وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: «اهْرَبْ من خير الناس أكثر مما تهرب من شرّهم؛ فإن خيرهم يصيبك فى قلبك، وشرهم يصيبك فى بدنك، ولأن تصاب فى بدنك خير من أن تصاب فى قلبك، ولعدو تصل به إلى الله خيرٌ لك من حبيب يقطعك عن الله، وَعُدَّ إقبالَهم عليك ليلًا وإعراضهم عنك نهارًا، ألا تراهم إذا أقبلوا فتنوا» قال: وتسليط الخلق على أولياء الله فى مبدأ طرقهم[1] سنة الله فى أحبابه وأصفيائه، قال الشيخ أبو الحسن، رضى الله تعالى عنه،: «اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدُوا، فكل عز يمنع دونك فنسألك بذله ذُلا تصحبه لطائف رحمتك، وكل وَجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقدًا تصحبه أنوار معرفتك» قال: ومما يدل على أن ذلك

---

(١) وفى نسخة: فى مبدأ ظهورهم

سنة الله فى أحبابه وأصفيائه قوله تعالى ﴿وَزُلْزِلُوا﴾[١]... الآية وقوله ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾[٢]... الآية وقوله تعالى ﴿وَنَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾[٣] الآيتين وقوله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾[٤]... إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى» انتهى.

وكذلك من استحلى حالاً أو ساكن مقامًا فمن سنة الله تعالى مع أوليائه تشويش ذلك عليهم، وهو من غيْرته على قلوبهم لئلا تستأنس بغيره، ولئلا تتقيد بسواه، قال الإمام أبوالقاسم القشيرى، رضى الله تعالى عنه: «ومن المقاطع المشكلة السكون إلى استحلاء ما يلاقيك به من فنون تقريبك، وكأنه فى خلال ما يناجيك يعاتبك، فإنه بكل لطيفة يصفيك ويطربك وتحتها خدع خافية، ومن أدركته السعادة كاشفة بشهود جلاله وجماله، لا بإثباته فى لطيف أحواله، وما يخصّه من إفضاله وإقباله وأداء الطاعات على وجه الاستحلاء معدود عندهم من الشهوة الخفيّة». ومن هذا المعنى ما ذكر عن سيدى أبى الحسن الشاذلى، رضى الله عنه، لما دخل على شيخه أبى محمد عبد السلام فى أول ما لقيه وسأله عن حاله، فقال له: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حرّ التدبير والاختيار. فقال له الشيخ أبو الحسن: أما شكواى من حرّ التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه، وأما شكواك من برد الرضا والتسليم فلم أفهمه؟ فقال: أخاف أن تشغلنى

---

(١) ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، ألا إن نصر الله قريب﴾ سورة البقرة الآية ٢١٤.

(٢) ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا﴾ سورة يوسف الآية ١١٠.

(٣) آية ٥ من سورة القصص.

(٤) آية رقم ٣٩ من سورة الحج.

حلاوتها عن الله سبحانه» وقال سيدى أبو العباس المرسى، رضى الله عنه: اللطف حجاب عن اللطيف «يعنى: السكون إليه والوقوف عنده وشدة الفرح به، وكذلك قال سرى السقطى، رضى الله عنه: «لو أن رجلا دخل إلى بستان فيه من جميع ما خلق الله تعالى من الأشجار، عليها من جميع ما خلق الله من الأطيار، فخاطبه كل طائر منها بلغته وقال: السلام عليك يا ولىّ الله فسكنت نفسه إلى ذلك كان فى أيديها أسيرًا».

وقال بعضهم: «لا يكون الصوفىّ صوفيا حتى لا تقلّه أرض ولا تظله سماء، ولا يكون له قبول عند الخلق، ويكون مرجعه فى جميع أموره إلى الحق».

وقيل: «الفقير: من لا دنيا له ولا آخرة؛ فإن عُرض على مالك قال: ليس من رجالى. وإن سُلم إلى رضوان قال: لا أهتدى إليه وليس من رجالى. وإن قلت: من هو؟ وما الذى يدعى به قال: ليس ممن يُدعى بشىء!! وقال محمد بن الحسن، رضى الله تعالى عنه، بينا أنا أدور فى جبل لبنان إذ خرج شاب قد أحرقه السَّموم[1] والرياح، فلما نظر إلى ولى هاربًا، فتبعته، وقلت له: عظنى بكلمة، فقال: احذره؛ لأنه غيور لا يحب أن يرى فى قلب عبدٍ سواه». وكتب الجنيد، رضى الله تعالى عنه، إلى بعض إخوانه: من أشار إلى الله وسكن إلى غيره ابتلاه الله وحجب ذكره عن قلبه وأجراه على لسانه، فإن انتبه وانقطع ممن سكن إليه ورجع إلى ما أشار إليه كشف الله ما به من المحن والبلوى، وإن دام على سكونه نزع الله من قلوب الخلق الرحمة عليه، وألبس لباس الطمع فتزداد رغبته فيهم مع فقدان الرحمة من قلوبهم فتصير حياته عجزًا، وموته كمدًا، ومعادَه أسفًا، ونحن نعوذ بالله من السكون لغيره.

---

(١) السموم (بفتح السين) الريح الحارة بالنهار

إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده

الشيطان عدوّ مسلّط على الإنسان، ومقتضى ذلك ألَّا يوجد منه غفلة ولا فترة عن التزيين والإغواء والإضلال. قيل لبعضهم: أينام إبليس؟ فقال: لو نام لوجدنا راحة.

فإذا علمت أنه لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده، وهو الله عزّ وجل، وذلك: بتحقيق عبوديتك له وتوكلك عليه، وافتقارك فى كل أحوالك إليه، واستعاذتك به من شرِّ عدوّك وعدوّه، فبذلك تخرج من سلطنته، وتنجو من غائلته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾[1] وقال عز وجل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2]

فمن تحقق بهذه الصفات العليّة، ومن: الإيمان بالله تعالى، والعبودية له، والتوكّل عليه، واللجاء والافتقار إليه، والاستعاذة والاستجارة به، كيف يكون لعدوّ الله عليه سلطان؟! والله حَبِيبه وولىّ حفظه ونصره. ولولا ما أمرهم الله تعالى بالإستعاذة منه ما استعاذوا منه، ومَن هو حتى يستعاذ بالله منه!!

قال سيدى أبو العباس المرسى، رضى الله تعالى عنه. فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُو فَاتَّخِذُوهُ عَدُوا[3]﴾: قوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب، وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدوّ أى وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمحبته فكفاهم من دونه.

---

(١) آية رقم ٦٥ من سورة الإسراء.
(٢) آية رقم ٩٩ من سورة النحل.
(٣) آية رقم ٦ من سورة فاطر.

وقال أبو حازم، رضى الله تعالى عنه، : ومَن الشيطان حتى يهاب ؟ ! والله لقد أُطيع فما نفع، ولقد عُصى فما ضرّ ! !

وقال بعضهم: الشيطان منديل هذه الدار، يعنى: يُمسَح به أقذار النسب وهى نسبة الشرور وأنواع المعاصى والفساد إليه، أدبًا مع الله عزّ وجلّ. وهذا سرّ إيجاده، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ[١]﴾ وقوله تعالى: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ[٢]﴾ وأما أنّ له حولاً وقوّة يضرُّ بها أو ينفع فلا.

قال أبو سليمان الدارانى، رضى الله تعالى عنه: ما خلق الله عز وجّل خلقًا أهون عليه من إبليس، ولولا أن الله أمرنى أن أتعوّذ منه ما تعوّذت منه أبدًا.

وقيل لبعض العارفين: كيف مجاهدتك للشيطان؟ فقال: «وما الشيطان ؟ ! نحن قوم صرفنا همنا إليه فكفانا من دونه» وسئل بعضهم: بِمَ تدفع إبليس فقال: لا أدفع من لا أعرف.

فأما إن أهملت ذلك وغفلت عنه، ولم تعبأ به غلبك لا محالة لثبوت سلطنته عليك، ووصوله بالوسوسة إليك.

قال أهل العلم: إن لكل أحدٍ من الناس وَسْواسًا موكّلًا به، مُسْتَبطِنًا قلبه، واضعًا رأسه [أو قال: خرطومه] فإذا غفل العبد وسوس، وإذا ذكر الله خنس: أى تأخّر واستتر.

وقال يحيى بن معاذ، رضى الله تعالى عنه: «الشيطان قديم وأنت حديث،

---

(١) آية رقم ٦٣ من سورة الكهف.

(٢) من آية رقم ١٥ من سورة القصص.

والشيطان كسير وأنت سليم الناحية، والشيطان لا ينساك وأنت لا تزال تنساه، وله من نفسك عليك عون».

وقيل: صدر ابن آدم مسكن له، ومجراه من ابن آدم مجرى الدم. وأنت لا تقاومه إلا بعون الله تعالى.

وقال مالك بن دينار، رضى الله عنه: «إنَّ عَدوًّا يراك ولا تراه لشديد المؤنة، إلا من عصمه الله» وفيه يقول القائل:

أشكو عدوًا كيدُه بَرانى ولا أراه حيثما يرانى
وعندما أنساه لا ينسانى يا سيدى إن لم تغِثْ سَبَانى

وقال ذو النون المصرى، رضى الله عنه: إن كان هو يراك من حيث لا تراه فإن الله يراه من حيث لا يرى الله، فاستعن بالله عليه.

وعن أبى سعيد الخدرى، رضى الله تعالى عنه، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال إبليس لربّه عزّ وجلّ بعزّتك وجلالك لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم، قال له ربّه: وعزّتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى».

جعله لك عدوا ليحوشك[1] به إليه، وحرّك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه.

عداوة الشيطان لك نعمة عظيمة من الله عليك، إذ من مقتضاها - كما قلناه - ألاَّ يغفل عنك، وأن يبذل جهده فى محاربتك ومقاتلتك بنفسه وبجنده، وبخيله وبرجله، ولا طاقة لك على مقاتلته بنفسك؛ لأنك فى غاية

(١) حاش الصيد جاءه من حواليه ليصرفه إلى الحبالة، وبابه: قال

الضعف والعجز فيضطرك الحال، لا محالة، إلى الاستعانة عليه بمولاك القوى المتين، فيوجد منك حينئذ الالتجاء إليه والانتصار به، والتوكل عليه فى دفعه عنك.

فعداوة الشيطان هى التى ردّك الحمد تعالى بها إليه، وجمعك بها عليه. وهذا هو غاية المقصود.

وكذلك حركة النفس عليك بالحمل على متابعة الهوى والشهوة، بما جعل فيها من الطبع والجبلة نعمةٌ عظيمةٌ أيضًا، وإن كانت أعدى الأعداء لك؛ إذ بواسطتها يتوصلون إليك، وبأمرها يعملون فيما يعود بالضرر عليك من قبل أنك لاتقدر على مجاهدتها وقمع هواها الممتزج بلحمك ودمك إلّا بمن هو أقوى منك وليس ذلك إلا مولاك، فقد دعاك بهذا إلى دوام الإقبال عليه، والعكوف بالهم عليه.

وكأن المؤلف- رحمه الله تعالى- قصد فى هذه الكلمات إلى ذكر الأعداء الأربعة المذكورين فى قول الشاعر:

إنّى بليت بـأربـع يـرمينى بالنبل عن قوس لها تـوتير
إبليس والدنيا ونفسى، والهوى يارب أنت على الخلاص قدير

وبين فى كلامه وجود عداوتهم ووجوه الاحتراز منها، وتمم ذلك ببيان أن تلك العداوات، وإن عظمت، من أعظم الوسائل إلى أسنى المطالب لمن أريد بذلك ووفق له، وأتى بجميع ذلك فى ألفاظ بديعة مختصرة، وجيزة محررة، فاعرف قدر هذا الفصل، واعترف لوضعه بكمال النُّبْل والفضل، وقال رضى الله عنه:

من أثبت لنفسه تواضعًا فهو المتكبر حقا إذ ليس التواضع إلّا عن رفعة، فمتى أثبت لنفسك تواضعًا فأنت المتكبر حقا.

إثبات التواضع يقتضى وجود الرفعة لامحالة؛ إذ لو كانت معدومة لكان ضدُّها، وهو الضِّعة، ثابتًا موجودًا ولا ينتفى عن العبد التكبر إلا بوجود الضعة، ووجود الضعة لا يحتاج إلى إثبات من العبد؛ لأنه ثابت فى نفسه، فالتواضع الذى أثبته العبد لنفسه لاينفى عنه وجود التكبر بالضرورة.

وأيضًا، فإن لفظة «التواضع» تؤذن بذلك؛ فإن التواضع تفاعلٌ من «الضِّعة» وأكثر باب التفاعل موضوع لإظهار الضعة،وليست كذلك كالتناوم، والتناكر، والتفارح، والتماوت، وغير ذلك.

فصيغة التواضع لاتقتضى حقيقة الضعة وعدم الرفعة، ولايلزم من وجودها ذلك.

والمطلوب من العبد إنما هو أن يتصف بذلك حقيقة لا إظهاراً فقط، بأن ينتفى عنه وجود الرفعة بالكلية، وحينئذ يبرأ العبد من التكبّر ولايكون له وجود ألبتة.

ليس المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه فوق ماصنع، ولكن المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه دون ماصنع.

هذا بيان آخر لما ذكره من أن العبد المتواضع حقيقة لا يُثبت التواضع لنفسه حقيقة؛ لأنه يشاهد من ضعة قدره وخمول ذكره وذلّته ومهانته ما يمنعه من ذلك، وهذا هو التواضع الحقيقى، وهو: شهوده لذلك، ووجده به وظهور آثاره على ظاهره، بل شهوده لذلك ووجده به ممّا يقدح فى حقيقة تواضعه، كما قال الشيخ أبو عبد الله القرشى، رضى الله عنه: «من وجد ذوق ذلّهُ فى ذلّه فهو متعزز، وفيه بقيه».

فهذا العبد المتصف بهذه الصفة لو فعل من أفعال المتواضعين ماشاء لم يثبت

بذلك لنفسه تواضعا؛ لأنه يرى نفسه دون ماصنع من ذلك لغلبة ذلك الشهود والوجد عليه، فإن أثبته لنفسه، ورأى أن نفسه فوق ماصنع مما يقتضى وجود صفة التواضع له بزعمه فهو متكبر حقيقة، ولذلك قال الشبلى، رضى الله تعالى عنه، يومًا فى بعض كلامه: «... ذُلِّى عطَّل ذلَّ اليهود».

وقال: «من رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب».

وقال أبو سليمان الدارانى، رضى الله تعالى عنه: «لايتواضع العبد لله حتى يعرف نفسه».

وقال أبو زيد، رضى الله تعالى عنه: «مادام العبد يظن أن فى الخلق من هو شرّ منه فهو متكبِّر، قيل: فمتى يكون متواضعا؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالاً وتواضع كلّ أحد على قدر معرفته بربه وبنفسه».

وقال أبو سليمان الدارانى، رضى الله تعالى عنه: «لو اجتمع الخلق على أن يضعونى كاتضاعى عند نفسى ماقدروا عليه».

وقال أبو يونس بن عبيد الله، رضى الله تعالى عنه، وقد انصرف من عرفات: «لم أشك فى الرحمة لولا أنى كنت فيهم».

وقيل لمحمد بن مقاتل: «ادع الله لنا، فبكى، وقال: ياليتنى لم أكن أنا سبب هلاككم!!».

ومن علامات التحقق بهذا الخلق ألاَّ يغضب إذا عيب أو تنقّص، ولا يكره أن يُذمّ ويُقذف بالكبائر.

ومن علامات تحققه به أيضًا أن يشتد حرصه على ألاَّ يكون له جاه وقَدْرٌ

عند الناس ويلتزم الصدق فى حاله ألاَّ يرى لنفسه موضعًا فى قلوبهم، وقد تقدّم هذا المعنى عند قوله [أدفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لايتم نتاجه].

وحكى عن أبى الحسن بن الكرابيسى أستاذ الجنيد، رضى الله عنهما: أن رجلاً دعاه ثلاث مرات إلى طعامه وهو يطرده، ثم يرده فيرجع إليه بعد ذلك، حتى أدخله داره فى المرَّة الرابعة، فسأله عن ذلك، فقال: قد ربّضت نفسى على الذلّ عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد، ثم يُدعى فيعود، ويُرمى له عظم فيجيب ولو رددتنى خمسين مرة ثم دعوتنى بعد ذلك لأجبتك!!».

قال أبو طالب المكىّ، رضى الله تعالى عنه: وَحَدَّثت عن بعض الصوفية، أنه وقف على رجل وهو يأكل، فمدَّ يده وقال: إن كان ثمَّ شىء لله تعالى؟ فقال: اجلس فكل. فقال: اعطنى فى كفّى. فأعطاه فى كفّه. فقعد فى مكانه يأكل، فسأله عن امتناعه من الجلوس معه. فقال: إن حالى مع الله الذلّ فكرهت أن أفارق حالى. قال: وكان هذا ربما مدّ يده إلى الهراس فيجعل فيها هريسته.

ومن أغرب مارأيت فى التواضع ماذكره صاحب كتاب «عوارف المعارف» قال: «رأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب، وكنت معه فى سفره إلى الشام، قد بعث بعض أبناء الدنيا له طعامًا على رءوس الأسارى من الإفرنج وهم فى قيودهم، فلما مدت السفرة والأسارى ينتظرون الأوانى حتى تفرغ، قال لخادم: أحضر الأسارى حتى يقعدوا على السفرة مع الفقراء، فجاء بهم، أقعدهم على السفرة صفًّا واحدًا، وقام الشيخ من سجادته ومشى إليهم وقعد بينهم كالواحد منهم، وأكل وأكلوا، وظهر لنا على وجهه مانازل باطنه من

التواضع لله تعالى والانكسار فى نفسه، وانسلاخه من التكبّر عليهم بإيمانه وعلمه وعمله».

وأغرب من هذا ماذكره صاحب كتاب «بغية الطالب ومنية الراغب» أبوالحسن على بن عتيق بن يوسف القرطبى، رحمه الله تعالى، عن أبيه أنه رأى الشيخ الفقيه أبا محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن مفيد، وكان من الفقهاء العلماء، وهو يمشى فى يوم شاتٍ كثير الطين، فاستقبله كلب يمشى على الطريق التى كان عليها. قال: فرأيته قد لصق بالحائط وعمل للكلب طريقًا ووقف ينتظره ليجوز وحينئذ يمشى هو، فلما قرب منه الكلب قال: فرأيته قد ترك مكانه الذى كان فيه ونزل أسفل، وترك الكلب يمشى فوقه. قال: فلما جاوزه الكلب وصلتُ إليه فوجدته وعليه كآبة، فقلت له: ياسيدى، إنى رأيتك صنعت الآن شيئًا استغربته، كيف رميت بنفسك فى الطين وتركت الكلب يمشى فى الموضع النقىّ؟ فقال لى: بعد أن عملت له طريقًا تحتى تفكّرت، فقلت: ترفعت على الكلب وجعلت نفسى أرفع منه، بل هو والله أرفع منى وأولى بالكرامة؛ لأنى عصيت الله تعالى وأنا كثير الذنوب والكلب لاذنب له فنزلت له عن موضعى وتركته يمشى عليه، وأنا الآن أخاف المقت من الله إلا أن يعفو عنى؛ لأنى رفعت نفسى على من هو خير منّى.

التواضع الحقيقى هو ما كان ناشئا من شهود عظمته وتجلى صفته.

شهود عظمة الله تعالى، وتجلّى صفته هو الذى يوجب للعبد وجود التواضع الذى ذكرناه؛ لأن ذلك هو الذى يخمد النفس ويذيبها ويُبطل أمنيتها؛ فما تجلّى الله تعالى لشىء إلا خضع له، فلا تنقلع من القلب شجرة حبّ الرياسة والكبر إلا به، لا بما يتكلفه العبد ويتعاطاه بنفسه من أعمال وأحوال.

قال الجنيد، رضى الله تعالى عنه: «التواضع عند أهل التوحيد تكبّر».

وقال الشيخ أبو حامد الغزالى، رضى الله تعالى عنه: «ولعل مرادَه: أن المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها، والموحد لايثبت نفسه ولايراها شيئًا حتى يَضَعَها أو يرفعها».

وقال ذو النون المصرى، رضى الله تعالى عنه «مَنْ أراد التواضع فليوجّه نفسه إلى عظمة الله؛ فإنها تذوب وتصغر، ومن نظر إلى سلطان الله تعالى ذهب سلطان نفسه؛ لأن النفوس كلها حقيرة عند هيبته، ومنْ أشرف التواضع أن لاينظر إلى نفسه دون الله تعالى».

وفى كتاب «عوارف المعارف».. «واعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة فى قلبه، فعند ذلك تذوب النفس، وفى ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب فتلين وتنطبع للحق وللخلق بمحو آثارها وسكون وهجها وغليانها.

لايخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف

هذه عبارة مليحةٌ موافقة لمعنى ماتقدم الآن، فالوصف المذكور أولاً وصفُ العبد، والوصف المذكور ثانيًا وصف الرب تبارك وتعالى.

المؤمن يشغله الثناء على الله تعالى عن أن يكون لنفسه شاكرًا وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرًا.

شكرُ النفس رؤيةُ نسبة الأفعال الجميلة والأحوال الحميدة إليها، وذلك ثناء عليها، وهو مضادّ للثناء على الله تعالى وذِكْرُ حظها من اعتقاد أنّ لها حقًّا على مايفعله من الطاعات، وهو مضادّ للقيام بحقوق الله تعالى. فالمؤمن الحقيقى

لايلتفت إلى نفسه فى نسبة شيء من المحاسن إليها، وفى طلب حظّ عليه لها، بل يشغله الثناء على الله تعالى والحرص على توفية حقوقه عن جميع ذلك.

ليس المحب الذى يرجو من محبوبه عوضًا أو يطلب منه غرضًا فإن المحب من يبذل لك ليس المحب أن تبذل له.

المحبة تقتضى من المحب بذل كلياته وجزئياته فى مرضاة محبوبه من غير طلب حظّ يناله منه؛ فهذا مما يلزم وجود المحبة، كما قيل:

إنَّ المحبَّ إذا أحبَّ حبيبه تلقاه يبذل فيه مالا يبذل

بل يرى مافعل من ذلك غايةَ الحظِّ، وموافقةُ رضا محبوبه نهاية السعادة والبخت، كما قال أبو حفص عمر بن الفارض، رحمه الله تعالى:

مالى سوى روحى وباذلُ روحه فى حبِّ من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيت بها فقد أسعفتنى ياخيبة المسعى إذا لم تسعف

ولذلك قيل: المحبة: الإيثارُ، وهو ألَّا يَدَع لمحبوبه ميسورًا إلا بذله، ولا ممكنًا إلا استعمله، ولايبقى لنفسه ولا لحظة نفسا ولاسِمة، ولا يستثنى من كل مابذله له سمسمة، وأنشدوا:

لئن بَقِيَتْ فى العين منّى قطرة فإنى إذن فى العاشقين ذليل[1]

وقال أبو عبد الله القرشى، رضى الله تعالى عنه: «حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببته حتى لا يبقى لك منك شيء».

وقال أبو يعقوب السوسى، رضى الله تعالى عنه: «حقيقة المحبة أن ينسى العبدُ حظّه من الله تعالى وينسى حوائجه إليه».

---

(١) وفى نسخة: دخيل، وفى أخرى: بخيل. . .

وقيل لبعض المحبين، وكان قد بلغ المجهود فى بذل ماله ونفسه حتى لم يبق منه بقية: ماكان سبب حالك هذه فى المحبة؟ فقال: كلمةٌ سمعتها من خلق لخلق عملت فى هذا البلاء!! قيل: وماهى؟ قال: سمعت محبًّا خلا بمحبوبه وهو يقول: أنا والله أحبّك بقلبى كله وأنت تُعْرِض عنى بوجهك كله!!

فقال له المحبوب: إن كنت تحبنى فأى شىء تُنفق علىّ؟ فقال: ياسيدى، أَملكُك ما أملك ثم أنفق عليك روحى حتى أهلك، فقلت: هذا خَلْق لخلقٍ، وعبدٌ لعبدٍ، فكيف بخلق لخالق، وعبدٍ لمعبود؟ فكان هذا سببه، فهذا الذى ذكرناه من لوازم المحبة الحقيقية.

وأما رجاء العِوض وطلبُ الغرض، فهذا حال من مقامه الرجاء، وليس من مقام المحبّة المخصوصة فى شىء. قال الشاعر:

مَن لم يكن بك فانيًا عن حظّه ... وعن الهوى وعن الأنس بالأحباب
فلأنه بين المراتب واقف ... لمنال حظّ أو لحسن مآب

قال آخر:

وما أنا بالباغى على الحبّ رشوةً ... ضعيف هوى يرجو عليه ثوابا

قال أبو محمد رويم: «مَنْ أحبَّ العوض بَغَّض العوض إليه محبوبه»

وقيل: أوحى الله عزّ وجلَّ إلى عيسى، على نبينا وعليه الصلاة والسلام: «إنى إذا اطلعت على قلب عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبّى».

وقال بعض المحبين: «كوشفت بأربعين حوراء رأيتهنَّ يتساعين فى الهواء عليهنَّ ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخشن ويتثنين، فنظرت إليهنَّ نظرة،

فعوقبت أربعين يوما، قال: ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهنَّ فى الحسن والجمال. وقيل لى : انظر إليهنَّ. قال: فسجدت وغمضت عينى فى سجودى لئلا أنظر إليهن، وقلت: أعوذ بك مما سواك لاحاجة لى بهنَّ، فلم أزل أتضرع إلى الله تعالى حتى صرفهنَّ عنّى».

وذكر الشيخ الحافظ أبو نعيم رضى الله عنه قال: «قال «ميسرة» الخادم غزونا فى بعض الغزوات فإذا فتى إلى جانبى، وإذا هو مقنع بالحديد، فحمل على الميمنة حتى ثناها، وعلى الميسرة حتى ثناها، وحمل على القلب حتى ثناه، ثم أنشد يقول:

أحسن بمولاك سعيد ظنا ... هذا الذى كنت له أتمنى
تنحّ ياحور الجنان عنا ... مالك قاتلنا ولا تقتلنا
لكن إلى سيدكنّ اشتقنا ... قد علم السرَّ وما أعلنّا

قال: فحمل، فقاتل حتى قتل منهم عددًا كثيرًا، ثم رجع إلى مصافه فتكالب عليه العدو فإذا هو قد حمل على الناس، وأنشأ يقول:

قد كنت أرجو ورجائى لم يخب ... أن لايضيع اليوم كدّى والطلب
يامن مَلَا تلك القصور باللعب ... لولاك ماطابت ولاطاب الطرب

فحمل وقاتل فقتل منهم عددًا كثيرًا، ثم رجع إلى مصافّه فتكالب عليه العدوّ فحمل الثالثة على الناس، ثم أنشأ يقول:

ياكعبة الخلد قفى ثم اسمعى ... مالك قاتلنا فكفى وارجعى
ثم ارجعى إلى الجنان واسرعى ... لاتطمعى، لاتطمعى، لا تطمعى

فقاتل حتى قُتل، رحمه الله تعالى.

ولأجل ما ذكرناه من اقتضاء مقام المحبة بذل كلية البذل من المحب لزم وقوع الا بتلاءات والمطالبات به حتى يحصل له توفية حقوق هذا المقام على التمام؛ ولهذا قال بعضهم: «أوّل مايقول الله عز وجل للعبد : اطلب العافية والجنة والأعمال وغير ذلك، فإن قال: لا ما أريد إلّا أنت، قال له : من دخل معى فى هذا إنما يدخل بإسقاط الحظوظ، ورفع الحدوث، وثبوت القدم، وذلك يوجب له العدم.

وقال بعض العلماء: «إذا رأيتك تحبه، ورأيته يبتليك فاعلم أنه يريد أن يصافيك».

وقال بعض المريدين لأستاذة: طُولعت بشىء من المحبة، فقال له: «يابنى، هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرته عليه؟! فقال: لا . قال: لاتطمع نفسك فى المحبة؛ فإنه لايعطيها أحدًا حتى يبلوه».

وقال بعض علمائنا، رضى الله عنهم: «كل أهل المقامات يرجون أن يعفو عنهم ويسمح لهم، إلا من ادعى المعرفة والمحبة؛ فإنهم يطلبون بكل شعرة مطالبة، وفى كل حركة وسكون ونظرة وخطوة لله، ومع الله».

وقال ابراهيم بن أدهم، رضى الله تعالى عنه، وكان له مقامات فى المحبة رفيعة: «قلت ذات يوم: يارب، إن كنت أعطيت أحدًا من المحبين لك ماتسكن به قلوبهم قبل لقائك فأعطنى ذلك؛ فقد أضرَّ بى القلق. قال: فرأيت فى النوم أنه أوقفنى بين يديه فقال: يا إبراهيم، أما استحييت منى أن تسألنى مايسكن به قلبك قبل لقائى، وهل يسكن المشتاق دون لقاء حبيبه أم هل يستريح المحب إلى غير معشوقه. قال: فقلت: يارب تُهتُّ فى حبك فلم أدر ما أقول فاغفر لى وعلمنى كيف أقول. فقال: قل اللهم أرضنى بقضائك، وصبرنى على بلائك

وأوزعنى شكر نعمائك» انتهى فللمحبين دقائق خطرات، ولطائف ملاحظات يظهر لهم بذلك الشوق فى صفاء حبهم، والبعد فى مواطن قربهم، فهم يفرّون منها، ويخرجون عنها مخافة أن تسترقّ بشىء من ذلك قلوبهم بأدنى ميل أو مساكنة، فيوجب لهم ذلك السقوط من مقامهم الرفيع الذى أهل لهم وأهلوا له؛ ولذلك قال محمد بن سهل بن عبد الله، رضى الله عنه: «جنايةُ المحب عند الله تعالى أشدُّ من معصية العامى» وهو أن يسكن إلى غير الله أو يستأنس بسواه.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود، على نبينا ﷺ: ياداود، إنى حرمت على القلوب أن يدخلها حبى مع حب غيرى».

ويحكى أن الله تعالى قال لموسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام: «نعم العبدُ «برخ» هولى إلا أن فيه عيبًا. قال: يا رب، وما عيبه؛ قال: يعجبه نسيم الأسحار، فيسكن إليه، ومن أحبَّنى لم يسكن إلى شىء».

ويروى أن عابدًا عبد الله فى غيضة[1] دهرًا طويلًا، فنظر إلى طائر قد عَشَّش فى شجرة يأوى إليها، ويُصَفِّر عندها، فقال: لو حولت مسجدى إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت ذلك الطائر!! قال: ففعل، فأوحى الله إلى نبى ذلك الزمان، قل لفلان العابد استأنست بمخلوق، لأحطّنك درجة لا تنالها منى بشىء من عملك أبدًا.

لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين؛ إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ولا قطيعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك.

---

(١) الغيضة: الأجمة. مجتمع الشجر فى مغيض الماء.

السير إلى الله تعالى هو قطع عقبات النفس ومحو آثارها ودواعيها، وغلبة أحكام طبيعتها وجبلتها حتى تطهر من ذلك، وتحصل لها أهلية القرب من الله تعالى، وتصل إلى سعادة لقائه، ولولا مُعاناةُ هذه الأشياء لم يتحقق السير والسلوك كيف، والحق تعالى أقرب إلى العبد من نفسه، فالبعد الحسى وهو المسافة التى تطويها رحلته، والبعد المعنوى وهي القطيعة التى تمحوها وصلته محالان فى حقه تعالى، لنفى المثلية فى الأول، وعدم العندية فى الثانى.

هذه الألفاظ التى عبّر عنها المؤلف رحمه الله تعالى من: السير، والميادين، والرحلة، والوصلة، وفى معناها: السير، والسلوك، والذهاب والرجوع هى عبارات استعملتها الصوفية فى أمور معنوية تجوزوا بها عن أمور حسيّة، ومرجع جميع ذلك كله إلى علوم ومعاملات يتصف بها العبد لا غير.

وهذا الكلام الذى ذكره المؤلف ها هنا وما تقدم له، ولنا، غير ما مرّة، من أن النفس هى الحجاب الأعظم للعبد عن الله تعالى، وأن بمجاهدتها وقمعها، بموتها، تنال سعادة لقاء الله تعالى صحيحُ المعنى.

قال بعضهم: ما الحياة إلا فى الموت، أى: ما حياة القلب إلّا فى إماتة لنفس.

وقيل: النعمة العظمى الخروج عن النفس؛ لأن النفس أعظم حجاب بينك بين الله تعالى.

وقال سيدى أبو مدين، رضى الله تعالى عنه: «من لم يمت لم ير الحق».

وقال سيدى أبو العباس، رضى الله تعالى عنه: «لا يُدخل على الله إلا من بن: من باب الفناء الأكبر، وهو الموت الطبيعى، ومن باب الفناء الذى تعنيه ه الطائفة».

وعن حاتم الأصمّ، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: من دخل فى مذهبنا هذا فليجعل فى نفسه أربع خصال من الموت: موت أحمر، وموت أسود، وموت أبيض، وموت أخضر، فالموت الأبيض الجوع، والموت الأسود احتمال أذى الناس، والموت الأحمر مخالفةُ النفس، والموت الأخضر طرح الرقاع بعضها على بعض.

وقال سهل بن عبد الله، رضى الله تعالى عنه: «للنفس سرّ ما ظهر ذلك السرّ على أحد من خلقه إلا على فرعون فقال: أنا ربّكم الأعلى، ولها سبعة حجب سماوية، وسبعة حجب أرضية، فكلما يدفن العبد نفسهَ أرضًا أرضًا سما قلبه سماءً سماءً، فإذا دفنت النفس تحت الثرى وصل القلب إلى العرش، يعنى: إذا خالفتها وفارقتها.

وسبيل المريد إلى الوصول إلى موت النفس إنما يكون بتقديم الافتقار والالتجاء والرغبة إلى مولاه فى أن يعينه ويقوّيه على أمر نفسه، ويسهل عليه طريق سلوكه، ويستعمل هذا فى كل حال ووقت، وليجعله عمدته فيما هو بسبيله.

وقد تقدم من كلام المؤلف، رحمه الله [ما توقف مطلب أنت طالبه بربك].

وقال بعض العارفين: لا يمكن الخروج من النفس بالنفس وإنما يكون الخروج من النفس بالله، ثم يشتغل بمراعاة حدود الشريعة والطريقة فى ظاهره وباطنه، والتزام آدابها.

ولكل عبدٍ عملٌ مخصوص يقتضى لا محالة حكمًا مخصوصًا يقوم بحقّه وذلك مختلف باختلاف أحوال الناس، فحركات العبد وسكناته هى أعمال

الظاهرة[١]، ومقصوده، وهمه وإرادته هى أعماله الباطنة. وكل واحد من القسمين ينبغى أن يأخذ فيه بعزائم الأمور ويجتنب الرخص التى هى من شأن العامة والجمهور، حسبما تقدم عند قوله «من جهل المريد أن يسىء الأدب فتؤخر العقوبة عنه».

فعمل الظاهر إن كان واجبًا فليبادر إلى فعله، ولا يتوان عنه. ولْيُقِم بجميع آدابه اللازمة له، ويلتحق بذلك ما كان مندوبًا إليه إذا عُلم فى أى مرتبة هو، وإنما اشترطنا هذا الشرط، لأن المندوبات التى تعترضه يُحتاج فيها إلى تقديم الأَوْلى فالأَوْلى، والأهم فالأهم منها، فإن لم يعمل على هذا وقدم ما ليس بأهم كان متبعًا للهوى، لا لموجب العلم وليأخذ فى ذلك بالقصد من غير إفراط ولا تفريط ولا غلو ولا تقصير، وفى حديث عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ «أكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله تعالى لا يمل حتى تملوا وإن أفضل العمل أدومه وإن قل»[٢].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «إن الدين يسر ولن يُشادّ الدّينَ أحدٌ إلّا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا»[٣].

وإن كان حرامًا فليبادر إلى تركه واجتنابه، وليقطع عن نفسه جميعَ أسبابه ويلتحق بذلك ما يكون مكروهًا.

وإن كان مباحًا فهذا هو محل نظر المريد؛ فعليه أن يأخذ بالعزيمة فيه،

---

(١) وفى نسخة: وتصوره.

(٢) حديث صحيح رواه الإمام أحمد فى مسنده والنسائى عن عائشة رضى الله عنها.

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى وغيره وتكملة الحديث «واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة».

وليقف على حدود الضرورة منه، وليكن اجتنابه لما يشتد ميل النفس إليه، ويعظم حرصها عليه أكثر من اجتنابه لما فقد منه ذلك، ويختلف ذلك باختلاف الأشخاص؛ فربّ شخص تميل نفسه إلى ما لا تميل إليه نفس شخص آخر، فليشتغل المريد بقطع ذلك وزوال علاقته من قلبه بالرياضة والمجاهدة، وليستمر على ذلك حتى يكون وقوفه على مالابدّ منه على وجه الطاعة والقُربة، لا على سبيل الهوى والشهوة.

وفيما يشتدّ ميل نفوس أكثر الناس إليه ما يكون سبب تناوله واستعماله مراعاةُ نظر الخلق، والجرى على عوائدهم السيئة ومراسمهم المذمومة. ومجاهدة النفس فى مثل هذا عسيرة جدًا، لاسيما على من ابتُلى بحبّ الجاه والرياسة وقبول الخلق فى ولاية حكم، أو نشر علم، أو غير ذلك فإنها أشدّ الشهوات علاقة بالقلب وأضرُّها بالمريد؛ فيجب عليه أن يعتنى بذلك، ويبالغ فى تطهير ظاهره وباطنه مما يتعاطاه من أعمال وأحوال، وقد نبهنا على هذا المعنى فى أوّل الكتاب عند قول المؤلف رحمه الله تعالى: [ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه].

ويتعين على المريد فى رياضته ومجاهدته أن يمنع حواسه ويكفّ جوارحه عن التطلّع والجولان فى مظانّ وجدان شهواته وسيىء عاداته، وأن لا يجامعها ولا يتفق معها؛ فإن ذلك منشأ كلّ شرّ، ومنبع كلّ فساد وضُرّ، كما قيل:

إن السلامة من سلمى وجارتها أن لا تمرّ - على حالٍ - بواديها

فليراقب ربّه، وليحفظ جوارحه وقلبه؛ فإن الإنسان قد يتحرك مثلاً فى طلب الخير والعمل من أعمال البرّ فيتفق أن يقع بصره على شيء له فيه هوى وشهوة، فتميل نفسه إليه بالشره والمحبة، فيتكدَّر عليه وقته، ويظلم قلبه،

ويختلّ عليه فى لحظةٍ ما كَابدَ أمرّه فى سنة مثلا، وكذلك سائر حواسه.

وقد شبّه العلماء – رضى الله عنهم – النفس فى مثل هذا بداية استعارها رجل من ربّها ومالكها ليتصرف بها فى حاجاته، وكانت دابة جموحة صعبة المراس، فجاز بها المستعير فى بعض تصرفاته على دار مولاها فنزعت إلى دار سيّدها، فإنه لا محالة – يحتاج إلى صرف عنانها[١]، فإن تقاعست[٢] ضربها بالسوط والعصا حتى يصرفها بذلك عما نزعت إليه، وقد يكون عليه فى ذلك تعب ومؤونة، وسبب ذلك إنما هو خطوره بها على دار مولاها الذى ألفته واعتادته، ولو لم يمر بها عليه لسلم، ولم يحتج إلى معاناة ولا مكابدة، فإن تغافل عنها حتى أدخلت يديها فى عتبة الباب واستمكنت منها، ثم أراد منعها من الدخول لم تطعه بوجهٍ، بل اقتحمت به الدار كُرها، وربّما جرحت رأسه وآلمته، وسبب ذلك إنما هو تمكينها من العمل بمقتضى طبيعتها، وموافقة جبلّتها، فكذلك حال النفس، قال:

فالنفس إن أعطيتها هَواها فاغرةٌ نحو هواها فَاهـا

فلذلك كانت الخلوة والعزلة من أوجب الواجبات على المريد، فإنّ نفسه إذ ذاك تكون ساكنة هادئة قد نسيت عوائدها وفترت دواعيها، وبمداومته على ذلك يحصل له من: التزكية، والتخلية، والاستقامة، والطمأنينة ما هو المقصود بالرياضة والمجاهدة، فإن اعتراه شىء مما ذكرناه اختل عليه حاله واحتاج من جل ذلك إلى المجاهدة الشاقة والرياضة الصعبة، وأنّى له مع ذلك تلافى ما فاته!! وقد قالوا «وقفة المريد شرٌّ من فترته».

---

(١) لجامها وقيادها.

(٢) تبطأت.

قال الإمام أبو القاسم القشيرى[١]، رضى الله تعالى عنه: والفرق بين الوقفة والفترة أن الفترة رجوع عن الإرادة، وخروجٌ منها، والوقفة خروج[٢] عن السير باستحلاء حالات الكسل، وكلُّ مريد وقف فى ابتداء إرادته لا يجىء منه شىء» انتهى كلامه رحمه الله.

فبدايات الأمور هى التى يجب أن يراعيها المريدُ، والله ولى التوفيق والتسديد.

ولا غنى للمريد فى هذا القسم عن تحصيل ما يحتاج إليه من العلوم الشرعية على ما ينبغى.

وعمل الباطن يرجع حاصله إلى أمر واحد وهو إخلاص التوحيد لله عزّ وجلّ باعتقاد العبودية له، وذلك بأن يحمل نفسه على الاستسلام لأحكام الله تعالى، وترك المنازعة والتدبير والاختيار بين يديه.

وهذا المعنى هو الذى ضمنه المؤلف رحمه الله تعالى فى كتابه «التنوير فى إسقاط التدبير» فليستعن المريد على ذلك به ولا يقصد برياضته ومجاهدته التوصُّل إلى شىء من الكرامات وخرق العوائد وأنواع الإجابات؛ فإن ذلك فتنة وبليّة قاطعة عليه طريق العبودية.

قال أبو عثمان المغربى، رضى الله عنه: «من اختار الخلوة على الصحبة ينبغى أن يكون خاليًا من جميع الأذكار إلّا ذكر ربّه، وخاليًا من جميع الإرادات إلّا رضا ربّه، وخاليًا من مطالبة النفس من جميع الأسباب، وإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه فى فتنة أو بلية».

---

(١) انظر الرسالة القشيرية جـ٢ ص٧٣٧ نشر دار الكتب الحديثة.

(٢) وفى القشيرية: (والوقفة سكون السير.... الخ).

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشى، رضى الله عنه: «من عمل ليجد أو يرى لم يفتح له بشىء حتى يكون قصده تحقيق العبودية والقيام بما يجب عليه من حقوق الربوبية».

قال صاحب كتاب «عوارف المعارف»: «من دخل الخلوة مُعْتلًا فى دخوله دخل عليه الشيطان وسوّل له أنواع الطغيان وامتلأ من الغرور والمحال[١] وظنَّ أنه حصل على حُسن الحال». قال: وقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها وأقبلوا على ذكر من الأذكار واستجمعوا نفوسهم بالعُزْلة عن الخلق، ومنعوا الشواغل من الحواس كفعل الرهاب، والبراهمة، والفلاسفة والوحدة فى جمع الهمّ لها تأثير فى صفاء الباطن مطلقًا، فكل ما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله ﷺ أنتج تنوير القلب والزهد فى الدنيا وحلاوة الذكر، والمعاملة لله بالإخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك.

وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة رسول الله ﷺ ينتج صفاء فى النفس يستعان به على اكتساب علوم رياضية مما يَعتَنى به الفلاسفة والدهريون، وكلما أكثر من ذلك كثر البعد من الله تعالى. ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية، أو بما قد يتراءى له من صدق الخاطر وغير ذلك حتى يركن إليه كل الركون ويظنّ أنه قد فاز بالمقصود من الخلوة، ولا يعلم أن هذا الفنّ من الفائدة غير ممنوع من النصارى والبراهمة وليست هى المقصودة من الخلوة؛ لقول بعضهم «الحقُّ يطلب منك الاستقامة وأنت تطالبه بالكرامة».

---

(١) المحال (بكسر الميم) العذاب والعقاب.

وقد يَفتح على الصادقين بشيء من خرق العادات وصدق الفراسة وتبيّن ما سيحدث فى المستقبل، وقد لا يفتح عليهم ذلك، ولا يقدح فى حالهم عدم ذلك، وإنما يقدح فى حالهم الانحراف عن حدّ الاستقامة.

وما يفتح من ذلك على الصادقين يصير سبب مزيد انتفاعهم والداعى لهم إلى صدق المجاهدة والمعاملة والزهد فى الدنيا والتخلق بالأخلاق الحميدة.

وما يفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سببًا لمزيد بُعده، وغروره، وحماقته، واستطالته على الناس، وازدرائه بالخلق، ولا يزال به حتى يخلع ربقة[1] الإسلام من عنقه، وينكر الحدود والأحكام، والحلال والحرام، ويظنّ أن المقصود من العبادات ذكر الله تعالى وترك متابعة الرسول، ثم يتدرج من ذلك إلى الإلحاد والزندقة، نعوذ بالله من الضلال.

وقد يلوح لأقوام خيالاتٌ يظنونها وقائع ويسمّونها بوقائع المشايخ من غير علم بحقيقة ذلك» انتهى كلامه رحمه الله وهو فى غاية الحسن ونهاية التحقيق، فبمداومة العبد على مثل هذه الأساليب التى ذكرناها، مشاهِدًا لتوفيق ربّه عز وجل، وتأييده له يحصل له من الله مزيد كثير، وعند ذلك يتطهّر باطنه من جميع الآفات وخبائث الصفات، وتستنير سَريرتهُ بأنوار المكاشفات والملاطفات، وقد عبّر الإمام أبو القاسم القشيرى، رضى الله عنه، عن طريق موت النفس بعبارات صحيحة مليحة فقال: «قتل النفس فى الحقيقة: التبرّى من حَولها وقوّتها، أو شهود شيء منها وردّ دواعيها إليها، وتشويش تدبيرها عليها، وتسليم الأمور إلى الحق سبحانه بجملتها، وانسلاخها من اختيارها وإرادتها،

---

(١) الربقة: العروة فى الحبل، والمراد بالربقة هنا عقد الإسلام.

وانمحاء آثار بشريتها عنها، فأمّا بقاء الرسوم والهياكل فلا خطر لها، ولا عبرة» انتهى.

فهذه هى السبيل إلى موت النفس المفضى إلى حضرة القدس؛ لكونه جاريًا على مقتضى الشريعة والحقيقة اللتين بأنوارهما يهتدى كل سالك ومريد.

ولابدّ للمريد فى هذه الطريقة من صحبة شيخ محقق مرشد قد فرغ من تهذيب نفسه، وتخلّص من هواه، فليسلِّم نفسه إليه وليلتزم طاعته والانقيادَ إليه فى كلّ ما يشير به عليه، من غير ارتياب ولا تأويل ولا تردد؛ فقد قالوا: من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه.

وقد قال أبو على الثقفى، رضى الله تعالى عنه: لو أن رجلا جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام، أو مؤدِّب ناصح، ومن لم يأخذ أدَبه من أمرٍ له وناهٍ يُرويه عيوبَ نفسه ورعوناتِ أعماله لا يجوز الاقتداء به فى تصحيح المعاملات».

وقال سيدى أبو مدين، رضى الله تعالى عنه،: «من لم يأخذ الأدب من المتأدبين أفسد من يتبعه».

وقال المؤلف - رحمه الله - فى «لطائف المنن»: «إنما يكون الاقتداء بولىّ دلّك الله عليه، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه، فطوى عنك شهودَ بشريته فى وجود خصوصيته، فألقيت إليه القياد، فسلك بك سبيل الرشاد، يعرِّفك برعونات نفسك فى كمائنها ودقائقها، ويدلّك على الجمع على الله، ويعلّمك الفرار عمّا سوى الله، ويسايرك فى طريقك حتى تصل إلى الله، يوفقك على إساءة نفسك، ويعرِّفك بإحسان الله إليك، فيفيدك معرفةُ إساءة نفسك الهربَ عنها، وعدمَ الركون إليها، ويفيدك العلمُ بإحسان الله إليك الإقبال

عليه، والقيامَ بالشكر إليه، والدوامَ على ممرّ الساعات بين يديه. قال: فإن قلت: فأين مَن هذا وصفه؟! لقد دللتنى على أغرب من عَنقاء مُغْرِب!![١] فاعلم أنه لا يُعْوزك وجدانُ الدالين، وإنما يُعوزك وجدان الصدق فى طلبهم. جِدَّ صدقًا تَجِدْ مُرشدًا، وتجد ذلك فى آيتين من كتاب الله تعالى قال الله سبحانه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[٢] وقال سبحانه: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾[٣] فلو اضطررت إلى مَن يوصلك إلى الله اضطرار الظمآن إلى الماء، والخائف إلى الأمن لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبك، ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته لوجدت الحقّ منك قريبًا، ولك مجيبًا، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك ولتوجّه الحق بتيسير ذلك عليك» انتهى.

وفى كلامه رحمه الله تنبيه على أن الشيخ مِن مِنَح الله وهداياه للعبد المريد الصادق إذا صدق فى إرادته، وبذل فى مناصحة مولاه جهد استطاعته لا على ما قد يتوهمه من لا علم عنده، وعند ذلك يوفقه الله تعالى لاستعمال الأدب معه لِما أشهده من عالى مرتبته ورفيع درجته.

قال سيدى أبو مدين: «الشيخ من شهدتْ له ذاتُك بالتقديم، وسرّك بالتعظيم، الشيخ من هذبك بأخلاقه وأدّبك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه، الشيخ من جمعك فى حضوره وحفظك فى مغيبه».

وقال المؤلف، رحمه الله، فى «لطائف المنن»: «وليس شيخك من سمعت منه، إنما شيخك من أخذتَ عنه، وليس شيخك من واجهتك عبارته إنما شيخك

---

(١) عنقاء مغرب: طائر مجهول الجسم لم يوجد.

(٢) آية ٦٢ من سورة النمل. (٣) من آية ٢١ من سورة: محمد.

الذى أثرت فيك إشارته، وليس شيخك من دعاك إلى الباب، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب، وليس شيخك من واجهك مقاله إنما شيخك الذى نهض بك حاله، شخك هو الذى أخرجك من سجن الهوى ودخل بك على المولى، شيخك هو الذى مازال يجلو مرآة قلبك حتى تحلّت فيه أنوار ربك، نهض بك إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، ولازال محاذيًا لك حتى ألقاك بين يديه فزجّ بك فى أنوار الحضرة وقال: ها أنت وربّك». انتهى.

وآداب المريد مع الشيخ، والشيخ مع المريد كثيرة مذكورة فى كتب الأئمة الصوفية رضى الله عنهم، ومن أبلغ ذلك وأوجزه ماذكره الإمام أبو القاسم القشيرى، رضى الله تعالى عنه، قال: «فشروط المريد ألّا يتنفس نَفَسًا إلا بإذن شيخه، ومن خالف شيخه فى نَفَسه سرًا أو جهرًا فسوف يرى غِبَّه من غير مايحبه سريعًا، ومخالفة الشيوخ فيما يسرّونه منهم أشد مما يكابدونه بالجهر وأكثر، لأن هذا يلتحق بالخيانة، ومن خالف شيخه لم يشم رائحة الصدق، فإن برز منه شىء من ذلك فعليه بسرعة الاعتذار والإفصاح عمّا حصل منه من المخالفة والخيانة ليهديه شيخه إلى ما فيه كفّارة جُرْمِه، ويلتزم فى الغرامة ما يحكم به عليه، فإذا رجع المريد إلى شيخه بالصدق وجب على شيخه جبران تقصيره بهمته؛ فإن المريدين عيالٌ على شيوخهم، فُرِضَ عليهم أن ينفقوا من قوت أحوالهم مايكون جبرانًا لتقصيرهم» انتهى.

وقال الشيخ العارف محيى الدين أبو العباس البونى، رحمه الله تعالى، إياك أن تحقر فعلًا يخطر لك ألّا تلقيه إلى الشيخ طاعة كان أو معصية على أىّ نوع برز لك، ولو اختلف عليك ألفَ مرة فى ساعة اختلف إليه ألف ساعة فى الخاطر ليعلمك الدواء الذى تزعجه به، ويحمل عنك همَّه، قال «ولقد رأيت تلميذا من أصحاب شيخنا الإمام تاج العارفين أبى محمد عبد العزيز بن أبى بكر القرشى

المهدوى، رحمه الله تعالى، وكنت جالسا عنده فدخل عليه فقير وفى يده «باقلاة»[١] فقال له : ياسيدى، إنى وجدت هذه الباقلاة، فما أصنع بها؟ فقال له: اتركها حتى نفطر عليها. فقلت ياسيدى حتى الباقلاة يعلم بها!! قال: ياولدى، لو خالفنى فى لحظة من خطراته لم يفلح أبدًا».

فإذا جُوهدت النفس بهذه المجاهدات وقوتلت بهذه المقاتلات[٢] رجعت عن جميع مألوفاتها الدنيئة وعاداتها الرديئة، وزال عنها النفور والاستكبار، ودانت لمولاها بالعبودية والافتقار، وتزكت أعمالها وصفت أحوالها، وهذه هى خاصيتها التى خلقت لأجلها، ومزيَّتها التى شرفت من قبلها، وإنما ألفت سوى هذه لمرضّ أصابها من الركون إلى هذا العالم الأدنى، والأنس بالشهوات التى تزول وتفنى، حتى امتنع عليها ماخلقت لأجله من موجب سعادتها وغاية شرفها وإفادتها، فلما تعالجت بما ذكرناه عادت إلى الصحة وإلى طبعها الأصلى فألفت العبودية والتزمتها وصارت بذلك مطمئنة صالحة لأن يقال لها ﴿يَأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلَى رَبِكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِى فِى عِبَادِى وَادْخُلِى جَنَّتِى﴾[٣]

قال الشيخ العارف أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله تعالى عنه: «النفس المطمئنة هى التى تخلصت من السوء ولم يبق بينها وبين السوء نسبة، وكانت مبادئها فى الاكتساب: الايمان، والرضا المكتسب، فلما صفت وتطهرت من جهة المخلوقات وزال عنها الحجاب الذى هو صفة الخلق سمعت النداء من مكان قريب فأجابت لعدم الحجاب، فخرجت للمواهب والرضا الوضعى الوهبى الذى قال الله فيه: ﴿رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[٤] فدخلت فى رضا

---

(١) الباقلاء: الفول

(٢) وفى نسخة: وقوبلت بهذه المقابلات

(٣) من آية ٢٨ من سورة الفجر

(٤) من آية ١١٩ سورة: المائدة.

الله المطلوب الموهوب، وفى عباده، وجنته، لا فى جنّتها بوصف كسبها وأعمالها) انتهى.

وعلامةُ وصولِ المريد إلى هذا المقام الحميد أن تستوى عنده الأحوال، ويتأثر باطنه بما يواجه به من قبيح الأفعال والأقوال؛ لا ستغراق قلبه فى مطالعة حضرة الكمال.

قال أبو عثمان الحيرى، رضى الله تعالى عنه،: «لا يكمل الرجل حتى يستوى قلبه فى أربعة أشياء، فى المنع والعطاء، والعز والذلّ» وقال محمد بن حنيف، رضى الله عنه،: «قدم علينا بعض أصحابنا فاعتلّ، وكان به علة بالبطن» فكنت أخدمه، وآخذ منه الطشت طول مرضه. فَغَفَوتُ مرّة، فقال لى: نمت، لعنك الله. فقيل لى : كيف وجدت نفسك عند قوله «لعنك الله» فقلت: كقوله: «رحمك الله».

وحكى عن إبراهيم بن أدهم، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: «ما سررت فى الإسلام إلا مرّات معدودات، كنت فى مركب يومًا، وكان به رجل يحكى الحكايات المضحكة، فيضحك منه الناس، وكان يقول: رأيت وقتًا فى معركة الترك «عِلجًا[1]» فقلت هكذا وكان يأخذ بلحيتى، ويمر يده على حلقى هكذا، والناس يضحكون منه، ولم يكن فى ذلك المركب عنده أحد أصغر منى ولا أحقر، فسررت بذلك، وكان يومٌ آخر، كنت جالسًا، فجاء إنسان وصفعنى من غير سبب ويوم آخر كنت جالسًا فجاء إنسان «وبال علىَّ» وكان فى وقت حاتم الأصم، رضى الله عنه، رجل يُسيء القول فيه، وفى أصحابه، ويواجههم

---

(١) العلج (بكسر العين) حمار الوحش القوى، والرجل الضخم القوى من كفار العجم، ولعل المراد معنا هنا هو المعنى الأول.

كلَّ يوم بالقبيح، فوقع عليه جذع من السقف فى بعض الأيام فى حال مواجهته القوم بالسبّ والشتم فمات، فقال حاتم: الحمد لله. فقيل له: هذا خلاف ما تأمرنا به! فقال: ماحمدتُ الله شماته بموته، بل حمدت الله إذ لم أسرّ بنكبته».

هذا وأشباهه من أحوالهم معلوم ضرورة. وأبلغ من هذا كله محبّة الموت وكراهيةُ البقاء فى الدنيا؛ شوقًا إلى لقاء المولى، قال بعضهم: «حقيقة زوال الهوى من القلب حبُّ لقاء الله تعالى فى كلّ نَفَس من غير اختيار حالة يكون المرء عليها فإذا وجد المريد هذه العلامات فى نفسه فقد خرج من عالم حسِّه ووصل إلى حضرة قدسه وكان كما قال الشاعر:

لك الدهر طوعٌ والأنامُ عبيدُ ... فَعش كلَّ يوم من زمانك عيد

وكما قال سيدى أبو العباس العريف، رضى الله تعالى عنه فى هذا المعنى:

بدا لك سرٌّ طال عنك اكتتامُه ... ولاح صباح كنت أنت ظلامه
فأنت حجاب القلب عن سرّ عيبه ... ولولاك لم يُطلب عليه ختامه
فإن غبت عنه حلَّ فيه وطنبت[1] ... على موكب الكشف المصون خيامُه
وجاء حديث لأُيملّ سماعُه ... شَهِيٌّ إلينا نشره ونظامه
إذا سمعته النفس طاب نعيمها ... وزال عن القلب المعنَّى غرامه

وأنشدوا فى معناه أيضا رضى الله عنهم أجمعين:

قولى لآمالى ألا فابعدى ... قد أنجز الأحبابُ لِى موعدى

---

(١) الطنب (بضمتين) الحبل تشد به الخيمة ونحوها. وطنبت خيامه. شدت حبال الخيام:

قد كنت قبل اليوم مستأنسًا منك بخلٍّ مشفق مُسْعِدِ
إذا نسيم الوصل من نحوهم هبّ فلى عندك ظل ندى
وحيث إن لاحت لى أعلامهم فليس لى فقر إلى مرشدى

وإن لم يجدها فى نفسه فليستمر على سلوكه ومجاهداته، ولا يغتر بما قد يتراءى له من سنىّ حالته؛ فإنه لم يصل بعد، ولم يحصل له من هوى نفسه فقد، وليس طريق موت النفس يقطع جميع الأرفاق[1] عنها، وردها إلى الاجتزاء بالخشن والنخالة والمبالغة فى التقشف، والتقلل مع قطع النظر عن أحوال القلب، وهمه، وقصوره وإراداته، وترك الالتفات إلى ما يحمد منها وما يذمّ فذلك كلّه غلوّ وبدعة، وقد غلط فى ذلك طوائف من الناس عملوا عليه فى رياضاتهم ومجاهداتهم، ولم يقصدوا بذلك إخلاص العبودية لربّهم، فأدّاهم ذلك إلى اختلال عقولهم، وانحلال قوى أبدانهم ولم يحصلوا من أمرهم على فائدة، ذلك لجهلهم بالسنة وما كان عليه سلف هذه الأمة.

جعلك فى العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته وأنك جوهرة تنطوى عليك أصداف مكوناته.

خلق الله تعالى الإنسان فى أحسن تقويم، وأتم تسوية وتعديل، وجعل بِنْيَته متضمنةً أسرارَ جميع الموجودات علويها، وسفْليِّها، لطيفها وكثيفها، فصار لذلك روحانيًا جسمانيًا أرضيًا سماويًا؛ ولذلك يقال له « العالَم الأصغر » وهذا هو الذى يظهر لى فى معنى جعله فى العالم المتوسط بين عالم الملك وعالم الملكوت.

وعالم الملك هو عالم الشهادة. وعالم الملكوت هو عالم الغيب. فلا جرم لَمَّا

---

(١) الاعطيات والمنافع. يقال أرفقه أى نفعه، وارتفقت بالشىء انتفعت به.

كان الإنسان بهذه المثابة من كونه نُخْبَةَ جميع الموجودات الجسمانيات والروحانيات كانت الأكوان كُلُّها له باعتبار إحاطتها به وحفظها له بمنزلة القشر والصوان الذى يحفظ الشىء ويصونه، وكان هو بمنزلة الجوهرة النفيسة التى تحويها الصَدَفة.

والمقصودُ من هذا أن يعرف الإنسان جلالة قدره، وفخامة أمره فيعلو بهمته إلى المراتب السامية اللائقة به، وذلك بإخلاص العبودية لرّبه عزّ وجلّ، وقطع النظر عن كلّ ماسواه وينظر فى هذا المعنى إلى ما قاله الشاعر:

إذا كنتَ كُرسيًا وعرشًا وجَنَّةً ... ونـارًا وأفـلاكًـا وأحـلاكـا
وكنت من السرّ المصون سريرة ... وأدركت هذا بالحقيقـة إدراكا
ففيم التأبِّى فى الحضيض تثبطا ... مقيما مع الأسرى أما حان إسراكا

كان الشيخ أبو العباس المرسى، رضى عنه، يقول: «الأكوان كلّها عبيد مسخرة لك، وأنت عبد الحضرة».

وقد ورد فى بعض الكتب المنزلة: «يا ابن آدم أنا بُدُّك اللازم فالزم بدك»

وفى بعض الآثار المرويةّ عن الله عزّ وجلّ: «يا ابن آدم خلقت الأشياء كلّها من أجلك، وخلقتك من أجلى، فلا تشتغل بما هو لك عن ما أنت له».

وقال الواسطى، رحمه الله تعالى، فى معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَد كَرَّمْنَا بَنِي آدمَ﴾[1] قال: بأن سخرنا لهم الكون ومافيه؛ لئلا يكونوا فى تسخير شىء، ويتفرغوا إلى عبادة ربّهم».

---

(١) من آية ٧٠ من سورة الإسراء.

إنما وسعك الكون من حيث جسمانيتك ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك.

إنما وسعك الكون من حيث جسمانيتك لوجود المناسبة والمجانسة، وَوُسْعُه لك، باعتبار ماذكرناه، إنما هو باكتفائك به، وقضاء أوطارك منه، ووقوف أملك فى نيل حاجاتك عليه. ولا خاصيَّة لك فى ذلك أيها الإنسان؛ لأن مرتبتك أجلّ من ذلك.

وإنما لم يسعك من حيث ثبوتُ روحانيتك؛ لعدم المناسبة، فلا يسعك حينئذ ولا يناسبك إلاّ بالتعلّق بالمكونّ، وهذه هى خاصيتُك التى فيها سُمُوُّك وعُلُوّك ورفعة قدرك، فَلِم تُهملها وتنحط منها إلى أسفل سافلين!!

قال أبو عبد الله بن الجلاء، رضى الله تعالى عنه: «من عَلَت همته عن الأكوان وصل إلى مكونّها، ومن وقف بهمته على شىء سوى الحق فاته الحق لأنه أعزّ من أن يرضى معه شريكا».

وسئل أحمد بن خضرويه عن أىّ الأعمال أفضل؟ فقال: رعاية السرّ عن الالتفات إلى شىء سوى الله».

الكائن فى الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون الغيوب مسجون بمحيطاته ومحصور فى هيكل ذاته.

فمن لازَمَ الكونَ، وبقى معه، وقصر همته عليه، ولم تفتح له ميادين الغيوب الملكوتية، ولاخَلَص سيره[1] إلى فضاء مشاهدة الوحدانية فهو مسجون بمحيطاته، ومحصور فى هيكل ذاته، وهذه هى صفات أصحاب النار كما قال

---

(١) وفى نسخة: بسره.

الله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾[١] وليس فى جهنم عذاب أعظم من السجن والحصر والضيق والقَهر، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[٢] وما ذكرناه هو حال من بقى مع نفسه، وعمل على نيل حظه كائنًا ماكان.

وفى بعض الآثار المروية عن الله عزّ وجلّ: (عبدى: اجعلنى مكان همك أكْفِك كلَّ هم. ما كنتَ بك فأنت فى محل البعد، وما كنت بى فأنت فى محل القرب؛ فاختر لنفسك).

أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون فإذا شهدته كانت الأكوان معك

فرق بين كونك مع الأكوان وكون الأكوان معك؛ فإن كونك مع الأكوان يقتضى تقييدك بها، وحاجتك إليها، فأنت بذلك عبد لها، ثم هى خاذلتك، ومُسْلِمتك أحوج ماتكون إليها. وهذه حالة خسيسة يقتضيها عدم شهودك للمكوِّن، وكونُ الأكوان معك يقتضى مِلكك لها، واستغناءك عنها، فأنت حينئذ حرٌّ عنها، وهى محتاجة إليك، وخادمة لك، ومتبركة بك، حتى الجمادات والحيوانات.

وقال الشبلى، رضى الله عنه: «ليس يَخْطُر الكون ببال من عرف المكوِّن». وهذه حالة نفيسة يقتضيها شهودك للمكوِّن.

قال بعض المشايخ، رضى الله عنهم: «أنا أدخل السوق والأشياء تشتاق إلىّ، وأنا عن جميعها حرّ».

---

(١) من آية ٢٩ سورة الكهف.

(٢) من آية ١٣ سورة الفرقان.

وعن المزيّن الكبير، رضى الله تعالى عنه، قال: كنت مع إبراهيم الخوّاص فى بعض أسفاره فإذا عقربٌ تسعى على فخذه، فقمت لأقتلها، فمنعنى، وقال: دعها كل شىء مفتقر إلينا، ولسنا مفتقرين إلى شىء».

وقال محمد بن المبارك الصوفى، رحمه الله تعالى: «كنت مع إبراهيم بن أدهم فى طريق بيت المقدس، فنزلنا فى وقت القائلة تحت شجرة رمان، فصلينا ركعتين، فسمعت صوتًا من أصل شجرة الرّمان: يا أبا إسحاق أكرمنا بأن تأكل منا شيئًا. فطأطأ إبراهيم رأسه. فقال ذلك ثلاث مرات، ثم قال: يا محمد كن شفيعًا إليه؛ ليتناول منا شيئا. فقلت: يا أبا اسحق لقد سمعت.. فقام، فأخذ منها رمانتين، فأكل واحدة وناولنى الأخرى، فأكلتها.

وفى غير هذه الحكاية أن الشجرة كانت قصيرة، ورمانها حامض، وأنها تُطعم فى كل عام مرَّة، فَعلَت، وارتفعت وحلا رّمانها، وصارت تُطْعم فى كل عام مرتين».

وكانت السباع تجىء إلى سهل بن عبد الله رضى الله تعالى عنه، فيدخلهم بيتا عنده، ويضيفهم، ويطعمهم اللحم.

وقال إبراهيم الخواص، رضى الله تعالى عنه،: «كنت فى البداية مرّة، فسرت فى وسط النهار، فوصلت إلى شجرة، بالقرب منها ماء فنزلت، فإذا أنا بسبع عظيم قد أقبل، فلما قرب منى إذا هو يعرج، فحمحم، وبرك بين يدى، ووضع يده فى حجرى، فنظرت فإذا يده منتفخة فيها قيح ودمّ، فأخذت خشبة وشققت الموضع الذى فيه القيح، ومسحته، وشددت على يده خرقة فمضى؛ فإذا أنا به بعد ساعة جاء ومعه شبلان يبصبصان[1] لى، وحمل إلى رغيفًا».

---

(١) يحركان ذنبهما.

وقال بعضهم: أشرفت على إبراهيم بن أدهم وهو فى بستان يحفظه، وقد أخذه النوم، وإذا حيّة فى فمها طاقة نرجس تروحه بها.

وحكى عن أبى اسحق الصعلوكى، ورحمه الله تعالى، قال: خرجت مرّة إلى الحج، فبينما أنا فى البادية إذ تُهت، فلما جَنَّ الليلُ علىّ وكانت ليلة قمراء، فسمعت صوت شخص ضعيف يقول: يا أبا إسحق، قد انتظرتك من الغداة، فدنوتُ منه، فإذا هو شاب نحيف قد أشرف على الموت وحوله رباحين كثيرة، منها ماعرفته، ومنها مالم أعرفه، فقلت: من أين أنت؟ فقال: من مدينة «سميساط» كنت فى عز وثروة، فطالبتنى نفسى بالعزلة، فخرجت وقد أشرفت على الموت فسألت الله تعالى أن يُقَيِّض لى وليًا من أوليائه، فأرجو أنك هو، قال: فقلت له: ألك والدان؟ قال: نعم، وإخوة وأخوات، قلت: هل اشتقت إليهم، وإلى ذكرهم؟ فقال لا، إلا اليوم أردت أن أشتم ريحهم فاحتوشتنى[1] السباع والبهائم وبكين معى وحملن إلى هذه الرياحين، قال: فبينما أنا فى تلك الحالة يرقّ قلبى له إذا بحية أقبلت فى فمها طاقة نرجس فقالت: دع شرّك عنه؛ فإن الله تعالى يغار على أوليائه. قال: فغشى علىّ فما أفقتُ حتى خرجتْ نفسه، رحمة الله تعالى عليه ورضوانه، ثم وقع علىّ سنات من النوم فانتبهتُ وأنا على الجادة قال: فدخلت مدينة «سميساط» بعدما حججت فاستقبلتنى امرأة فما رأيت أشبه بالشاب منها، فلما رأتنى قالت: يا أبا إسحق كيف رأيت الشاب؛ فإنى أنتظرك منذ ثلاث. فذكرت لها القصة إلى أن قلت: قال أردت أن أشم ريحهم فصاحت، وقالت: آه بلغ الشَّمُّ الشمَّ. وخرجتْ نفسُها أترابٌ لها عليهن المرقعات والفوط، فتكفلن أمرها، وتولين شأنها. رضى الله عنهم أجمعين».

---

(١) اجتمعن حولى.

فهكذا حال من يكون عظيم الهمة، شريف الإرادة والنية، لا يساكن أحدًا من المخلوقات، ولا يوطن نفسه على شيء من المصنوعات فيتكفل الله تعالى بأمره، ويجعل الكون خادمًا له بأسره، رزقنا الله تعالى وإياكم مارزقهم، وفقنا، كما وفقهم بجوده وكرمه.

لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية، إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار ظهرت فى الأفق وليست منه تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك، وتارة يقبض ذلك عنك فيردّك إلى حدودك، فالنهار ليس منك إليك، ولكنه وارد عليك.

ثبوت الخصوصية للعبد لا يلزم منه عدم وصف البشرية، لأن الوصف البشرىَّ أمرٌ ذاتى، لازم للعبد. والأمور الذاتية اللازمة يستحيل عدمها وانقلابها، وإنما اللازم من ذلك عدمُ غلبة أحكام ذلك الوصْف على العبد فقط لأجل الوارد الغالب فإن قُدِّر ذهابُ هذا الوارد الغالب بقى وصف البشرية غالبًا قاهرًا، وكان العبد فى يديه أسيرًا.

ومثال ذلك من المحسوسات إشراق شمس النهار على الآفاق المظلمة لتزيل آثار ظلمانيتها، فتستنير بذلك وتشرق، فإذا غابت الشمس رجعت إلى حالها من الظلمة؛ لأن النور ليس بذاتى لها، وهو معنى قوله (وليست منه) ومعنى الخصوصية المذكورة هو: ما يخصّ الحق تعالى به أولياءَه من ظهور أوصافه العلية، ونعوته القدسية عليهم؛ ليغطى بذلك أوصاف نفوسهم الدنيئة الرديئة عنهم؛ لئلا تظهر آثار كدوراتها فى صفاء أوقاتهم، كما تقدم من قوله: (إذا أراد أن يوصلك إليه ستر وصفك بوصفه، وغطى نعتك بنعته؛ فإذا أشرقت أنوار ذلك الوارد على ليل وجودهم ذهبت بظلمات نفوسهم، وبقوا فى نهار الوصلة

والقُربة، من غير حول منهم ولاقوّة) وهو معنى قوله (فالنهار ليس منك إليك) وإن غابت عنهم تلك الأنوار المشرقة رجعوا إلى أصلهم ولزموا الوقوف على حدّهم، وكانوا فى ليل القطيعة والحجبة كما كانوا قبل ذلك.

والغرضُ من هذا: الرد على طوائفَ غلَطت فى هذا الأمر، وتغالت، وزعمت أن القرب من الله تعالى والوصول إليه إنما يكون بعدم أوصاف البشرية وزوالها بالكلية، واتصافه بصفات الربوبية بدلاً منها، وفسرت بهذا ما عبّر به المشايخ من «الفناء» و «البقاء» فوقعوا من ذلك فى ضلال وتزندق. نعوذ بالله من ذلك. والمعنى الصحيح من ذلك إما هو ما ذكره المؤلف، رحمه الله تعالى، ورضى عنه، ها هنا.

دل بوجود آثاره على وجود أسمائه، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه، وبثبوت أوصافه على وجود ذاته، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه.

فأرباب الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته، ثم يردهم إلى شهود صفاته، ثم يرجعهم إلى التعلق بأسمائه، ثم يردهم إلى شهود آثاره.

والسالكون على عكس هذا.

نهاية السالكين بداية المجذوبين.

وبداية السالكين نهاية المجذوبين.

ولكن لا بمعنى واحد، فربما التقيا فى الطريق هذا فى ترقيه، وهذا فى تدليه.

عباد الله المخصوصون بالقرب منه، والوصل إليه ينقسمون إلى قسمين: سالكين ومجذوبين.

فشأن السالكين الاستدلال بالأشياء عليه، وهم الذين يقولون ما رأينا شيئا إلا ورأينا الله بعده.

وشأن المجذوبين الاستدلالُ به على الأشياء، وهم الذين يقولون ما رأينا شيئًا إلا رأينا الله قبله.

ولا شك أن الدليل أبدًا أظهر من المدلول. فأول ما ظهر للسالكين الآثار، وهى الأفعال، فاستدلوا بها على الأسماء، وبالأسماء على الصفات، وبالصفات على وجود الذات، فكان حالهم الترقى والصعود من أسفل إلى أعلى.

وأول ما ظهر للمجذوبين حقيقة كمال الذات المقدسة، ثم ردّوا منها إلى مشاهدة الصفات، ثم رجعوا إلى التعلق بالأسماء ثم أنزلوا إلى شهود الآثار، فكان حالهم التدلى والتنزل من أعلى إلى أسفل.

فما بدأ به السالكون من شهود الآثار إليه انتهاءُ المجذوبين.

وما ابتدأ به المجذوبون من كشف حقيقة الذات إليه انتهاءُ السالكين. لكن لا بمعنى واحد؛ فإن مرادَ السالكين شُهود الأشياء لله. ومرادَ المجذوبين شهود الأشياء بالله، فالسالكون عاملون على طريق الفناء والمحو، والمجذوبون مسلوك بهم طريقُ البقاء والصحو. ولما كان شأن الفريقين النزولُ فى تلك المنازل المذكورة لزم التقاؤهما فى طريق سفرهما: السالك مُتَرَقٍّ، والمجذوبُ مُتَدلٍّ.

لا يُعلم قدر أنوار القلوب والأسرار إلا فى غيب الملكوت، كما لا تظهر أنوار السماء إلا فى شهادة الملك.

أنوارُ القلوب والأسرارُ المشرقة عليها على سماء التوحيد والمعرفة،

لا يُعْرَف قدرُها إلا فى غيب الملكوت وهو: عالمُ الآخرة. وهناك يحصل لهم تمام هذه الأنوار، فمن آمن بالغيب كان له من ذلك الحظُّ الأوفر، كما أن أنوار السماء المشرقة على ظواهر الأجرام لا تظهر إلا فى شهادة المُلك، وهو عالم الدنيا؛ وذلك لحصول المناسبة بين هذه الأشياء.

وجدان ثمرات الطاعات عاجلا بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلا.

ما يجده العاملون بطاعة الله تعالى فى أعمالهم عاجلًا من مزيد الإيمان واليقين وتنسُّم روح الأنس، ولذيذ القرب ولطيف الوصل بشائر من الله تعالى عاجلةٌ بوجود الجزاء عليها فى الدار الآخرة؛ لأنها مقبولة عند الله تعالى، وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: (من وجد ثمرة عمله عاجلًا فهو دليل على وجود القبول).

كيف تطلب العرض على عمل هو متصدق به عليك، أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه إليك.

العمل الذى يصحّ طلبُ العوض والجزاء عليه هو: ما عملته لينتفع به غيرك. ولم يحصل لك بذلك منفعة، ولم يندفع عنك بسببه مضرَّة.

والأعمال الدينية المطلوبةُ منك ظاهرًا وباطنًا بخلاف هذا كله؛ إذ هى مسلوبة عنك منسوبة إلى ربك خلقُها واختراعُها، عائدٌ ثمرة ذلك ومنفعته عليك فى ظاهرك وباطنك، وهو غنىّ عنك وعنها، ولذلك عبّر عنها بالتصدق والإهداء تنبيهًا على أن ذلك لم يكن إلا لمنفعتك.

فطلبُ العوض والجزاء إذن - على عمل هذا صفته - فى غاية القبح، ولذلك صَدَّر المؤلف رضى الله تعالى عنه كلامه بـ «كيف»؛ ليُعَجِّبَك من ذلك

الوصف، قال الواسطى، رضى الله تعالى عنه،: «مطالبة الأعواض على الطاعات من نسيان الفضل». وسئل أبو العباس بن عطاء الله، رضى الله تعالى عنه، عن أقرب شىء إلى مقت الله تعالى، فقال: «رؤية النفس وأفعالها، وأشدّ من ذلك مطالبة الأعواض على أفعالها».

واستعمال المؤلف، رحمه الله تعالى، لفظ «الصدقة» فى الأعمال الظاهرة، ولفظ «الهدية» فى الصدق وعليه مدار الأعمال الباطنة إشعارٌ بتباينها فى الشرف، كتباين الهدية والصدقة.

قوم تسبق أنوارُهم أذكارَهم، وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم، وقوم لا أذكار ولا أنوار.
ذاكرٌ ذكر ليستنير قلبه فكان ذاكرًا، وذاكر استنار قلبه فكان ذاكرًا.
والذى استوت أذكاره وأنواره فبذكره يهتدى وبنوره يقتدى.

سبقية الأذكار للأنوار هو حال المريدين السالكين، وذلك؛ لأن شأنهم المجاهدة والمكابدة، فهو يأتون بالأذكار فى حال تكلّف منهم وتَعَمُّل، ليحصل لهم بذلك زوائد الأنوار، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1].

وسبقية الأنوار للأذكار هو حال المريدين المجذوبين؛ لأنهم مقامون فى لسهولة والخفة، فهم لمّا وُجّهوا بالأنوار حصلت منهم الأذكار بلا تكلف لا تَعمّل، قال فى «لطائف المنن» حاكيًا عن شيخه أبى العباس المرسى: .. وقال رضى الله تعالى عنه،: الناس على قسمين: قوم وصلوا بكرامة الله

(١) آية رقم ٦٩ من سورة العنكبوت.

تعالى إلى طاعة الله، وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَجتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنيبُ﴾[١] قال: ومعنى كلام الشيخ هذا: أن من الناس مَن حَرَّك الله همَّته لطلب الوصول إليه فسار يطوى مَهامِه نفسه وَبَيْداءَ طبعه، إلى أن وصل إلى حضرة ربّه، يصدق على هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، ومن الناس من فاجأته عناية الله من غير طلب ولا استعداد، ويشهد لذلك قوله تعالى ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[٢] فالأول حال السالكين، والثانى حال المجذوبين، فمن كان مبدؤه المعاملة فنهايته المواصلة، ومن كان مبدؤه المواصلة ردّ إلى وجود المعاملة، ولا تَظنَّ أن المجذوبَ لا طريق له، بل له طريق طوتها عناية الله تعالى، فسلكها مسرعًا إلى الله تعالى عاجلًا، وكثيرًا ما تسمع عند مراجعة المنتسبين للطريق أن السالك أتمُّ من المجذوب؛ لأن السالك عرف طريقًا بها توصّل إليه والمجذوب ليس كذلك، وهذا بناء على أن المجذوب لا طريق له، وليس الأمر كما زعموا؛ فإن المجذوب طويت الطريق له ولم تطو عنه، ومن طويت له الطريق لم تفته ولم تغب عنه، وإنما فاته متاعبها وطول أمدها.

والمجذوب كمن طويت له الطريق إلى مكة، والسالك كالسائر إليها على أكوار[٣] المطايا» انتهى ما ذكره فى حال الجذب والسلوك، وهو حسن قلّ أن يوجد لغيره، فلذلك أوردته ها هنا بكماله.

ما كان ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود وفكر.

---

(١) من آية رقم ١٣ من سورة الشورى.
(٢) سورة آل عمران. الآية ٧٤.
(٣) الكور رحل البعير والجمع أكوار.

أعمال الظاهر تكون تبعًا لما يكون فى الباطن وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: (ما استودع فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر) فالذكر الظاهر لا محالة ثمرة باطن الشهود والفكر، ثم بين هذا المعنى بقوله:

أشهدك من قبل أن يستشهدك فنطقت بإلهيته الظواهر، وتحققت بأحديته القلوب والسرائر.

كاشف الله تعالى القلوب والأسرار فى غيب الغيب بحقائق وحدانيته وإحاطة قيوميَّته، فلمّا أشهدها ذلك اضمحلت وتدكدكت وتلاشت، فتحققت بذلك الأحدية، فلما أظهرها فى عالم الشهادة ملتبسة بالأجسام والهياكل طلب منها الشهادة له بالإلهية، فشهدت بلسان حالها ومقالها، فكانت الشهادة منها لما استشهدت تبعًا لشهودها لما أشهدت، فالعبد من حيث سرُّه وقلبُه بوصف الجمع، ومن حيث ظاهرُه وجسمُه بنعت الفرق، ولابد فى هذا الطريق من وجود الجمع والفرق، وقد قالوا: «كل جمع بلا تفرقه زندقة، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل».

وقال الجنيد، رضى الله تعالى عنه فى معنى الجمع والتفرقة:

فتحققتك فى سرّى فناجاك لسانى ... فاجتمعنا لِمعان وافترقنا لمعان
إن يكن غَيّبك التعظيم عن لحظ عيانى ... فلقد صيّرك الوجدُ من الأحشاء دانى

وذهب الجنيد رضى الله عنه إلى أن قربه بالوجد جمع، وغيبه فى البشرية تفرقة.

أكرمك بكرامات ثلاث: جعلك ذاكرًا له. ولولا فضله لم تكن أهلا لجريان ذكره عليك وجعلك مذكورًا به إذ حقق نسبته لديك، وجعلك مذكورًا عنده فتمم نعمته عليك.

أكرم الله تعالى عبده المؤمن بثلاث كرامات جمع له فيها كلَّ المفاخر والمحامد.

أولها: كونُه ذاكرًا له، بأن أجرى ذكره على قلبه ولسانه، ومن أين له ذلك؟ وبأى وسيلة ناله لولا فضل الله تعالى وكرمه.

وثانيها: كونه مذكورًا به، فيقال: هذا عبد الله، ووليُّه، وصفيُّه، ومُختاره، وذلك بما أكرمه الله به من تحقيق النسبة إليه وهى إثبات الخصوصية له، وقد تقدم معنى الخصوصية.

وثالثها: كونه مذكورًا عنده، وهذه هى غاية الإكرام ومنتهى الفضل والإنعام، قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾[1] قيل معناه: ذكرُ اللهِ عبدَه أكبرُ من ذكر العبدِ لله، وفى حديث أبىّ بن كعب، رضى الله عنه، قال: قال لى رسول الله ﷺ: أُمرتُ أن أقرأ عليك القرآن قال، قلت: يا رسول الله سمانى لك ربك؟ قال: نعم، فقرأ علىّ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2].

وفى حديث أبى حيَّة البدرى، رضى الله تعالى عنه، قال: لما نزلت سورة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ... إلى آخرها﴾ قال جبريل عليه السلام: إن ربك يأمرك أن تُقْرِئها أُبيًّا، فقال النبى ﷺ لأبىّ: إن جبريل عليه السلام أمرنى أن أقرئك هذه السورة، فقال أبىّ: أَوَ ذُكرتُ ثَمَّ يا رسول الله؟ قال: نعم. فبكى أبىّ.

وفى حديث أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ قال «يقول الله تعالى: أنا عند ظنّ عبدى بى، وأنا معه حين يذكرنى: إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه وإن تقرب منى

---

(١) من آية ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٢) آية ٥٨ من سورة يونس.

شبرا تقربت منه ذراعًا، وإن تقرب منى ذراعًا تقربت منه باعًا، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة»[١].

وفى حديث أبى هريرة وأبى سعيد يشهدان به على النبى ﷺ أنه قال: «ما جلس قوم مسلمون مجلسًا يذكرون الله فيه إلا حفّتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»[٢].

قال يحيى بن معاذ، رضى الله عنه: «يا غفول يا جهول لو سمعت صرير القلم حين يجرى فى اللوح المحفوظ بذكرك لمتَّ طربًا».

رب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده، ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده.

الإمدادات الإلهية التى يمدّ الحقُّ تعالى بها عباده المؤمنين زيادة فى إيمانهم، وتقوية لإيقانهم لا أثر فيها لطول العمر ولا قصره، فلا تنقص بذلك ولا تزيد به، ولا تقل ولا تكثر، وإنما تَرِد عليهم من خزائن الفضل والكرم بحسب قوة استعدادهم وكمال قابليتهم، ويختلف هذا باختلاف تراكيب خلقهم ومجبول فِطَرهم، ولا مدخل للزمان فى هذا إلا بالعرض؛ وبهذا فَضُلت هذه الأمة على سائر الأمم على قِصر أعمارهم، وطول أعمار غيرهم.

قال أحمد بن أبى الحوارى، رضى الله تعالى عنه: «قلت لأبى سليمان الدارانى، رضى الله تعالى عنه: قد غبطت بنى إسرائيل. قال: بأى شىء؟

---

(١) حديث صحيح رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة.

(٢) اخرج الإمام مسلم والترمذى وغيرهما بسندهم عن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما؛ أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة... إلى آخر الحديث.

قلت: بثمانمئة سنة حتى يصيروا كالشِنان[١] البالية، والحنايا، والأوتار. قال: ما ظننتُ إلا وقد جئتَ بشيء لا والله، ما يريد الله لنا أن تيبس جلودنا على عظامنا، ولا يريد منا إلا صدق النية فيما عنده، هذا إذا صدق فى عشرة أيام نال ما نال ذلك فى عمره».

من بورك له فى عمره أدرك فى يسير من الزمن من منن الله تعالى مالا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة.

البركة فى العمر أن يرزق العبد من الفطنة واليقظة ما يحمله على اغتنام أوقاته، وانتهاز فرصة إمكانه خشية فواته، فيبادر إلى الأعمال القلبية والبدنية، ويستفرغ فى ذلك مجهوده بالكلية، وفى أثناء ذلك يصل إليه من المنح الإلـهية، ويشرق عليه من الأنوار الربانية ما تعجز العبارة عنه، ولا تنتهى الإشارة إليه، وكل ذلك فى عمر قصير وزمن يسير، فيرتفع له فى شهر - مثلاً - ما لا يرتفع لغيره فى ألف شهر، بمنزلة ليلة القدر العملُ فيها لمن صادفها خيرٌ من العمل فى ألف شهر.

قال بعض العلماء: «كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر».

كان سيدى أبو العباس المرسى، رضى الله عنه يقول: «أوقاتنا والحمد لله، كلُها ليلة القدر، فهذا هو البركة فى العمر لا تطويله وزيادة مدته».

وقيل هذا المعنى فى تأويل ما روى فى الخبر «البرُّ يزيد فى العمر»[٢].

---

(١) الشنان - بكسر الشين -: الجلد البالى.

(٢) أخرج الإمام أحمد والإمام البخارى بسندهما عن أبى هريرة رضى الله عنهم جميعا أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يبسط له فى رزقه وأن ينسأ له فى أثره فليصل رحمه».

الخذلان كل الخذلان فى أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه، وتقل عوائقك ثم لا ترحل إليه

من الخذلان أن تصدّك العوائق والشواغل عن التوجّه إلى الله تعالى والرحيل إليه، بل الواجب عليك أن تبادر إلى ذلك وترمى بالعوائق والشواغل خلف ظهرك.

وقد قيل: «سيروا إلى الله، عزّ وجلّ، عُرجًا ومكاسير، ولا تنتظروا الصحّة؛ فإن انتظار الصحة بطالة، قال الله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[1]. وقد تقدّم هذا المعنى عند قوله: [إحالتُك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس] فإن زالت شواغلك، وَقَلّت عوائقك، ثم قعدت عن التوجه والرحيل فهذا هو الخذلان كل الخذلان، أعاذنا الله منه.

قال الإمام أبو القاسم القشيرى، رضى الله تعالى عنه: «فراغ القلب من الأشغال نعمة عظيمة، فإذا كفر عبد هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى وانجرّ فى قياد الشهوات شوّش اللّهُ عليه نعمة قلبه، وسلبه ما كان يجد من صفاء لبّه».

الفكرة سير القلب فى ميادين الأغيار

الفكرة التى ألزمها العبد وحَضَّ عليها هى: سير القلب فى ميادين الأغيار فقط، وهى[2]: مخلوقات الله ومصنوعاته.

وأما الفكرة فى ذات الله تعالى فلا سبيل إليها، يَعْتَبِرُ المتفكرون فى آياته ولا يتفكرون فى ماهية ذاته.

---

(١) آية رقم ٤١ من سورة التوبة. (٢) أى: الأغيار.

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما «أنَّ رسول الله ﷺ أبصر قومًا فقال: ما لكم؟ فقالوا: نتفكَّر فى الخالق. قال: تفكَّروا فى خلقه ولا تفكروا فى الخالق فإنكم لا تقدرون قدره».

قال الإمام أبو القاسم القشيرى، رضى الله عنه: «التفكّر نعت كل طالب، وثمرته: الوصول بشرط العلم؛ فإذا سلم الفكر من الشوائب وردَّ صاحبَه على مناهل التحقيق، ثم فِكْرُ الزاهدين فى فناء الدنيا، وقلّة وفائها لطلّابها؛ فيزدادون بالفكر زهدًا فيها، وفِكْرُ العابدين فى جميل الثواب؛ فيزدادون نشاطًا عليه ورغبةً فيه، وفِكْرُ العارفين فى الآلاء والنعماء؛ فيزدادون محبةً للخالق سبحانه وتعالى».

وقال الجنيد، رضى الله تعالى عنه: «أشرف المجالس وأعلاها الجلوسُ مع الفكرة فى ميدان التوحيد».

وفى بعض النسخ: الفكرةُ: سير القلب فى ميادين الاعتبار، ومعناه ظاهر.

الفكرة سراج القلب فإذا ذهبت فلا إضاءة له

القلب الخالى من الفكرة خال من النور، مظلم بوجود الجهل والغرور، وقد تقدَّم هذا المعنى عند قوله: [ما نفع القلبَ شىءٌ مثلُ عزلة يدخل بها فى ميادين فكرة].

الفكرة فكرتان: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان؛ فالأولى لأرباب الاعتبار، والثانية لأرباب الشهود والاستبصار

تقدَّم الآن أنَّ الفكرة سيرُ القلب فى ميادين الأغيار، وسيره على وجهين:

صعود، ونزول؛ فالصعود لأرباب الاعتبار، وهى فكرة ناشئة عن التصديق والإيمان. وهذا للسالكين، وهو حال ترقّيهم، وهو نعت المستدلين بالآثار على المؤثر، والنزول لأرباب الشهود والاستبصار، وفكرتهم فكرة ناشئة عن الشهود والعيان. وهذا للمجذوبين وهو حال تدلّيهم، وهو وصف المستدلّين بالمؤثّر على الآثار. وقد تقدَّم هذا المعنى عند ذكر المجذوب والسالك.

وقال رضى الله عنه، مما كتب به لبعض إخوانه:

هذا كتاب يتضمّن ذكرَ حالِ السالك من أوّل ابتداء سيره إلى انتهائه وحصوله فى مستقرّه، وذكرَ آدابِ السلوك والوصول.

وقد أتى - رحمه الله تعالى - فى ذلك بعبارات صحيحة فصيحة، واستعارات حسنة مليحة، على طريقة وعظية، إذا سمعها السامع طرب لها قلبه، وهام فيها عقله ولُبُّه، وما ذاك؛ إلا لِما عَلق بها من أنوار قلب المتكلم. وقد قال فيما تقدَّم: [كلُّ كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز].

أما بعد:

فإن البدايات مَجَلَّات[1] النهايات

المَجَلّات: محل التجلّى والظهور؛ فالسالك فى ابتداء سلوكه يتجلّى له أمر نهايته.

وإن من كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته

---

(١) مجلات: بفتح الميم والجيم وتشديد اللام، جمع مجلة، أى محل التجلى والظهور، المجالى: المظاهر التى تتجلى فيها الأمور. وضبطتها بعض النسخ «مجلات» بسكون الجيم لى إعتبار أنه اسم مكان من جلا يجلو.

هذا بيان ما ذكره، ومعنى كون بدايته بالله أن تكون مجاهداته ومكابداته وأنواع رياضته مصحوبة بالإستعانة بالله تعالى والاعتماد عليه، والانقطاع إليه، فبذلك يصح له وينفذ فى توجهه وسلوكه، كما تقدَّم عند قوله: [ما توقّف مطلب أنت طالبه بربّك].

ومعنى كون انتهائه إلى الله أن يُكشف له انفراد الله تعالى بالقيومية، وتوحّده بالديمومية، وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن انكشافًا يظهر له به عدمية ذاته وتلاشيه، وتدكدكه واضمحلاله، قال الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[1].

فإذا صحّت للمريد تلك البداية بما ذكرناه وصل إلى هذه النهاية. وقد تقدَّم هذا المعنى فى قوله: [من علامات النجح فى النهايات الرجوعُ إلى الله فى البدايات].

والمشتغل به هو الذى أحببته وسارعت إليه، والمشتغل عنه هو المؤثر عليه

المشتغَل به، أيها المريد السالك، إنما هو عملك على التقرّب من ربّك عزَّ وجل، والتوسّل إليه بالطاعة والعبودية له، وهو الذى أحببته، وسارعت إلى إجابة دعوته، فيحق عليك ألاَّ تستقل ذلك الشغل، بل تكون به قرير العين.

والمشتغَل عنه: إنما هو متابعة حظوظك العاجلة، ومراداتك الزائلة، وهو الذى يستحق الإيثار عليه؛ إذ هو فانٍ، مضمحل، لا حقيقة له، فلتطب عنه نفسًا، ولا تعمل فيه عقلاً ولا حِسًّا.

---

(١) من آية ١٨ من سورة الأنبياء.

وهذا الكلام تهييج للسالك، وإنعاشٌ لقوَّته، وإنهاضٌ لهمّته، قال الشيخ أبوالقاسم عبدالرحمن الصقلي، رضى الله عنه: «سمعت عبدالله بن إسحاق الغافقي يقول: ما انتفعتُ إلا بدعاء رجل بمكة، مررت إلى المسجد الحرام بالسحر فإذا رجل يسفّ التراب، فقلت: مجهود أو مجنون؟! ثم قلت له: يا هذا، أتسفّ التراب؟! قال: فقال لي: أَوَ تراب هو، ثم ناولني. قال: فما شككت أنه سويق أو قَنْد[1] أنا أشكّ أيّهما. قال: فقلت: ولِيٌّ لله. وجثوت على ركبتي وقلت: ادع الله لي. فقال لي: عرَّفك الله قدر ما تطلب حتى يهون عليك ما تترك».

وإن من أيقن أن الله يطلبه صدق الطلب إليه، ومن علم أن الأمور بيد الله انجمع بالتوكل عليه

العبد مطلوب لربّه، عزَّ وجلَّ، بإقامة وظائف العبودية له، وذلك بما اختصه به، عزَّ وجلَّ، من العقل والفهم، وما رزقه من المعرفة والعلم، وثمرةُ ذلك الطلب عائدةٌ إلى العبد، فَلِمَ لا يصدق العبدُ في طلبه واجتهاده إذا أيقن بذلك؟ والأمور كلها بيد الله تعالى، ومن ذلك: سعيه، وكدحه، فلِمَ لا يتوكل عليه في ذلك فيجتمع همه ويتيسّر أمره؟ إذا علم بذلك فالقسم الأوّل قيام بمقتضى الشريعة، والقسم الثاني وفاء بحق الحقيقة.

وأنه لابُدَّ لبناء هذا الوجود من أن تنهدم دعائمه وأن تسلب كرائمه

ذكر هذا المعنى تسلية للعبد عمَّا يفوته في حال سلوكه من حظوظه وشهواته؛ لأنه إذا علم أن هذه الأشياء لابدّ أن تزال عنه، ولو بعد حين وكلّ ما هو آتٍ

---

(١) قند - بفتح القاف وسكون النون -: عسل قصب السكر إذا جمد.

قريب، لم يغتبط بما يكون مآل أمره إلى ذلك، ويكون طيبَ النفس بتركه، وتَهديم الدعائم وسلب الكرائم من الاستعارات البديعة.

فالعاقل من كان بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى قد أشرق نوره وظهرت تباشيره

فرحُ العبد بالأشياء الفانية هو موجب للزيادة فى همّه وغمّه إذا فقدها.

قال سيدى سهل بن عبد الله، رضى الله عنه: «مَن فَرح بغير مفروح به استجلب حزنًا لا انقضاء له».

وقد تقدَّم هذا المعنى عند قوله: [ليقلَّ ما تفرح به يقلُّ ما تحزن عليه]. فالعاقل لا يفرح بذلك، ولا يحبه، بل يكرهه ويبغضه. وإنما يكون فرحه بالأمور الباقية التى لا تفنى، قد أشرق نور ذلك فى قلبه، وظهرت تباشيره على وجهه. وإشراق النور، وظهورُ التباشير نتائج تحققه فى مقام الزهد.

فصدف عن هذه الدار مغضيا وأعرض عنها موليا فلم يتخذها وطنًا ولا جعلها سكنا

فلما كان العبد على هذا الوصف صدف عن هذه الدار الدنيوية، أى: مال عنها مغضيًا جفنه عن أقذائها من غير مبالاة بذلك معرضًا عنها بوجه قلبه، قد ولّاها دُبره من غير التفات إليها. وهذا مبالغة فى نبذها واطّراحها، فلم يتوطّنها بظاهره على سبيل التمتع بها والاستبشار، ولم يساكنها بباطنه على جهة المحبّة لها والإيثار، بل نزلها منزلة السجن والمضيق، ووطن نفسه فيها على تحمّل ما يطيق ومالا يطيق.

وهذه علامات على تحققه بالزهد فى الأمور الفانية التى هى بغيضة له،

فلما وصل إلى ذلك حصل له من طهارة قلبه، وصفاء لبّه ما حمله على التعلّق بمولاه الباقى الدائم فجعل دنياه مَعْبرًا يَعْبره إليه كما سيقوله المؤلف الآن.

بل أنهض الهمة فيها إلى الله تعالى، وسار فيها مستعينًا به فى القدوم عليه.

هذا ابتداء سفره بقلبه إلى الحضرة العلية، وبدأ بإنهاض الهمّة إلى ربّه، والاستعانة به فى القدوم عليه، وهو أساس أمره كما تقدّم. قال الشاعر:

إذا لم يُعِنْك اللّهُ فيما تريدُه ... فليسَ لمخلوقٍ إليه سبيلُ
وإن هو لم يُرْشِدك فى كلِّ مَسْلك ... ضَلَلْتَ ولو أن السِّماك[1] دليل

قال أبو محمد الجريرى، رضى الله تعالى عنه: «مَن توهّم أن عملًا من أعماله يوصّله إلى مأموله الأعلى أو الأدنى فقد ضلّ عن طريقه؛ لأن النبى ﷺ قال: «لن يُنَجّىَ أحدًا منكم عمله» فما لا ينجّى من المخوف كيف يوصّل إلى المأمول؟ ومَن صحَّ اعتماده على فضل الله فذلك الذى يُرْجَى له الوصول».

فما زالت مطية عزمه، لا يقرّ قرارها، دائمًا تسيارها إلى أن أناخت بحظيرة القدس، وبساط الأنس محل المفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة، فصارت الحضرة معشش قلوبهم، إليها يأوون، وفيها يسكنون

هذه استعارات مليحة استعملها فى سفر القلب إلى حضرة الربّ. وقد تقدّم معنى ذلك عند قوله: [لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين].

وحضرة القدس، وبساط الأُنس هما موضع محط الرحال، وبلوغ الأوطار

---

(١) السماك: كوكب منير.

والآمال، من قِبَل أن السالك تُمحى عنه رسوم بشريته، وتبطل أحكام إنيَّته، وتنكشف له إذ ذاك أوصاف معروفة كرأى العين، ويكون سرّه مع الله تعالى بلا أيْن، فلما وصل إلى هذه الحضرة العلية، ونال هذه المنقبة السنية، قوبل بأنواع من الكرامات والألطاف، وفنون من تحف السادات والأشراف، وهى معانى هذه الألطاف الستة التى ذكرها المؤلف، رحمه الله تعالى، ولا تُعرف إلا بالذوق، وكذلك التفرقة بين معانيها.

فحينئذٍ ألقى السائرون عصا سيرهم، وحمدوا عاقبة أمرهم، وصارت حضرة محبوبهم مُعَشَّشَ قلوبهم، ومستوطَنهم فى ذهابهم وإيابهم، إلى ظلّها يأوون إذا صَلِىَ غيرُهم بنيران هواه، وفى دار المقامة يسكنون حين يزعج سواهم عن متعة دنياه، وها هنا حصل لهم التحقق بمقام الفناء والمحو، وهذا هو انتهاء سفرهم بمعنى الصعود والترقّى.

فإذا نزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذن والتمكين والرسوخ فى اليقين، فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة، ولا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة، بل دخلوا فى ذلك بالله، ولله، ومن الله، وإلى الله.

هذا هو سفر التدلّى والنزول، وبه يتحققون بمقام البقاء والصحو، فإذا نزلوا من سدرة منتهاهم إلى سماء الحقوق، وهى حقوق الله عليهم مما أمرهم به أو نهاهم عنه، ليقوموا بذلك فعلًا أو تركًا، أو إلى أرض الحظوظ، وهى : حظوظ نفوسهم التى تلابسهم، ويحصل لهم الارتفاعُ بها، فإنما يكون نزولهم إلى ذلك بالإذن والتمكين والرسوخ فى اليقين.

ومعنى ذلك: أن يدخلوا فى الأشياء بمراد الله تعالى، لا بمراد أنفسهم

ويجدون الإذن من الله تعالى لهم بما يُشرق فى قلوبهم من النور الذى يجعله الله علمًا على ذلك.

وقد ذكره سيدى أبو الحسن فى بعض كلامه، قال رضى الله عنه: «ومعنى الإذن للولىّ: نورٌ ينبسط على القلب يخلقه الله فيه وعليه، فيمتدُّ ذلك النور على الشىء الذى يريده فيدركه نور مع نور، أو ظلمة تحت ذلك النور يُنْبئك أن تأخذ إن شئت، أو تترك، أو تختار، أو تدبرّ، أو تعطى، أو تمنع، أو تقوم، أو تجلس، أو تسافر، أو تقيم، هذا باب المباح المأذون فيه بالتخيير، فإذا قارنه القولُ تأكّد الفعل المباح بمراد الله تعالى؛ فإن قارنته نيّة صحيحة لفعل برٍّ زال عنه حكم المباح وصار مندوبًا.

وإن ظهرت الظلمة تحت النور الممتد من القلب، فلا يخلو أن يلوح عليه لائح الغضب بانقباض القلب، فاحذر ذلك وتجنبه؛ فإنه المحظور أو يكاد، ولا تقطع بذلك إلا ببينة من كتاب الله تعالى، أو سنّة، أو إجماع، أو خلاف لمقلّد قلّدته، كمالك والشافعى أو غيرهما من العلماء الراسخين، فاحكم إذن على أصل صحيح.

وإن تكن الظلمة شبه غيّم لا يتصدّع معه القلب، ولا يتفزّع به الذهن[1] فتباعد عنه؛ فإنه يكاد يكون مكروهًا، ولا تحكم بعقلك ورأيك؛ فقد ضلَّ من ها هنا خَلق كثير، ولا تُفْتِ أحدًا وإن استفتاك، وأعط الورعَ حقّه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[2]، فإن تأدّبت ها هنا فعن قريب تأتيك البيّنة من ربّك والشاهد يتلوها منه». انتهى كلام سيدى أبى الحسن، وهو

---

(١) وفى نسخة: «لا يصدع معه القلب، ولا يتفرغ معه الذهن» وهذا أقرب.

(٢) من آية رقم ٣٦ من سورة الإسراء.

مناسب لما ذكره المؤلف، إلا أنَّ ما فيه من التفصيل لم يتعرض له المؤلف، بل بقي الأمر فى ذلك مجملًا، كما تراه، وتقديره: «فإذا نزلوا إلى الحقوق واستُعملوا فيها لم ينزلوا إليها بسوء أدب ولا غفلة، وهو ألَّا يشهدوا قيامهم بها من أنفسهم، أو يطلبوا ثوابًا عليها من ربِّهم، وإن نزلوا إلى الحظوظ لم ينزلوا إليها بشهوة غالبة قاهرة لهم، ولا منفعة يقصدون إلى نيلها فى دنياهم، بل دخلوا فى ذلك بالله مستعينين، ولله عابدين، ومن الله آخذين، وإلى الله متوسّلين، قد تولّى الله تعالى إدخالهم فى الأشياء وإخراجهم منها، وأوجدهم ذلك، وعزل عنهم ملكية نفوسهم لهم، وصاروا أحرارًا كرامًا.

وقل ربِّ أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق؛ ليكون نظرى إلى حولك وقوتك إذا أدخلتنى، واستسلامى وانقيادى إليك إذا أخرجتنى.

المدخل، والمخرج: الإدخال والإخراج، وقد عبّر بهاتين العبارتين عن السفَرين المذكورين؛ فالمدخل: هو سفر الترقى؛ لأنه دخول على الله عزَّ وجلَّ فى حالة فنائه عن رؤية غيره، والمخرج: هو سفر التدلى؛ لأنه خروج إلى الخليقة لفائدتى الإرشاد والهداية فى حالة بقائه بربّه، وتحققه فى هذين المقامين، أعنى: مقام الفناء والبقاء هو معنى «صدقية» مدخله ومخرجه.

وإنما طلب هذا ليحصل له به ذهابه عن رؤية نفسه فى النسبة والوقوف مع الحظ؛ ففى المدخل يشاهد حول الله تعالى وقوَّته، فينتفى عنه بذلك النسبة إلى نفسه. وفى المخرج يستسلم لربّه وينقاد إليه فينتفى عنه بذلك مراعاة حَظّه.

واجعل لى من لدنك سلطانًا نصيرًا ينصرنى، وينصر بى، ولا ينصر علىَّ، ينصرنى على شهود نفسى، ويغنينى عن دائرة حسى.

طلب من الله تعالى النصرة له ليستقيم أمره، وطلب منه النصرة به ليكمل حاله، فالنصرة له هى ملاك أرباب البدايات من السالكين؛ إذ بذلك يتيسر عليهم قطع عقبات النفس، ومحو دواعى الهوى والحسّ.

والنُصرة به هى مقتضى حال أرباب النهايات من المحققين؛ لأن بذلك يحصل لهم مرتبةُ الأمانة ومقامُ الإرشاد والهداية، وكلّ واحد من القسمين نَصْرَةٌ على شهود النفس، وفناء عن دائرة الحسّ.

وإخراج النصرة عليه من السؤال والطلب؛ لأن ذلك من الخذلان وعدم التوفيق وهو غلبة أحكام نفسه وبقاؤه مع دائرة حسّه.

وقال رضى الله تعالى عنه ممَّا كتب به لبعض إخوانه:

إن كانت عين القلب تنظر أن الله واحد فى مننه، فالشريعة تقتضى أنه لابد من شكر خليقته.

إذا أوصل الحق تعالى إليك نعمة على يد إنسان، سواء كانت دينية أو دنيوية، فعليك فى ذلك وظيفتان:

إحداهما: أن تشهد انفراد الله تعالى بذلك فلا تَرَيَنَّ النعمةَ إلا منه وحده، وترى مَن سواه، ممن أجراها على يديه، مقهورًا مجبورًا على ذلك، مُسَلَّطًا عليه الدواعى والبواعث حتى لم يجد انفكاكًا عنه، وهذا هو حق التوحيد.

والثانية: أن تشكر من وصلت إليك على يده بأن تدعو له وتثنى عليه متثالاً لأمر الله تعالى، وعملاً بما جاءت به الشريعة، قال الله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوالِدَيْكَ﴾[1].

---

(١) آية رقم ١٤ من سورة لقمان.

وفى حديث النعمان بن بشير، رضى الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله»[١].

وفى حديث أسامة بن زيد، رضى الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أشكَر الناس لله أشكرهم للناس»[٢].

ولأن الله تعالى اختصَّه بأن أقامه فى ذلك وأهّله له. ومن أسمائه تعالى «الشكور»؛ فليتخلّق العبد بذلك. وهذا هو حقُّ الشرع.

وأن الناس فى ذلك على ثلاثة أقسام: غافل منهمك فى غفلته قويت دائرة حسه وانطمست حضرة قدسه، فنظر الإحسان من المخلوقين ولم يشهده من رب العالمين: إما اعتقادًا فشركه جلى، وإما استنادًا فشركه خفى.

هذا هو بيان أحوال الناس بالنسبة إلى مشاهدة التوحيد، ورؤية الوسائط والعبيد.

فبدأ بذكر عامة الناس، وهم الغافلون المنهمكون فى غفلتهم، أصحاب الظواهر والرسوم الذين قويت دائرة حسّهم فَقَيَّدتهم، ووقفوا معها، وانطمست حضرة قدسهم[٣] فأبعدتهم ولم يجلوا بها فنظروا الإحسان من المخلوقين

---

(١) روى الإمام أحمد فى مسنده والترمذى عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» حديث صحيح.

(٢) حديث صحيح أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن الأشعث بن قيس، وأخرجه غيره بأسانيد مختلفة.

(٣) حضرة قدسهم، أى: حضرة التنزيه، والمراد بها: بصيرته التى هى منبع تنزيه الله تعالى عن كل مالا يليق.

فتعبَّدوا لهم وطمعوا فيهم، ولم يشهدوه من ربِّ العالمين فكفروا نعمته واستوجبوا سخطه ونقمته.

ثم هم فى ذلك على قسمين:

أحدهما: أن يعتقدوا ذلك بقلوبهم أنه منهم ومن قِبَلهم، وهذا هو الشِّرك الجلىّ الذى يخرج صاحبه من دائرة الإسلام ويوقعه فى الكفر، والعياذ بالله.

والثانى: أن يحصل ذلك منهم استنادًا، أى اعتمادًا، على غير الله، وسكونًا إلى سواه، مع سلامة عقدهم وصدورهم، وهذا هو الشرك الخفىّ الذى يخرج صاحبه عن حقائق الإيمان ويدخله أبواب النفاق، ونعوذ بالله من الشرك جليّه وخفيِّه.

وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق، وفنى عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب فهو عبد مُواجه بالحقيقة، ظاهر عليه سناها، سالك للطريقة، قد استولى على مداها، غير أنه غريق الأنوار مطموس الآثار قد غلب سكره على صحوه، وجمعه على فرقه، وفناؤه على بقائه، وغيبته على حضوره.

هذا هو حال الخاصة من أرباب الحقائق، وهم الذين غابوا عن [شهود] الخلق بشهود الملك الحق، فلم يقع لهم شعور بهم، ولا التفات إليهم، وفَنوا عن الأسباب برؤية مسبب الأسباب، فلم يروا لها فعلا ولا جَعْلًا، فهم مُوَاجَهُون بحقيقة الحق ظاهر عليهم سناها، أى: نورها وضياؤها، سالكون طريقة الحقّ، قد استولوا على مداها، أى: وصلوا إلى غايتها ومنتهاها، إلّا أنهم غرقوا فى بحار أنوار التوحيد، مطموس عليهم آثار الوسايط والعبيد، أى. مغلق عليهم رؤية ذلك والشعور به قد غلب سكرهم، وهو: عدم إحساسهم بالأغيار، على

صحوهم، وهو: وجود إحساسهم بها، وجمعُهم، وهو ثبوتُ وجود الحق فردًا، على فرقهم وهو ثبوت وجود الخلَق، وفناؤهم، وهم: استهلاكهم فى شهود الحق على بقائهم وهو شعورهم بالخلق، وغيبتهم وهو ذهاب أحوال الخلق عن نظرهم على حضورهم مع الخلق.

ومعانى هذه الألفاظ، كما تراها، متقاربة، وهى ألفاظ تداولها الصوفية المحققون بينهم وعبرّوا بها فى كتبهم، ووضَعوها على معان اختصوا بفهمها؛ ليتعرّف بعضهم من بعض ما يتخاطبون به، ولهم ألفاظ كثيرة غيرها، وكأن المؤلف، رحمه الله تعالى أراد ألاَّ يخلو كتابه عن ذكر شىء منها.

وأكمل منه عبد شرب فازداد صحوا. وغاب فازداد حضورًا. فلا جمعه يحجبه عن فرقه، ولا فرقه يحجبه عن جمعه، ولا فناؤه يصدُه عن بقائه، ولا بقاؤه يصده عن فنائه، يعطى كل ذى قسط قسطه ويوفى كلَّ ذى حقّ حقه.

هذا هو حال خاصّة الخاصة الذين حازوا رُتب الأكملية؛ وهم قوم شربوا كؤوس التوحيد فازداد صحوهم، وغابوا عن الأغيار فازداد حضورهم؛ وقد ملكوا الأحوال، وتمكنوا فى مقامات الرجال، فلم يغلبهم مَحْوٌ عن طى[1]؛ ولم يحجبهم شىء عن شىء بل وفوا حقوق جميع المراتب، وأعطوها مالها من قسط واجب، وذلك لاتساع نظرهم؛ ونفوذ بصرهم، وهذه هى صفة الصّديق، رضى الله تعالى عنه فى القصة التى يذكرها الآن.

وقد قال أبو بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه، لعائشة، رضى الله تعالى عنها، لما نزلت براءتها من الإفك على لسان رسول الله

---

(١) وفى نسخة: فلم يغيبهم محو ولا طى؛.

ﷺ: يا عائشة، اشكرى رسول الله ﷺ فقالت: والله لا أشكر إلا الله دلها أبو بكر رضى الله عنه تعالى عنه على المقام الأكمل. مقام البقاء المقتضى لإثبات الآثار وقد قال الله تعالى ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[1] وقال ﷺ: (لا يشكر الله من لا يشكر الناس) وكانت هى فى ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها غائبة عن الآثار فلم تشهد إلا الواحد القهار.

هذا مثال هذين القسمين، وقد أشبع المؤلف - رحمه الله تعالى - الكلام فيه. والمعنى فى ذلك بيِّن، لا حاجة بنا إلى مزيد تنبيه عليه إلّا قوله (وكانت فى ذلك الوقت مصطلمة) أى: منقطعة عن شاهدها، وهو حكم بشريتها متوفاة عن إحساسها، بالكلية، والاصطلامُ نعت الحيرة، ومحل القهر وصفة الدهشة. وفى قوله (وكانت هى فى ذلك الوقت) إشعارٌ بأن ذلك لم يكن حالاً لازمًا لها فى جميع أوقاتها بل كان ذلك فى وقت مخصوص، وواقعة مخصوصة، وذلك صحيح؛ إذْ حالها، رضى الله عنها، هو حال الكمال فى حياة رسول الله ﷺ، وبعد وفاته كنحو حال أبيها، رضى الله عنهما؛ وذلك معلوم من أخبارها وسيرها رضى الله تعالى عنها.

وقال رضى الله عنه لما سئل عن قوله صلوات الله عليه وسلامه «وجعلت قرّة عينى فى الصلاة»[2]: هل ذلك خاصٌّ به أم لغيره منه شِربٌ ونصيب فأجاب:

---

(١) سورة لقمان الآية: ١٤.

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده وغيره بإسناد حسن عن أنس رضى الله عنه: «حبب إلى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة».

إنَّ قرةَ[١] العين بالشهود[٢] على قدر المعرفة بالمشهود[٣] فالرسول صلوات الله عليه وسلامه ليس معرفة غيره كمعرفته فليس قرّةُ عينٍ كقرته. وإنما قلنا إن قرة عينه فى صلاته بشهوده جلال مشهوده؛ لأنه قد أشار إلى ذلك بقوله «فى الصلاة» ولم يقل بالصلاة؛ إذ هو صلوات الله عليه وسلامه لا تَقرُّ عينه بغير ربه[٤] وكيف[٥] وهو يدل على هذا المقام ويأمر به من سواه؛ بقوله صلوات الله عليه وسلامه «اعبدالله كأنك تراه»[٦] ومحال أن يراه ويشهد معه سواه. فإن

---

(١) قرة العين: غاية الفرح والسرور.

(٢) الشهود: شهود جلال الحق سبحانه وجماله.

(٣) المشهود هو المولى تبارك وتعالى.

(٤) ومن الغير: الصلاة.

(٥) أى: كيف تقر عينه بغير ربه.

(٦) ورد فى ذلك أحاديث عدة منها الحديث الصحيح الذى يعتبر أساسا فى ذلك وهو ما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ، بارزا يوما للناس فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث، قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: ما الإحسان؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال متى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربها وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان فى خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا النبى ﷺ ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام﴾ الآية. ثم أدبر فقال: ردوه فلم يروا شيئا، فقال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم، قال أبو عبد الله جعل ذلك كله من الإيمان.

ومنها ما رواه الطبرانى عن أبو الدرداء بدرجة حسن: «أعبد الله كأنك تراه وعد نفسك فى الموتى، وإياك ودعوات المظلوم فإنهن مجابات وعليك بصلاة الغداة وصلاة العشاء فاشهدهما فلو تعلمن ما فيهما لأتيتهما ولو حبوا». ومنها ما رواه أبو نعيم فى الحلية=

قال قائل: قد تكون قرّة العين بالصلاة، لأنها فضل من الله، وبارزةٌ من عين مِنّة الله فكيف لا يفرح بها، وكيف لا تكون قرة العين بها وقد قال سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا...؟﴾[1] فاعلم أن الآية قد أومأت إلى الجواب لمن تدبّر سرّ الخطاب؛ إذ قال ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ وما قال فبذلك فافرح يا محمد، قل لهم فليفرحوا بالإحسان والتفضل وليكن فرحك أنت بالمتفضِّل، كما قال فى الآية الأخرى ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[2].

الصلاة هى أجلُّ ما يتحف الله تعالى به عباده، ويهديه إليهم، وفى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أُوتى عبد فى الدنيا خيرًا من أن يؤذن له فى ركعتين يُصليهما»[3] ففيها يحصل لهم الخلوة معه، والانفرادُ والمجالسة له، والانقطاع إليه، وفيها يرتفع عن قلوبهم الحجب والأستار، ويتجلى فيها حقائق الأسرار، وتشرق فيها شوارق الأنوار، وفيها تكون المناجاة والمصافاة كما تقدم، وهى صلة بين العبد وبين ربه عز وجل، قال محمد بن على الترمذى، رحمه الله: «الصلاة عماد الدين، وأول شىء فرضه الله على المسلمين، وفى الصلاة إقبال الله على العبد ليقبلوا إليه فى صورة العبيد تذللًا وتسليمًا، وتبتلًا، وتخضعًا وترغيبًا وتملقًا، فالوقوف تذلل، والتكبير تسليم، والثناء والتلاوة تبتل،

= بدرجة حسن: «أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك واحسب نفسك مع الموتى واتق دعوة المظلوم فإنها مستجابة».

(١) سورة يونس: الآية ٥٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية: ٩١.

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن عن أبى أمامة.

والركوع تخضع، والسجود تخشع، والجلوس ترغُّب، والتشهد تملق، فأقبل العبيد إلى الله بهذه الصورة ليقبل الله عليهم بالترحم والتعطف والتقبل والتكرم والتقرب فليس شيء من أمر الدين أعظم من هذه؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «الصلاة عماد الدين»[١] وقال في حديث آخر: «الصلاة نور»[٢] وقال «لا يزال الله مقبلا بوجهه على العبد ما دام في صلاته، وإن الله لينصب إلى أحدكم وجهه مادام مقبلا عليه» ولأجل هذه الفوائد كانت الصلاة مفزع ذوى الفاقات والضرورات من أرباب القلوب، فيغنيهم وجودها عن كل مرغوب ويتسلون بها على كل محبوب، قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾[٣].

فواجب إذن أن تكون قرَّةُ أعين عباد الله فيها وبها.

وقرة العين عبارة عن الرَّوْح والراحة وكمال النعيم واللذة التي تحصل من غاية الموافقة والملاءمة، إلا أنها تختلف باختلاف أحوال الناس في مراتبهم ومقاماتهم فمن عظمت منزلته، وعلت مرتبته كانت ملاءمته وموافقته في شهود التوحيد وكمال التجريد المشار إليه في قوله ﷺ «أن تعبد الله كأنك تراه» إذ محال أن يراه ويشهد معه سواه، كما قال المؤلف رحمه الله تعالى. وفيما روى عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، في قوله لعروة بن الزبير، رضى الله عنهما: «إنا كنا نتراءى الله بين أعيننا» وكان هذا لما خطب إليه عروة بن الزبير ابنته

---

(١) البيهقي في شعب الإيمان بإسناد ضعيف، وأخرج أبو نعيم بإسناد حسن «الصلاة عمود الدين».

(٢) أخرجه القضاعي وابن عساكر عن أنس رضى الله عنه بإسناد ضعيف بلفظ «الصلاة نور المؤمن». ورواه مسلم في حديث «الطهور شطر الإيمان» بإسناد صحيح.

(٣) آية ١٣٢ من سورة طه.

وهو فى الطواف، فلم يكلمه ابن عمر، ولم يرجع إليه بشىء، ثم اعتذر له بعد ذلك بهذا الكلام فصاحب هذه الحال تكون قرة عينه فى الصلاة لا بها، لما تتضمنه من التجلى التام، والشهود الحقيقى.

ومن كانت منزلته دون ذلك كانت ملاءمته وموافقته فى شهود النعم ووجود الفضل والكرم، وكانت قرة عينه بها، لا فيها، لأنها فضل من الله، وبارزة من منة الله كما قال المؤلف رحمه الله تعالى.

فلا شك أن معنى قرة العين فى الوجه الأول، وبه أنسب وأليق، لأن صاحبه فان عن نفعه، باق بربه، ومن كان على هذا الوصف فهو من المخلصين الذين لا سلطنة عليهم للعدو اللعين.

ومن زالت سلطنته عنه فى صلاته لم يحتج إلى مدافعته ومراجعته، وكانت صلاته ملزومة بالحضور والخضوع، والدوام والخشوع. وعند فقدان العبد لحديث نفسه، ووسوسة عدوه يحصل له غاية النعيم واللذة، ويتحقق فى حقه معنى قرة العين بخلاف الوجه الآخر، فإن صاحبه لم يغن عن نفسه، فضلا عن أن يرتقى إلى درجة البقاء بربه، فلم ينقطع عنه حديث النفس ولا وسواس العدو، فيحتاج لا محالة إلى مجاهدة ومدافعة، فيتشوش نعيمه، وتتكدر لذته، فيضعف معنى قرة العين فى حقه قال الشيخ العارف أبو محمد عبد العزيز المهدوى، رضى الله تعالى عنه: «وقرة العين لا تكون لمجاهد، ولا لمن يدفع الشيطان عنه، بل هى لمن استراح من المجاهدة والدفع».

ولما كانت منزلة نبينا محمد ﷺ عند ربه، عز وجل، أشرف المنازل، ومرتبته فى المعرفة به أرفع الرتب بحيث لا يتصور أن يشاركه فى ذلك غيره أو يحل به سواه كانت قرة عينه فى صلاته على حسب ذلك، فمن قال إن ذلك خاص به

لانفراده بالمرتبة العليا والخاصية الكبرى فقوله صحيح، وعليه يدل ظاهر قوله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» بعد قوله: «إنما حبب إلى من الدنيا الطيب والنساء» ولاشك أن حبه لهذين الأمرين ليس على قياس حب غيره لهما، وإنما ذلك لوجود الخاصية التي اقتضت منه ذلك، ألا ترى أنه أبيح له ما لم يبح لغيره من عدد الحرائر، وأمن لأجل ذلك من وقوع مفسدة التباغض والتشاجر بسبب اجتماع الضرائر، واستعماله ﷺ الطيب وحُبُّه له إنما هو للقائه الملائكةالتي تناجيه، وإلا فهو في ذاته غني عن الطيب واستعماله، كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألينَ من كفّ رسول الله ﷺ، ولا شممتُ رائحة قط مسكا ولا عنبرًا أطيب من رائحة رسول الله ﷺ».

فإذا كان حاله في هذين الأمرين على ما ذكرناه مع أنه لم يذكر فيهما سوى لفظ «الحب» وهما من لذات الدنيا فكيف يكون حاله في الأمر الثالث مع أنه عبر فيه بقرة العينّ وهي غاية المحبة، وهو من أعمال الآخرة.

وقيل معنى قوله «من الدنيا» أي: «في الدنيا» ومن قال إن لغيره منه شِربا ونصيبًا على المعنى الذي يليق بهذا الغير فلقوله وجه، وجواب المؤلف رحمه الله تعالى محتمل لهذين الوجهين. والله أعلم بما أراد منهما أو من غيرهما.

فصل

وقال المؤلف، رضي الله تعالى عنه فيما كتب لبعض إخوانه:

الناس في ورود المنن على ثلاثة أقسام:

فرح بالمنن لا من حيث مهديها ومنشئها ولكن بوجود متعته فيها فهذا من الغافلين، يصدق عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾[١].

وفرح بالمنن من حيث إنه شهدها منة ممن أرسلها ونعمة ممن أوصلها يصدق عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٢].

وفرح بالله ما شغله من المنن ظاهر متعتها ولا باطن منتها؛ بل شغله النظر إلى الله عما سواه والجمع عليه فلا يشهد إلا إياه يصدق عليه قوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[٣].

تضمن هذا الفصل بيان ما يحمد من أحوال الناس، وما يذم عند ورود النعم عليهم وحصول الفرح إذ ذاك لهم وينبغي عليه ما يكون من ذلك شكرًا لها، ومالا يكون.

وقد قسمهم المؤلف ثلاثة أقسام، وجعلهم طرفين وواسطة، قسم في غاية الدناءة والخسة، وهم الذين فرحوا بالنعم، من حيث إنَّ فيها قضاء أو طار نفوسهم، ونيل أغراضهم، والتمتع بشهواتهم ولذاتهم، فأحوال هؤلاء مذمومة جدًا أشبه شيء بهم الأنعام والبهائم. وهذه أحوال أهل الطرد والبعد والاستدراج والمكر حسبما أشار إليه في الآية الكريمة التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى في هذا القسم.

---

(١) من الآية٤٤ من سورة الأنعام
(٢) من الآية٥٨ سورة يونس
(٣) من الآية٩١ سورة الأنعام

وهذه الأحوال بعيدة من الشكر منافية له.

وقسم فى غاية الشرف والجلالة، وهم الذين فرحوا بالمنعم فقط، ولم يلتفتوا إلى ظواهر النعم، لأجل أنَّ فيها متعتهم ولذاتهم ولا إلى بواطنها من كونها دلائل على عناية الله تعالى بهم، حيث مَنَّ بها عليهم، فأحوال هؤلاء محمودة جدًا، لأنهم غابوا عن الأغيار العدمية، وتحققوا بحقائق الوحدانية، كما أشار إليه فى الآية الكريمة التى ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى فى هذا القسم، وحال هؤلاء هى الشكر الحقيقى الخالص الخالى من المزج والشوب، لأنَّ المشاهد للمنعم فَانٍ عن حظوظ نفسه، فهو يرى الأشياء كلها نعمًا، فلا تفرقة عنده بين وجود ولا عدم ولا عطاء ولا منع ولا يخاف عليه من التغير والانقلاب لتغير الأفعال والأسباب ما يخاف على غيره لبقاء حظه، قال أبو محمد الجريرى، رضى الله تعالى عنه: «مَن رأى النعم ولم ير المنعم فقد حُجب عن الشكر، ومن رأى المنعم بغيبة النعم فقد شكر».

وقال الشيخ أبو محمد عبد العزيز المهدوى، رضى الله تعالى عنه: «كل من لم يشاهد المنعم فى النعمة كانت النعمة فى حقه استدراجًا» لأنه يؤديه إلى أن يسكن إليها فإذا نزعت منه لزمه أن يتغير عليها».

ومنهم من حصل له نصيب من الشرف والجلالة وحظ من الدناءة والرذالة، وهم الذين فرحوا بالنعم، لكونها منة من الله تعالى عليهم؛ فمن حيث شهودهم للمنة من ربهم شرفوا وجلت أقدارهم، وكانت أحوالهم محمودة، وهى شكر منهم لائق بهم، ومن حيث نظرهم لأنفسهم وبقاؤهم مع حظوظهم كان لهم نصيب من الدناءة والخسة فانحطوا بهذا الوصف عن مراتب الأعلين، وارتقوا بالوصف الأول عن أحوال الأدْنَين فخوطبوا بما خوطب به عامة المؤمنين وأواسطهم فى الآية الكريمة التى ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى فى هذا القسم.

وقد ضرب الإمام أبو حامد الغزالى، رضى الله تعالى عنه، فى كتاب «الشكر»[١] لهذه الأقسام الثلاثة مثلاً، فقال: «الملك الذى يريد الخروج إلى سفر فأنعم بفرس على إنسان يتصور أن يفرح المنعَم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس، وأنه مال ينتفع به، وأنه مركوب يوافق غرضه، وأنه جواد نفيس، وهذا فرح من لاحظ له فى الملك، بل غرضه فى الفرس فقط، ولو وجده فى صحراء فأخذه لكان فرحه به مثل هذا الفرح.

الوجه الثانى: أن يفرح به، لا من حيث إنه فرس، بل من جهة ما يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه، واهتمامه بجانبه، حتى لو وجد هذا الفرس فى صحراء، أو أعطاه له غير الملك لكان لا يفرح به أصلا لاستغنائه عن الفرس أصلا ولاستحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل فى قلب الملك.

الوجه الثالث: أن يفرح به ليركبه، فيخرج به فى خدمة الملك، ويتحمل مشقة السفر، لينال بخدمته رتبة القرب منه، ويرتقى إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله فى قلب الملك محل من يعطيه فرسًا ويعتنى به هذا القدر من العناية، بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشىء من ماله على أحد إلا بواسطته، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة نفسها، بل [يريد] مشاهدة الملك، والقرب منه ، حتى لو خير بين القرب دون الوزارة، وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب.

---

(١) انظر ص ٢٢٠٦ من كتاب الإحياء طبعة دار الشعب

فهذه ثلاث درجات: فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا، لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس، ففرحه بالفرس لا بالمعطى، وهذه حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه، فهو بعيد عن معنى الشكر.

والثانى داخل فى معنى الشكر من حيث أنه فرح بالمنعم، ولكن لا من حيث ذاته، بل من حيث معرفة عنايته التى تستحثه على الإنعام فى المستقبل وهذه حال الصالحين الذين يعبدون الله تعالى ويشكرونه خوفًا من عقابه ورجاءً لثوابه.

وإنما الشكر التام فى الفرح الثالث: وهو أن يكون فرح العبد بنعم الله عز وجل من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه والنزول فى جواره والنظر إلى وجهه على الدوام، فهذه هى المرتبة العليا.

وأماراته: ألَّا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة، ويعينه عليها، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى، وتصده عن سبيله؛ لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة، كما لم يرد صاحب الفرس [الفرسَ]؛ لأنه جواد ومُهَمْلج[1]، بل من حيث إنه يحمله فى صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه، ولذلك قال الشبلى، رضى الله عنه: «الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة»؛ ولذلك قال الخواص رضى الله عنه: «شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب، وشكر الخاصة على واردات القلوب». وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن والفرج ومُدْرَكات الحواس من الألوان والأصوات، وخلا عن لذة القلب، فإن القلب لا يلتذ فى حالة الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه، وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات

---

(١) هملج الجواد: مشى مشية فيها سرعة وتبختر.

كما يلتذ بعض الناس يأكل الطين، وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلى الأشياء المرة، كما قيل:

ومنْ يكُ ذا فَمٍ مُرّ مريضٍ يجد مُرًا به الماء الزُّلالا[1]

فإذن هذا هو شرط الفرح بنعمة الله عز وجل، فإن لم تكن له إبل فمعزى فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية.

أما الأولى فخارجة عن كل حساب، فكم من فرق بين من يريد المَلِكِ للفرس ومن يريد الفرس للمَلِكِ، وكم من فرقٍ بين من يريد الله عز وجل لينُعم عليه، وبين من لايريد نِعَم الله تعالى ليصل بها إليه» انتهى كلام الإمام أبى حامد الغزالى وهو فى غاية البيان والوضوح، وهو كالتفسير لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى، ولذلك أوردته ها هنا بكماله.

وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود قل للصديقين بى فليفرحوا، وبذكرى فليتنعموا

بهذا تحققت صديقيتهم، وعلا ارتفاع رتبتهم على من دونهم، قيل: إن عتبة الغلام دخل فى بعض الأيام على رابعة العدوية، رضى الله عنها، وعليه قميص جديد وهو يتبختر فى مشيته بخلاف ما سبق من عادته، فقالت له: يا عتبة: ما هذا التيه والعجب الذى لم أره فى شمائلك قبل اليوم؟ فقال: يا رابعة، ومن أولى بهذا التيه منى وقد أصبح لى مولى، وأصبحت له عبدًا.

وقال بعضهم: كنت مسافرًا إلى مكة، فبينما أنا أمشى إذ رأيت شيخًا بيده مصحف وهو ينظر فيه ويرقص، فتقدمت إليه فقلت: يا شيخ، ما هذا

---

(١) العذب.

الرقص ؟ قال: دعنى عنك؛ قلت فى نفسى عبد مَنْ أنا، وكلام مَنْ أتلو، وبيت من أنا قاصد، فاستفزنى الوجد فرقصت، وأنشد فى هذا المعنى:

قوم تخللهم زهوٌ بسيّدهم ... والعبد يزهو على مقدار مولاه
تاهو برؤيته عمّا سواه له ... ياحسن رؤيتهم فى حسن ماتاهوا

ويجوز أن يكون المراد بقوله (وبذكرى فليتنعّموا) أى: بذكرى إيّاهم فى الأزل حيث لا وجود لهم، وإلّا فإن الذكر المنسوب إليهم محل الآفات والعلل، وهم أَجَلُّ رتبةً من أن يكون نعيمهم بشىء ملتبس[1] بهم.

والله تعالى يجعل فرحنا وإياكم به، وبالرضا منه، وأن يجعلنا من أهل الفهم عنه، وأن لا يجعلنا من الغافلين، وأن يسلك بنا مسالك المتقين بمنه وكرمه.

هذا دعاء حسن موافق لمعنى ما تقدّم، وهو بيّنٌ لا يحتاج إلى تبيين ولا تنبيه عليه؛ فالله تعالى يحقق لنا ذلك بفضله وإحسانه إنه أرحم الراحمين.

فصل

وقال رضى الله عنه:

إلهى أنا الفقير فى غناى، فكيف لا أكون فقيرا فى فقرى؟.
إلهى أنا الجاهل فى علمى فكيف لا أكون جهولاً فى جهلى؟

العبد موصوف بصفات النقص، وهى ذاتية له.

---

(١) وفى نسخة متلبس.

والكمال العارض له والمنسوب إليه نقصان على التحقيق.

ومن ثَمَّ كان ما ذكره المؤلف - رحمه الله تعالى - من كونه: فقيرًا فى غناه، وجاهلًا فى علمه صحيحًا مستقيمًا، وكأنه قصد - رضى الله عنه - بهذا الاعتراف بدوام الاضطرار، ولزوم الفاقة والافتقار، وأنه لا استغناء له عن مولاه عزَّ وجلَّ ولا ينفك من الاحتياج إليه والتعلّق به، والسؤال والطلب منه فى كل حال من أحواله، كما قال بعضهم:

إنّى إليك مدى الأنفاس محتاج لو كان فى مفرقى الإكليل والتّاجُ

وهذا منه دليل على تحققه فى مقام العبودية التى اقتضتها عظمة الربوبية.

وتقديمه لهذه المعانى بين يدى دعائه ومناجاته فى غاية الحسن، قال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه: «ما طلبت من الله شيئًا إلّا وقدّمت إساءتى أمامى» يريد رضى الله عنه: لا يطلب من الله شيئًا بوصف يستحق به العطاءُ، بل لا يكون طلبه وجودَ فضله إلّا بفضله.

وقال أبو عثمان، رضى الله تعالى عنه، فى قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً[1]﴾ التضرّع فى الدعاء: ألّا تقدّم إليه أفعالَك وصلواتك وصيامك وقيامك وقراءتك ثم تدعو على أثره، إنما التضرّع أن تقدّم إليه فقارك وعجزك وضرورتك وفاقتك وقلّة حيلتك ثم تدعو بلا علاقة ولا سبب يُرْفَع دعاؤك.

وقال الواسطى، رضى الله تعالى عنه: «تضرّعا، بِذُلّ العبودية وخَلْع لاستطالة».

---

(١) الآية ٥٥: الأعراف.

وقال سهل بن عبد الله، رضى الله عنه: «ما أظهر عبدٌ فقره إلى الله تعالى فى وقت الدعاء فى شىء يَحِلّ به إلّا قال الله لملائكته: «لولا أنه لا يحتمل كلامى لأجبته: لبيك».

إلهى إن اختلاف تدبيرك وسرعة حلول مقاديرك منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء، واليأس منك فى بلاء

تلوين الأحكام على العباد يقتضى ألّا يساكنوا حالا سارة يكونون عليها، ولا ييأسوا فى حال ضارة تنزل بهم من وجود الفرح والراحة، وهذا محض تعلّق بالله عزّ وجلّ، وهو نعت العارفين.

إلهى منى ما يليق بلؤمى، ومنك ما يليق بكرمك

لؤم العبد الذى رُكّب عليه يقتضى منه مبارزة مولاه بالعظائم والكبائر، وكرمُ المولى الذى هو مُتَّصفٌ به يقتضى منه التجاوزَ والعفوُ عن عبده وقبولَ عذره.

وهذا الكلام من ألطف وجوه السؤال والرغبة. وهو من آداب الدعاء.

يحكى أن رجلًا قال لبعض الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام: قل له: كم أخالفه وأعصيه وهو لا يعاقبنى!! فأوحى الله تعالى إلى ذلك النبى: قل لفلان: لِتَعلم أنّى أنا، وأنت أنت.

إلهى وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى أفتمنعنى منهما بعد وجود ضعفى

اللطف والرأفة وصفان لله عز وجل اتّصف بهما فى الأزل قبل وجود ضعف العبد وفاقته وحاجته، وهما مقتضيان لوجود آثارهما فيما لا يزال بعد

وجود ذات العبد وصفاته، وهى إسباغُ نعمه عليه، وإيصالُ أفضاله إليه فكيف يتصوّر إذ ذاك منعهُ إيّاهما.

إلهى: إن ظهرت المحاسن منّى فبفضلك ولك المنة علىَّ، وإن ظهرت المساوئ فبعدلك ولك الحجة علىّ

ظهورُ المحاسنِ على العبد وهى أنواع الطاعاتِ والحسناتِ والصفاتِ المحمودات فضلٌ من الله تعالى والمنّة له عليه لعدم استحقاقه لذلك.

وظهورُ المساوئ منه، وهى: ضروب المعاصى، والسيئاتِ، والأوصافِ المذمومات عدلٌ من الله تعالى؛ إذ له أن يفعل ما يشاء بعبده والحجة له عليه، لأنه ربّ وهو عبد.

ومناجاة العبد لمولاه بهذا الكلام من أحسن المناجاة، وهى مقتضية لوجود إسعافه له، وموالاة ألطافه عليه؛ لما فيها من الثناء على الله تعالى على بساط قربه وذكر صفاته العليّة، والتعلّق بها، والاعتراف له بالنعم الظاهرة والباطنة، لِما فيها أيضًا من رؤية ضعف النفس، والإقرار عليها بالنقص والقصور، وإنزالها منزلتها من الذلّة والمهانة.

وقد قال بعضهم: تعلّق شاب بأستار الكعبة وقال: إلٰهى، لالك شريك فَيُؤْتَى، ولا وزير لك فُيرشَى، إنْ أطعتك فبفضلك ولك المنّة علىَّ، وإن عصيتك فبعدلك[1] ولك الحجة علىّ، فبإثبات حجتك علىّ، وانقطاع حجتى لديك إلاَّ ما غفرت لى، فسمع هاتفًا يقول: «الفتى عتيق من النار».

إلهى، كيف تكلنى إلى نفسى وقد توكلت عليك، وكيف

---

(١) وفى نسخة: وإن عصيتك فبجهلى.

أضام وأنت الناصر لى، أم كيف أخيب وأنت الحفىّ بى

الوكيل، والناصر، والحفىّ: أسماء لله عزّ وجل، وهى مقتضية لوجود آثارها من وجود الكفاية والمنعة، والظفر بغاية المقصود والبغية، فكيف يتصوّر انفكاك ذلك عن العبد عند وجود حاجته، كما تقدّم فى اللطف والرأفة.

والضيم فى اللغة معناه: انتقاص الحقّ والحفىُّ هو: اللطيف، ولطفه بعبده: علمه بدقائق مصالحه وخفيّات مآربه، وإيصال ذلك إليه برفق، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾[1].

ها أنا أتوسل إليك بفقرى إليك.

التوسّل: التقرّب، والوسيلة: ما يتقرّب به، وأعظم وسائل العبد إلى مولاه، هو تحققه بما توجبه عبوديته، وهو: فقره إليه فى كل حال من أحواله، فلا يرى لنفسه حسنة يقتضى بها ثوابًا، ولا يدلى بحجة يستدفع بها عن نفسه عقابًا قال أبو يزيد، رضى الله تعالى عنه: «نوديت فى سرّى، فقيل لى: خزائننا مملوءة من الخدمة، فإن أردتنا فعليك بالذلّة والافتقار، وسئل أبو حفص رضى الله عنه: «بماذا يَقْدُمُ الفقير على ربّه؟ فقال: وما للفقير أن يقدم به على ربّه سوى فقره».

وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك.

بين المتوسل به والمتوسّل إليه نسبة تامة وَوُصلة حقيقية، وهى التى اقتضت له وجودَ التوسُّل، ولا نسبة ولا صلة بين الفقر الذى هو نعت العبد وبين الربّ الذى له الغنى الأكبر، وأيضًا، توسّل العبد بفقره يقتضى شهودَه له، واعتدادَه به، واعتماده عليه، ورؤيةُ العبد لأحواله وسكونه إليها علةٌ فيها،

---

(١) الآية ١٩ من سورة: الشورى.

والأحوالُ المعلولة لا تليق بالحضرة الإلـٰهية، ولا تصل إلى الله تعالى، بمعنى أنه لا يرضاها ولا يقبلها، فالفقر لا يصح التوسل به من هذا الوجه أيضًا، وإلى هذا المعنى يشير ما يحكى عن سيدى أبى الحسن الشاذلى حين دخل على شيخه أبى محمد عبد السلام رضى الله تعالى عنهما، فقال له: يا أبا الحسن، بماذا تلقى الله تعالى؟ قال له: بفقرى قال له الشيخ، والله، لئن لقيت الله بفقرك لتلقيّنه بالصنم الأعظم، ولا تصح حقيقة الفقر إلا بالغيبة عن الفقر، وإلا كنت غنيًا بفقرك» انتهى فإذن لا وسيلة إلى الله بسواه:

أم كيف أشكو إليك حالى وهى لا تخفى عليك.

شكوى الحال لا تصح إلا لمن هى غائبة عنه، وهو غير عالم بها، والله تعالى لا يخفى عليه شىء، وقد قال إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: «حسبى من سؤالى علمه بحالى».

أم كيف أترجم لك بمقالى وهو منك برز إليك.

الترجمة بالمقال، هى: التعبير باللسان عمّا فى الضمير ليقع التفهيم بذلك للمترجَم له، والله تعالى هو الذى أنطق اللسان، وأطلقه بذلك، فالترجمة من الله تعالى برزت وإليه مآل أمرها، والعبد لا مدخل له فى ذلك فكيف ينسب إليه الترجمة؟ ونسبة ذلك إلى الله تعالى دليل على إحاطة علمه بأحوال العبد، فكلاف يصح فى حقه معنى الترجمة؟.

أم كيف تخيب آمالى وهى قد وفدت إليك.

الآمال الوافدة إلى الله تعالى لا يحييها مِن قِبل أنها فارّة إليه، ومتعلقة به، منقطعة عمّا سواه، والله سبحانه وتعالى كريم جواد متفضّل، منعم، فليثق العبد ذلك، وليكن على يقين منه، وإن لم يسأل ولم يطلب.

أم كيف لا تحسن أحوالى وبك قامت وإليك.

من تحقق بالمعرفة رأى أحوالَه كلَّها حسنة، لوجود قيامها بالله ورجوع أمرها إليه، وهذه كلها أنواع من التعجب عجب بها المؤلف رحمه الله تعالى نفسه من نفسه فيما هو بصدده من سؤاله وطلبه بسبب ترقيه فى المعرفة التى أوجبت له رؤية نقصه وتصورَه فى أحواله الأولى.

إلـهى ما ألطفك بى مع عظيم جهلى، وما أرحمك بى مع قبيح فعلى.

شهود العبد لهذا المعنى مزيد عظيم يوجب له الحياء والانكسار، فيستحسن منه حينئذ الاعتراف بالنعم فقط.

إلـهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك.

شهودُ المؤلف رحمه الله تعالى شدّةَ قرب الله تعالى منه لما رأى من بعد الأغيار عنه، ودفعها له إليه، كما سيأتى فى قوله: (قد دفعتنى العوالم إليك) وشهوده لبعده من الله عزَّ وجلَّ من حيث أقيم فى الطلب له، والطلبُ للشىء دليلٌ على فقد الطالب له وبعده عنه، فالمشاهدة الأولى أوجبت له ملازمةَ باب مولاه، وانقطاعَ طمعه عن كلّ ما سواه.

والمشاهدة الثانية أوجبت له التلطّف فى سؤاله «التقريب» والاستغناء عن طلب «القرب».

ومن دعاء سيّدى أبى العبّاس المرسى، رضى الله تعالى عنه: «يا قريب، أنت القريب وأنا البعيد، قربك آيسنى من غيرك وبُعدى منك ردَّنى للطلب لك، فكن لى بفضلك حتى تمحو طلبى بطلبك، يا قوىّ، يا عزيز».

إلـهى ما أرأفك بى، فما الذى يحجبنى عنك.

الرأفة أشدّ من الرحمة، ولمّا شاهد رأفة ربّه به غاب بهذا الشهود عن رؤية نفسه وصفتها؛ فلذلك لم يظهر له سبب لوجود حجابه عنه.

إلـهى، قد علمتُ باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أنّ مرادك منىّ أن تتعرف إلىّ فى كلّ شىء حتى لا أجهلك فى شىء.

كأنّ المؤلف رحمه الله تعالى يقول: اختلاف الآثار علىّ، وتنقلات الأطوار بى، من: الصحة، والمرض، والغنى، والفقر، والعزّ، والذلّ، والقبض، والبسط، والطاعة، والعصيان، والفقد، والوجد، وغير ذلك من مختلفات أحوالى التى هى من شئونك التى تنزلها بى علمت منها أنّ إرادتك بى أن تتعرّف إلىّ فى كل شىء تعرفًا خاصًا، فى حالة خاصة، حتى أشاهد وحدانيتك، وعظمتك، وجمالك، وكمالك وجلالك، بحيث لا يتصوّر منىّ جهلٌ بما أنا فيه قابل لمعرفته من جميع ذلك، ولو كان الأمر على خلاف هذا وألزمتنى حالة واحدة أرتضيها لنفسى، وأختارها، لكانت معرفتى ناقصة، ومشاهدتى قاصرة، فأنا الآن أتقلّب فى جنّة معجّلة أتبوّأ منها حيث أشاء، فقد استغرقنى ما أنا فيه من عظيم النوال، وشغلنى ذلك عن الدعاء والسؤال، وطلب الكون على ما أرتضيه من الأحوال، فلك الحمد على نعمك الباطنة، والظاهرة، والخفيّة والجليّة.

قال بعضهم: «فى الدنيا جنّة معجّلة من دخلها لم يشتق إلى جنّة الآخرة، ولا إلى شىء، ولم يستوحش من شىء، قيل: وما هى؟ قال: معرفة الله تعالى.

وقال مالك بن دينار: رضى الله تعالى عنه: «خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا أطيب الأشياء!! قيل: وما هو؟ قال: المعرفة. ثم قال:

إنّ عرفان ذا الجلال لعزٌّ وضياءٌ ، وبهجةٌ وسرور

وعلى العارفين أيضًا بهاءٌ وعليهم من المحبّة نور
فهنيئًا لمن عرفك إلهى هو والله دهره مسرور

وقد رُوِى أنه رؤى صورة حكيمين من الحكماء المتعبّدين فى مسجد، وفى يد أحدهما رقعة فيها مكتوب: «إذا أحسنتَ كلَّ شىء فلا تَظُنَّ أنّك أحسنت شيئًا حتى تعرف الله عز وجل». وفى يد الآخر «كنت قبل أن أعرف الله عزّ وجل أشرب وأظمأ حتى إذا عرفته رويت بلا شرب» قال فى «التنوير» بعد كلام ذكره.. (وإنّما قلنا إن الحالة زائلة عنك لا محالة؛ فإنّ مراده أن ينقلك فى الأطوار، ويخالف عليك الآثار؛ ليتعرَّف إليك فى كلّ حالة خاصّة بتعرّف خاص، فإذا أردت أن يديمك على حالة واحدة فقد أردت أن يسلك بك غير الكمال، فكأنه يقول لك: لا تطلب منى أن أقيمك فى حالة واحدة. لأنى لا أفعل ذلك معك، أتريد أن تُبقى ربوبيّتى معطلة الآثار، ولكن سلنى أن أشعرك لُطْفى حيثما أردتك، وحيثما أقمتك حتى تكون بى، ولى، قال الله سبحانه وتعالى ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[1] أى: يمنع ويُعطى، ويضع ويُعلى، ويقبض ويبسط، ويعزّ ويذلّ.. إلى غير ذلك من مختلف آثاره، فكأنه سبحانه وتعالى يقول لك: يا عبدى، لا تأس على شىء ما دمت لك، ولا تفرح بشىء وأنا لست لك، فأنا المعوّض لك عمّا سواى، وما سواى لا يُغنيك عنّى، ولا تكون ممن يعبدنى بالعِلَل فتكون من عبيد الحروف، بل اعبدنى لى، فإنّى بكمال الغنى موصوف، وبدوام الأفضال معروف، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾[2]، لأن الذى طلبه

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الرحمن.
(٢) آية رقم ١١ من سورة الحج.

عزلناه عنه، فما دام له، وهو ما طلبنا حتى نكون له، ومن عبده لما سواه فهو عبد ما سواه، ومن عبده لأجل جوده ونعمائه فهو عبد جوده ونعمائه، لأنَّ من أحبَّ شيئًا فهو عبد ما أحبّه، قال رسول الله ﷺ: «تَعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة[1] تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»[2].

فكن عبد الله فى كل شىء، عطاءً ومنعًا، وعزًّا وذلًا، وغنًى وفقرًا، وقبضًا وبسطًا، وفقدًا ووجدًا، وشدّةً ورجاءً، وفناءً وبقاءً، إلى غير ذلك من مختلفات الآثار وتنقلات الأغيار» انتهى كلامه رحمه الله تعالى. وقد أحسن فيه غاية الإحسان كلّه، فجزاه الله تعالى خيرًا.

إلـهى كلما أخرسنى لؤمى، أنـطقنى كـرمـك، وكلما آيستنى أوصافى أطمعتنى مننك.

لؤمُ العبد، ومخالفتُه، وعصيانه يخرس لسانَه عن السؤال والطلب.

وكرمُ المولى، وفضله، وإحسانه ينطقه بذلك.

وأوصافُ العبد الذميمة التى اقتضتها طبيعته وجبلّته تؤيسه من حصول الاستقامة على طريق الحق، ومِنَنُ الله تعالى التى شملت البرَّ والفاجر تطمعه فى ذلك.

إلـهى من كانت محاسنه مساوئ فكيف لا تكون مساويه مساوى.

ومن كانت حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاويه دعاوى.

---

(١) الخميصة مؤنث خميص: ثوب أسود مربع. أى معلم الطرفين.

(٢) شيك: دخلت الشوكة فى جسمه، وانتقش الشوكة استخرجها، وهذا دعاء على عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصه بأنه إذا أصابه أذى فلا نجاه الله منه.

هذا مثال ما تقدم، من: أن الكمال المنسوب إلى العبد نقصانٌ على التحقيق، فما ظنك بنقصانه.

إلـهي: حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذى مقال مقالاً، ولا لذى حال حالاً.

شهودُ هذا المعنى يوجب للعبد مقام الخوف والتحقُّق فيه؛ فإذا كان ذا قول سديد وحال حميد لم يقطع ببقاء ذلك، ولم يغتر بما هنا لك لنفوذ حكم الحق تعالى وقهر مشيئته.

إلـهي: كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها هدم اعتمادى عليها عدلك، بل أقالنى منها فضلك.

الطاعةُ: صفةُ ظاهر العبد. والحالةُ: صفةُ باطنه. وبناؤه للطاعة، هو: إقامتُها على الوجه المأمور به من الوفاء بجميع أركانها وشرائطها، وما يتعلّق بها من حقوق وآداب، وتَشْييدُه للحالة، هو: تزيينها وتطهيرها وصيانتُها عَمّا يكدّر صفاءها، ويكسف ضياءها.

وكأنّه لمّا فعل هذين الأمرين رأى أنه تحصَّن بحصنٍ حصينٍ، وآوَى إلى ركن، متين، لكن لمّا شاهد عدل الله تعالى هدم عليه ذلك؛ لأن مقتضاه أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولا يبالى بأعمال العاملين.

فلمّا شاهد فضله وكرمه أقاله من ذلك بأن جعل له من التعلّق به والاعتماد عليه بدلاً منه وعوضًا عنه، ونِعم البدل والعوض، فسبحان المتفضّل المنّان.

إلـهي: أنت تعلم وإن لم تدم الطاعة منى فعلا جزمًا فقد دامت محبة وعزمًا.

جعل عزمه على الطاعة ومحبته لها - وإن لم يدم عليها فعلًا - إحدى وسائله، وذلك صحيح، وكم من شخص قد طرد وأبعد لم يكن عنده عزمٌ ولا فعلُ جزم.

إلـهى: كيف أعزم وأنت القاهر، وكيف لا أعزم وأنت الآمر.

استبعد من نفسه وقوعَ العزم منه، وجعل مستند ذلك شهود القهر؛ لأن من شهد قهره بطل عزمه؛ لأنه الغالب، واستبعد أيضًا عدم العزم، وجعل مستند ذلك شهود الأمر؛ لأن من شهد أمره بادر إلى امتثاله، وتحرّز من إغفاله وإهماله.

إلـهى: ترددى فى الآثار يوجب بُعد المزار، فاجمعنى عليك بخدمة توصلنى إليك.

شَكَى إلى مولاه عزّ وجلَّ طولَ تردّده فى الآثار، وهى: الأكوان، وأخبر أنه يوجب له بُعد المزار، وهى البعد عن شهود التوحيد وكمال المعرفة، وقد تقدّم هذا المعنى عند قوله: [لا ترحل من كون إلى كون].

ثم سأله وطلب منه أن يختصر له طريق سلوكه، ويقرّبه عليه، ويجمعه من مفترقات الآثار بخدمة تظهر فيها عبوديته ويصل بها إلى مولاه من غير تردّد ولا طول.

إلـهى: كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك. أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟.

متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك.

ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك.

هذا تقبيح لأحوال المستدلّين على ربّهم، وهم أصحاب النظر والاستدلال بالنسبة إلى أهل المقام الآخر، وهم أرباب الشهود والعيان.

قال أبو بكر محمد بن على الكتانىّ، رضى الله تعالى عنه: «وجود العطاء من الحق شهود الخلق بالحق؛ لأن الحق دليل على كل شىء، ولا يكون شىء دونه دليلًا عليه».

قال فى «لطائف المنن»: «وأرباب الدليل والبرهان عَوامُّ عند أهل الشهود والعيان، قَدَّسوا الحقّ فى ظهوره أن يحتاج إلى دليل عليه، وكيف يحتاج إلى دليل مَن نَصَب الدليل، وكيف يكون معرفًا به وهو المعرِّف له».

قال الشيخ أبو الحسن، رضى الله تعالى عنه: «كيف يُعرف بالمعارف مَن به عُرفت المعارف، أم كيف يُعرف بشىء من سبق وجودُه وجودَ كل شىء».

وقال مريد لشيخه: يا أستاذ، أين الله؟ فقال له: «ويحك! أيُطْلَب مع العين أَيْنَ!!». وقد تقدَّم هذا المعنى عند قوله: [شتان بين من يستدلّ به ومن يستدل عليه].

إلهى: عميت عين لا تراك عليها رقيبا.

الرقيبُ: الحفيظُ؛ فمن رأى الله تعالى رقيبًا عليه يعلم جميع أحواله ولا يخفى عليه منها شىءٌ استحيا منه، وهابه أن يراه على ما يكرهه منه.

وقد قيل: «إذا عصيت مولاك فاعصه بموضع لا يراك».

ومَن لم يكن على هذا الوصف وغَفل عن نظر الله تعالى إليه عميت عين بصيرته، فبارز الله تعالى بأنواع القبائح والفضائح من غير اكتراث ولا مبالاة.

وقد سئل بعضهم: «بِمَ يستعين الرجل على حفظ بصره من المحظورات؟

قال: بعلمه بأن رؤية الحقّ سبحانه له تسبق نظره إلى تلك المحظورات». وقال الله عزَّ وجل: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾(١).

قال الإمام أبو القاسم القشيرى، رضى الله تعالى عنه: «خوفهم بما عرَّفهم من اطلاعه عليهم فى جميع أحوالهم، ورؤيته لما يسلفونه من فنون أعمالهم، والعلم بأنه يراهم بوجب استحياءهم منه».

وهذا هو حال المراقبة: فالعبد إذا علم بأن مولاه يراه استحيا منه، وترك متابعة هواه، ولا يحوم حول ما نهاه عنه.

وفى حديث عبادة بن الصامت، رضى الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان».

وخسرت صفقة عبد لم يجعل له من حبك نصيبًا

حبّ الله تعالى لعبده هو: رحمته له، وثناؤه عليه، وإحسانه إليه.
وحبّ العبد لربّه عزَّ وجل: طاعته، وموافقة أمره، وتعظيمه، وهيبته.

والحبّ المضاف إلى الكاف فى قوله «من حبك» يحتمل أن يضاف إلى الفاعل وإلى المفعول. والظاهر كونه مضافًا إلى الفاعل؛ لأنه أبلغ وأمدح، ولأن محبة الله لعبده أصل محبة العبد له، قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(٢).

فمن أعطاه الله تعالى من الحب المذكور نصيبًا فقد حاز ربح الدارين، وفاز بِقُرَّة العين.

ومَن حَرمَه ذلك فقد خسرت صفقته، وبان عَيبه وخَيبته، وفى بعض الكتب

---

(١) آية رقم ٦١ من سورة يونس. (٢) سورة المائدة الآية ٥٤.

المنزّلة على بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: «يا عبدى، أنا لك محبّ، فبحقّى عليك كن لى محبًّا».

حكى عن بعضهم أنه قال: «اشتريت جارية فسمعتها فى شطر الليل، وهى تقول: إلهى، بحبّك إياى إلا ما غفرت لى، فقلت لها: لا تقولى هكذا، ولكن قولى: بحبّى إياك.

فقالت: يا سيدى، بمحبّته إياى، مَنَّ علىَّ بالإسلام، وأيقظنى لعبادته، وكثير من عباده نيام».

قال زيد بن أسلم، رضى الله عنه: «إن الله عزَّ وجلَّ لَيحبّ العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول له: اصنع ما شئت فقد غفرتُ لك».

إلهى: أمرتَ بالرجوع إلى الآثار فارجعنى إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السرِّ عن النظر إليها، ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها إنك على كل شىء قدير

الآثار التى أُمر العبد بالرجوع إليها بعد وصوله إلى صريح المعرفة وخالص التوحيد هى: المكوّنات التى يلزمه إذا تَلَبَّس بها حق أو يكون له فيها منفعة أو حظ، فسأل الله تعالى أن يرجعه إليها على حالة شريفة مضادَّة للحالة التى كان عليها قبل السلوك، وهو كونه مكسوًّا بكسوة الأنوار، وهى أنوار اليقين، ومؤيدًا بهداية الاستبصار، وهى العلم الراسخ المتين.

فإذا رجع العبد إلى الآثار على هذا الأسلوب والمعيار لم تؤثّر فيه ولم تأخذ منه لكمال حريته عنها، وكان رجوعه إلى مولاه فى مآل أمره فى مثل دخوله فيها عليه فى ابتداء أمر سلوكه مصون السر عن النظر إليها بعين الاستحسان،

مرفوع الهمة عن الاعتماد عليها فى نوال أو إحسان. وقد تقدَّم هذا المعنى عند قوله [فإن نزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ... الخ].

الفصل الثانى

إلهى: هذا ذلى ظاهر بين يديك وهذا حالى لا يخفى عليك

هذا تطارح منه على مولاه، ومبالغة فى بثّ شكواه، وتلّطف فى سؤال رحماه. وبمثل هذا يُرجى إجابة الدعاء، واستحقاق جزيل العطاء. وقد قالوا: أبواب الملوك لا تُقرع بالأيدى، بل بنَفس المحتاج.

وقال بعضهم: قلت للنهرجورى: أجد فى قلبى قسوة، وقد شاورت فلانًا فأشار علىَّ بالصوم، فلم تزُل، وشاروت آخر فأشار علىَّ بالسهر، فلم تزُل، فقال النهرجورى، رضى الله عنه: خلطا بك أحضر الملتَزَم[1] إذا نام الناس وتضرَّع، وقل: تحّيرت فى أمرى فخذ بيدى، ففعل، فزالت القسوة. وقال الشاعر:

وما رمت الدخول عليه حتى ... حللت محلة العبد الذليل
وأغضيت الجفون على قذاها ... وصنت النفس عن قال وقيل
وذل العبد للمولى غناه ... وغايته إلى العزِّ الطويل

فذل العبد لمولاه غاية العز والفخر.

وقال ذو النون المصرى، رضى الله عنه: «ما أعز الله عبدًا بعز هو أَعَزُّ له

---

(١) مكان بالحرم المكى.

من أن يدله على ذل نفسه، وما أذلَّ الله عبدًا بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه».

منك أطلب الوصّول إليك

هذه صفة العارفين المحققين: لا يسبق نظرهم إلا إلى الله، ولا يطلبون إلا منه، ولا يكون مطلبهم إلا الوصول إليه لا غير.

وبك أستدل عليك

أى: لا بغيرك؛ لأنك الظاهر قبل وجود كل شيء ظاهر، بل بظهورك خَفيت المظاهر.

وقيل لبعض العارفين: «بِمَ عرفتَ ربك؟ فقال: عرفت ربى بربى، ولولا ربى ما عرفت ربى».

وقال أبو القاسم النصر أباذى، رضى الله عنه: «الأشياءُ أدلة منه، ولا دليل عليه سواه».

وقال أحمد بن أبى الحوارى، رضى الله عنه: «لا دليل على الله سواه، وإنما العلم يطلب لآداب الخدمة».

فاهدنى بنورك إليك

وهو نور الإيمان واليقين.

وأقمنى بصدق العبودية بين يديك

حتى أكون ممتثلاً لأمرك مستسلمًا لقهرك.

إلهى علمنى من علمك المخزون

إضافة العلم إلى الله هنا إضافةُ تشريف. والعلم المخزون هو العلم اللدنّى الذى اختزنه عنده فلم يؤته إلا للمخصوصين من الأولياء، كما قال الله تعالى فى شأن الخضر عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾[1].

وفى حديث أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى، فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغِرَّةِ بالله».

قال بعضهم: «هى أسرار الله تعالى يبديها الله إلى أنبيائه وأوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة، وهى من الأسرار التى لم يطّلع عليها أحدٌ إلا الخواص.

وقال أبو بكر الواسطى، رضى الله تعالى عنه، فى قوله تعالى ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ﴾[2]: «هم الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب، وفى سرِّ السرِّ، فعرَّفهم ما عرَّفهم، وخاضوا فى بحر العلم بالفهم لطلب الزيادة، فانكشف لهم من مذخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النظر بحارًا فاستخرجوا الدرر والجواهر ونطقوا بالحكمة.

وصنى بسرّ اسمك المصون

الصونُ المطلوب: هو صيانته عن رؤية الأغيار بما يتجلّى لقلبه من سرّ الأسرار.

إلهى: حققنى بحقائق أهل القرب

حقائق أهل القرب هى: الفناء فى التوحيد، والتحقّق بالتجريد، فتبطل فى

---

(١) من الآية: ٦٥ من سورة الكهف.

(٢) آية ٧ من سورة آل عمران.

حقهم رؤية الأسباب، ويزول عن مطمح نظرهم كلّ ستر وحجاب، كما قال سيدى أبو الحسن، رضي الله تعالى عنه فى «حزبه الكبير»: وأقرب منّى بقدرتك قُرْبًا تمحق به عنّى كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك فلم يحتج لجبريل رسولك، ولا لسؤاله منك، وحجبته بذلك عن نار عدوك، وكيف لا يحجب عن مضرَّة الأعداء من غيبته عن منفعة الأحباء، كلّا إنى أسألك أن تغيبنى بقربك منى حتى لا أرى ولا أحسَّ بقرب شيء ولا ببعده عنّى إنك على كل شيء قدير.

واسلك بى مسالك أهل الجذب

أهل الجذب هم المحبوبون، ومسالكهم فى غاية السهولة لا تعب عليهم فيها ولا مشقّة، بل يجدون اللذّة والحلاوة فى أعمالهم، وذلك من قِبل أنه أخرجهم من أسر نفوسهم، وتولّاهم بكلاءته ورعايته من غير مجاهدة منهم ولا مكابدة.

إلهى اغننى بتدبيرك لى عن تدبيرى وباختيارك لى عن اختيارى وأوقفنى على مراكز اضطرارى

المنفرد بالتدبير والاختيار والمشيئة والاقتدار هو الله عزَّ وجلَّ، فمن كان له دعوى فى شيء من ذلك فقد نازع الله تعالى فى ربوبيته وخلع عن عنقه ربقة عبوديته، فلذلك سأله وطلب منه أن يغنيه عن تدبيره واختياره، وأن يوقفه على مراكز اضطراره ليكون متحققًا بصفاته، ومتعلّقًا بصفات مولاه. وقد تقدَّم هذا المعنى غير مرَّة. والمراكز: مواضع الاستقرار والثبوت، وهى استعارة حسنة.

إلهى أخرجنى من ذل نفسى

ذلّ النفس الذى طلب الإخراج منه هو ذلّها لغير الله تعالى بالطمع

والحرص. وقد تقدَّم هذا المعنى عند قوله [ما بسقت أغصان ذلّ إلّا على بذر طمع].

وطهرنى من شكى وشركى قبل حلول رمسى

الشك والشرك هما سبب وجود الطمع والحرص الموجبين لوقوع الذل والهوان وهذه الأوصاف كلّها مجانبة لحقائق الإيمان والتوحيد، عافانا الله منها، والشكُّ: ضيقُ الصدر عند إحساس النفس بأمر مكروه يصيبها، فإذا ضاق صدره بسبب ذلك أظلم قلبه وأصابه من أجله الهمّ والحزن، وطهارته منه إنما تكون بوجود ضدّه، وهو اليقين، فبه يتسع الصدر وينشرح، ويزول عنه الحرج والضيق، وبقدر احتظاء القلب من نور اليقين يكون انشراح الصدر واتساعه، وعند ذلك يجد القلبُ الرَّوْحَ والفرح بالله تعالى. وبفضله، وفى الحديث عن رسول الله ﷺ (إن الله تعالى بقسطه وعدله جعل الروْح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهمّ والحزن فى الشك والسخط).

والشركُ: تعلق القلب بالأسباب عند غفلته عن المسبب ونسيانهُ له، تعلّق العبد بالشِّرْك، ويكون مبدأ ذلك هيجان الشهوة عند استيلاء ظلمة الشك على القلب فيحلوله حينئذ الهوى، فيفزع إذ ذاك إلى الأسباب التى يتوصّل بها إلى بغيته إذ لا يرى غيرها فيرتبك من أجل ذلك فى حبائل الشِرك، وطهارتُه منه بضدّه وهو: نور التوحيد الذى يقذفه الحق تعالى فى قلبه فتطمئن بذلك نفسه وتسكن عن الشره والطيش الذى أصابها، وكلما قوى نور التوحيد فى قلبه كان خلاصه من الشرك أكثر فتُحمى عنه الأسباب، ويثبت فيه خالص التوحيد.

فإذا تطهّر العبد من الشك والشرك تولاه الله تعالى بالهداية والتسديد، والمعونة والتأييد.

وفى أخبار داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أن الله أوحى إليه: يا داود هل تدرى متى أتولاهم: إذا طهّروا قلوبهم من الشرك ونزعوا من قلوبهم الشك.

بك أستنصر فانصرنى، وعليك أتوكل فلا تكلنى، وإياك أسأل فلا تخيبنى، وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى، وببابك أقف فلا تطردنى

تَعَلقَ بالله تعالى فى كل مطلب من هذه المطالب وأضرب عن الوسائط والأسباب، وذلك من تحققه بالتوحيد الذى سأل من مولاه أن يحققه به بتطهيره من أضداده. ومعانى هذه الكلمات قريب بعضها من بعض.

قال أبو الحسن علىّ بن هند الفارسى، رضى الله تعالى عنه،: اجتهد فى أن لا تفارق باب سيدك بحال؛ فإنه ملجأ الكل، فمن فارق تلك السُّدة[1] لا يرى بعدها لقدميه قرارًا ولا مقامًا.

إلهى تقدّس رضاك عن أن تكون له علة منك، فكيف تكون له علة منىّ

رضا الله تعالى صفة من صفاته. وصفاته قديمة، ولذلك امتنع عليها سبقية العِلل. والقديم لا يكون مسبوقًا بشىء.

وإذا كانت صفاته العلية منزّهةً عن أن يكون لها علةٌ منه، فكيف يكون لها علة من غيره. فرضا الله تعالى لا علة له ولا سبب، بل رضاه وسخطه هما سبب أعمال العاملين حسنِها وسيئِها، رضى عن قوم فاستعملهم بأعمال أهل

---

(١) السدة [بضم السين] فناء البيت أو باب الدار.

الرضا، وسخط على قوم فاستعملهم بأعمال أهل السخط، قال أبو بكر الواسطى، رضى الله عنه: «الرضا والسخط نعتان من نعوت الحق يجريان على الأبد بما جريا فى الأذل يُظْهران الوسمين على المقبولين والمطرودين، فقد بانت شواهد المقبولين بضيائها عليهم، كما بانت شواهد المطرودين بظلامها عليهم؛ فأنى تنفع من ذلك الألوان المصفرة، والأكمام المقصَّرة، والأقدام المنتفخة؟!

أنت الغنى بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك فكيف لا تكون غنيا عنى

الكلام فى الغنى كالكلام فى الرضا، وكأن المؤلف، رحمه الله تعالى، قصد فى مناجاته بهذه الكلمات الاسترضاء والاستعطاف، فطلب المسامحةَ والتجاوز عن أعماله المدخولة وأحواله المعلولة، وذلك من أحسن المقاصد للداعى.

إلهى: إن القضاء والقدر غلبنى، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرنى، فكن أنت النصير لى حتى تنصرنى وتنصربى، وأغننى بفضلك حتى أستغنى بك عن طلبى

هذا اعتذار واعتراف، والله تعالى أكرم من أن يردّ عذر من اعتذر إليه، أو يخيِّب أمل من اعترف بذنبه وأقرَّ به لديه، يقال: إن العبد يبتهل إلى الله تعالى فى الاعتذار، والحق سبحانه وتعالى يقول له: عبدى، لو لم أقبل عذرك لما وفَّقتك للاعتذار.

وقال الكتانى، رضى الله تعالى عنه: «لم يفتح الله تعالى لسان المؤمن بالمعذرة إلا لفْتح باب المغفرة» فلا جرم لمّا وثق بذلك، وقوى رجاؤه فيه طلب منه النصرة له على أعدائه، ولم يقتصر على ذلك، بل أضاف إليه طلب النصرة له؛ لتكون تلك النصرة بِسَببه وعلى يديه.

كما قال أبو الحسن، رضى الله تعالى عنه،: «واجعلنا سَبَب الغنى لأوليائك وبرزخًا بينهم وبين أعدائك».

ثم لم يقنع بذلك حتى طلب منه أن يغنيه بما يستغنى به عن الطلب منه، وهو ما يُؤتيه من فضله العظيم وكرمه الجسيم، وهذه هى غاية السعادة، كما قال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه: والسعيد حقًّا، مَنْ أَغْنَيتَه عن السؤال منك.

أنت الذى أشرقتَ الأنوارَ فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك، أنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجئوا إلى غيرك، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم

سبب إيحاش العوالم لهم ما هى عليه من الفاقة، والافتقار، والحاجة والاضطرار فكلّ واحد منها جالب لنفسه، طَالبٌ لحظّه من كمال نقصه، ووفاء بَخْسِه، والله تعالى غنىٌّ حميد، عزيزٌ مجيد، وهو مع ذلك لطيف بعباده، عطوف عليهم، متوّدد إليهم، رءوف بهم، فلّما شاهدوا هذا كله مشاهدة يقين ومعاينة بإشهاده إيّاهم لم يتمالكوا أن أحبّوه، وآوَوْا إليه، وقصروا همهم عليه، وجعلوه معتمد أنسهم. واستغنوا به عن أبناء جنسهم، فحصلوا إذ ذاك على غاية النعيم، وفازوا بالحظ العظيم، قال ذو النون المصرى، رضى الله عنه،: «بينما أنا أسير فى بعض البوادى إذ لقيتنى امرأة، فقالت لى: مَن أنت؟ فقلت: رجل غريب. فقالت: وهل توجد مع الله أحزان الغربة».

وكتب «مطرف بن عبد الله بن الشخير» إلى عمر بن عبد العزيز، رضى الله تعالى عنهما: «.. وليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه؛ فإنّ لله عبادًا استأنسو بالله. فكانوا فى وحدتهم أشدَّ استئناسًا من الناس فى كثرتهم، وَأَوْحَش ما يكون

الناس آنس ما يكونون، وآنس ما يكون الناس أَوْحَش ما يكونون.

وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم

لما تولّى الله هدايتهم إلى طريق التوحيد والمعرفة أبان لهم علامات ذلك ودلائله، فعند نظرهم فى تلك العلامات والأدلة انشرحت صدورهم بأنوار الإيمان واليقين، فلم يتداخلهم ولم يخالجهم ريب.

والمعالم: جمع «مَعْلَم» كأنه - رحمه الله تعالى - عرض فى هذه الكلمات بالمطلب الذى بحصوله له يستغنى عن الطلب، وهو إشراق الأنوار فى قلبه، وإزالة الأغيار عن سرّه، وإيناسُه له، وهدايته إياه. وهذه الأربعة مطالب متضمنة لِأَسْنَى الرغائب.

ماذا وجد مَن فَقدك وما الذى فقد من وجدك

قد تقدَّم، غير ما مرَّة، أنَّ ما سوى الله تعالى عدم وظُلمة، وأن الوجود الحق والنور المتحقق إنما هو الله عزَّ وجل.

فإذا كان الأمر على هذا صحَّ ما قاله المؤلف، رحمه الله تعالى، ها هنا. وكان حَقًّا لا مِريةَ فيه.

قال أبو على الروذبارى، رضى الله عنه: سألنى أبو بكر الدقاق، رضى الله عنه، فقال لى: يا أبا علىّ، لِمَ ترك الفقراء أخذ البُلْغَة فى وقت الحاجة؟ فقلت: لأنهم يستغنون بالمعطِى عن العطاء. فقال: نعم، ولكن وقع لى شىء آخر. فقلت: هات أفدنى ما وقع لك؟ فقال: لأنهم قوم لا ينفعهم الوجود؛ إذ الله فَاقَتُهم، ولا يضرهم الفاقة إذ الله وجودهم».

وكان أبو حمزة البغدادى، رضى الله تعالى عنه، يقول فى مناجاته: «اللهم إنك

تعلم أنى من أفقر خلقك إليك؛ فإن كنت تعلم أن فقرى إليك بمعنى هو غيرك، فلا دَّ فقرى».

لقد خابَ من رضى دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك متحولاً

هذا بَيِّنٌ، وهو مبنىّ على ما تقدَّم الآن من الكلام.

رؤى الشبلى، رضى الله تعالى عنه، فى المنام بعد وفاته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: لم يطالبنى بالبراهين على الدعاوَى، إلا على شىء واحد؛ قلت يومًا: لا خسارة أعظم من خسارة الجنة ودخول النار. فقال: وأىّ خسارة أعظم من خسران لقائى. وفى معناه أنشدوا:

سَهَرُ العيون لغير وجهِك باطلٌ وبكاؤُهن لغيرِ فقدك ضائعُ

وقال بعضهم: كان عندنا رجل مكث عندنا ثلاث عشرة سنة يصلّى كل يوم وليلة ألف ركعة حتى أُقعد من رجليه، فإذا صلّى العصر احتبى[1] واستقبل القبلة، ثم قال: عجبتُ للخليقة كيف أرادت بك بدلاً، بل عجبت للخليقة كيف استأنست بسواك، ثم يسكت إلى المغرب.

إلهى: كيف يُرجى سواك وأنت ما قطعتَ الإحسانَ.
وكيف يُطلب من غيرك وأنت ما بدَّلت عادة الامتنان

هذا تعجيب ممن كان على هذا الوصف، وهو أعجب من كلّ عجيب، والمعنى فى ذلك بيّن.

يا من ذاق أحباءه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين

---

(١) احتبى بالثوب: اشتمل به، واحتبى فى جلسته: ضم ركبتيه إلى صدره.

التملّق: هو التلطّف فى التودّد، وترتبه على ذوقهم لحلاوة مؤانسته بيّن.

ويامن ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين

استعزازهم بعزّته هو رفع همهم عن تعليقها بغير الله تعالى تيهًا، وتكبّرًا عليها، وثقةً منهم به، وذلك لما ألبسهم من ملابس هيبته حتى لم يهابوا معه غيره، ولم تتأله قلوبهم إلى سواه، ولذلك قالوا: المعرفة حَقْر الأقدار سوى قدره، ومحو الأذكار سوى ذكره.

قال بعض المشايخ: «إذا عظم الربُّ فى القلب صَغُر الخلق فى العين».

وقيل فى معنى قوله تعالى ﴿تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾[1] قال: بأن يكون لك بك معك بين يديك.

أنت الذاكر من قبل ذكر الذّاكرين، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب، ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين

الحقّ تعالى له الأولوية فيما ذكر كما ذكر.

قال أبو يزيد، رضى الله تعالى عنه: «غلطت فى ابتداء أمرى فى أربعة أشياء: توهّمت أنى أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه، فلما انتهيت رأيت ذكرَه سَبِقَ ذِكرى، ومعرفتَه تقدمت معرفتى، ومحبتَه أقدم من محبتى، وطَلَبه لى أول حتى طلبته».

فإذا كانت له الأولية فى ذلك لم يبق للعبد وسيلة يتوسّل بها سوى فضله وكرمه.

---

(١) سورة آل عمران. الآية: ٢٦

ومما يوافق ما ذكره المؤلف، ما حكى عن الجنيد، رضى الله تعالى عنه، أنه كان يقول فى مناجاته: «يا ذاكر الذاكرين بما به ذكروه، ويا بادئ العارفين بما به عرفوه، ويا موفّق العابدين لصالح ما عملوه، من ذا الذى يشفع عندك إلا بإذنك، من ذا الذى يذكرك إلا بفضلك».

واستقراضُ الربّ من عبده ما وهبه له غاية فى ترفيعه لقدره، وإبانته لشرفه، وَوَعْدُه مع ذلك جزيل الثواب علقه نهايةٌ فى إكرامه له وتفضله عليه.

قال بعضهم: مَلَّكَكَ، ثم اشترى منك ما مَلَّكَك، ليثبت لك معه نسبة، ثم استقرض منك ما اشتراه، ثم وعدك عليه من العِوض أضعافًا بيّن فيه أن نعمه وعطاياه بعيدتان أن يكونا مشوبتين بالعِلل.

إلهى: اطلبنى برحمتك حتى أصل إليك، واجذبنى بمنتك حتى أقبل عليك

لا سبيل للعبد إلى وصوله إلى الله تعالى إلا برحمته؛ فلذلك طلب منه أن يطلبه بها ولا يتأتى له الإقبال عليه إلا بمنّته، فلذلك طلب منه أن يجذبه إليه بها، وذلك لتحقق الأولوية التى ذكرناها من قبل.

إلهى إن رجائى لا ينقطع عنك وإن عصيتك، كما أن خوفى لا يزايلنى وإن أطعتك

الخوف والرجاء حالان يتعاقبان على قلب العبد، واعتدالها واستواؤهما هو المطلوب، سواء كان العبد فى طاعة أو فى معصية، وقد مثّلوا ذلك بكفتى الميزان وجناحى الطائر، وهذا من أعلى مشاهدة العارفين والأولياء، وذلك لأن منشأهما عندهم إنما هو من شهود الصفةالمخوفة والمرجوّة، وصفات الله تعالى لا تفاوت فيها، فكذلك مشاهدتها لا تفاوت فيها، فإن وقع فيها تفاوتٌ كانت مشاهدة

ناقصة، وأحوالاً معلولة؛ فلذلك يتصوَّر وجود كمال الخوف مع عمل العبد بالطاعة، وغلبة الرجاء مع ارتكابه المعصية كما وصف به المؤلف نفسه.

قال يحيى بن معاذ، رضي الله تعالى عنه: «يكاد رجائى لك مع الذنوب يغلب رجائى لك مع الأعمال؛ لأنى أجدنأعتمد فى الأعمال على الإخلاص، وكيف أحررها وأنا بالآفة معروف؟! وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف» وقد تقدَّم من كلام المؤلف، رحمه الله تعالى [من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل].

ومن دعاء سيدى أبى العباس، رضى الله تعالى عنه: «.. إلهى، معصيتك نادتنى بالطاعة، وطاعتك نادتنى بالمعصية، ففى أيهما أخافك، وفى أيهما أرجوك؟ إن قلت بالمعصية قابلتنى بفضلك فلم تدع لى خوفًا، وإن قلت بالطاعة قابلتنى بعدلك فلم تدع لى رجاءً، فليت شعرى، كيف أرى إحسانى مع إحسانك، أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك».

ومِن كلامه أيضًا، رضى الله تعالى عنه: «العامَّةُ إذا خُوِّفوا خافوا، وإذا رُجِّوا رَجُوا. والخاصَّة متى خُوِّفوا رَجَوا، ومتى رُجُّوا خافوا».

قال فى «لطائف المنن»: «ومعنى كلام الشيخ هذا: أن العامة واقفون مع ظواهر الأمر؛ فمتى خُوِّفوا خافوا؛ إذ ليس لهم نفوذ إلى ما وراء العبارة بنور الفهم كما لِأَهْل الله، وأهل الله إذا خُوِّفوا رَجَوا، عالمين أنَّ مِن وراء خوفهم وما به خُوِّفوا أوصاف المرجوّ الذى لا ينبغى أن يُقْنَط من رحمته، ولا أن يُيْأَس من مِنَّته فاحتالوا على أوصاف كرمه علمًا منهم أنه ما خَوَّفهم إلا ليجمعَهُم عليه وليردَّهم بذلك إليه، وإذا رجوا يخافون غَيب مشيئته الذى هو من وراء رجائهم، وخافوا أن يكون ما أظهر من الرجاء اختبارًا لعقولهم

هل تقف مع ظاهر الرجاء، أو تنفذ إلى خوف ما بطن فى مشيئته، فلذلك أثار الرجاء خوفهم.

إلهى: قد دفعتنى العوالم إليك

إنما دفعته العوالم إليه لِما تضمنته من السمات الموحشة، كما تقدَّم. ولقد أحسن من قال: «لا وحشة مع الله، ولا راحة مع غير الله».
وفى هذا المعنى أنشدوا:

يا قرَّةَ العين سل عَيْنِي هل اكتحلت بمنظرٍ حسن مُذْ غِبْتَ عن عَيْنِي

وقد أوقفنى علمى بكرمك عليك

إذ الكريم لا تتخطاه آمال المؤمِّلين، ولا يتوجّه نحو سواه طلب الطالبين.

إلهى: كيف أخيب وأنت أملى، أم كيف أهان وعليك متكلى

لمّا تعلّق بالله تعالى وتوكل عليه استبعد أن يخيب أمله، أو يناله هوانٌ يؤوده تحمله.

إلهى: كيف أستعزُّ وأنت فى الذلة أركزتنى، أم كيف لا أستعز وإليك نسبتنى.
أم كيف لا أفتقر وأنت الذى فى الفقر أقمتنى، أم كيف أفتقر وأنت الذى بجودك أغنيتَنى

تلوُّنه فى هذه الأوصاف المتضادَّة لِما يغلب عليه من مشاهدة ما يوجبها.
والذلة المُثبتَة هنا هى: ذلة الخليقة والعبودية.
والنسبة التى أشار إليها هى: سِرُّ الخصوصية.

والافتقار بمعنى الذلة، والاستغناء بمعنى العزَّة.

قال بعضهم: «رأيت ذلّ كلِّ ذى ذُلٍّ فزاد ذُلى على ذلّهم، ونظرت عزَّ كلِّ ذى عزٍّ فزاد عزِّى على عزهم».

وقال الشبلى، رضى الله تعالى عنه: «لقد ذللت حتى عَزَّ فى ذلى كلُّ ذى ذُلٍّ، وعززت حتى ما تعزز أحدٌ إلا بى وبمن به تعززت».

أنت الذى لا إله غيرك تعرّفت لكل شىء فما جهلك شىء. وأنت الذى تعرّفت إلى فى كل شىء، فرأيتك ظاهرًا فى كل شىء.

فأنت الظاهر لكل شىء

هذا كلّه تقدَّم معناه ولفظه فى كلام المؤلف على غاية الكمال والتمام.

والحاصل منه أنَّ الظهور التامّ لله تعالى بكل اعتبار، ثم إنه عبّر هنا عن ذلك بعبارة لم يذكرها فيما تقدم وهو قوله:

يامن استوى برحمانيته على عرشه فصار العرش غيبًا فى رحمانيته كما صارت العوالم غيبا فى عرشه

كأنه أشار بهذا إلى معنى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾[2] ورحمانية الله: كونه رحمانًا. والرحمن اسم لله تعالى يقتضى وجود كلّ موجود، وهو مشتق من الرحمة، والرحمة، ها هنا، هى: الرحمة العامة التى وسعت كلَّ شىء

---

(١) آية رقم ٥ من سورة طه.

(٢) من الآية ٥٩ من سورة الفرقان.

كما وسع علمه كلَّ شيء في قوله تعالى مخبرًا عن حملة العرش إذ قالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾[1]، ولذلك دخلت تحت مقتضى اسمه «الرحمن» جميع أسمائه تعالى الإيجادية.

ويفهم من معنى «الاستواء» القهرُ والغلبةُ، ومقتضاهما في حقّ الله تعالى ألَّا يكون لغيره وجود مع وجوده، ولا ظهور مع ظهوره فلا جَرم لمّا كان الحق مستويًا برحمانيته على عرشه الذى العوالم كلُّها في طيّه كان العرش غيبًا في الرحمانية مندرجًا فيها والعوالم كلها غيب في العرش؛ لأنها في طيّه، فلا ظهور إذن للعرش، ولا للعوالم، وإنما الظهور التامّ لله عزّ وجل.

مَحقت الآثارَ بالآثارِ

كما بين العوالم والعرش.

ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار

كما بين العرش والرحمانية، ومحيطات أفلاك الأنوار، هي: أسماء الله الحسنى، والله تعالى أعلم.

يامَن احتجب في سرادقات عزّه عن أن تدركه الأبصار

عزَّة الله تعالى اقتضت كونَ كلِّ ما سواه محجوبًا عن رؤيته لله عزّ وجل؛ فإن العزيز معناه المنيع الذى لا يوصل إليه، يقال: «حصن عزيز» إذا تعذّر الوصول إليه.

وقيل: العزيز: الذى لا يَرْتَقي إليه وَهْمٌ طمعًا في تقديره، ولا يسمو إلى صمديته فَهمٌ قصدًا إلى تصويره.

---

(١) آية رقم ٧ من سورة غافر.

وقيل: العزيز: مَن ضلّت العقول فى بحار تعظيمه، وحارت الألباب دون إدراك نعته، وكلّت الألسنة عن استيفاء مدح جلاله، ووصف جماله. قال رسول الله ﷺ: «لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

وذكر السرادقات مضافةً إلى عزّه، واحتجابُه فيها، مجازٌ حسن.

يامن تجلى بكمال بهائه فتحققت عظمته الأسرار

كمال بهائه: محاسن صفاته وأسمائه، فبظهور ذلك وتجلّيه تحققت عظمته أسرار العارفين.

كيف تخفى وأنت الظاهر، أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر، والله الموفق وبه أستعين.

هذا كلّه بَيِّنٌ لا إشكال فيه، والحمد لله، وقد تقدَّم معناه غير ما مرَّة من كلام المؤلف، رحمه الله.

* * *

قال مؤلف هذا الكتاب: وقد نجز بحمد الله ما أردناه، وبلغنا الغرض الذى قصدناه، ولا حول لنا فى ذلك ولا قوّة إلا بالله، وبذلك تبيَّن ما عندى فى مسائل الكتاب، والله تعالى الهادى للصواب.

وقد تقدَّم فى أول هذا التنبيه أنى لم أقصد فيه إلا هذا المعنى، ولم نلتزم كون ما ذكرناه صحيح المبنى، حتى نحتاج إلى نَصب الأدلة والبراهين على ما ادعيناه فيه، وإنما سقنا ذلك على سبيل حكاية مذهب من المذاهب، وللمحكِىّ له ذلك أن يصححه أو يُبطله، إن أحبَّ، وما وقع فيه من توخّى استدلال على مطلب من المطالب فأنا فى ذلك متبرع؛ فإن صحَّ ذلك الدليل فهو المطلوب، وإن بطل لم يلزم من بطلانه بطلان المدلول، وبقى المذهب قابلاً

للتصحيح أو الإبطال من غير أن تتوجّه عليّ مطالبة بذلك، والذى حملنى على سلوك هذا السبيل ما فيه من وجدان السلامة لى من الخطر الذى يتعرَّض له كلّ من يتكلم على طريق التصوّف ممن لا تحقق له فيه ويدَّعى صحة ما ينظر بعقله وفهمه، وينسب ذلك إلى القوم، ولعل شيئًا من ذلك لا يصح عنهم فيكون بذلك مفتريًا كذّابًا عليهم.

ثمَّ فيه من سوء الأدب معهم، والتقدم بين أيديهم مالا يقوم له شىء، وعند ذلك يكون الخرس والبكم وذهاب الحسّ والحركة أولى به وأحمد عاقبة له، لتخلّصه بذلك من شرِّ لسانه وبنانه.

* * *

ثم إنَّ ما قصدناه من ذلك لا يمنع من حصول الفائدة لمن أراده الله تعالى بها، ووفقه لها، فعلى العبد أن يعمل على خلاص نفسه، ولا يلزمه اتّباع مرضاة غيره، فقد قيل: «رضا الناس غاية لا تُدرك».

* * *

ونحن نرغب إلى من وقع بين يديه هذا التأليف، وظهر له فيه خطأ أو تحريف، أن يصلح منه ما ألفاه مختلًا، وأن ينتهج من الاعتذار عنه الطريقة المثلى، وإن ظهر له أن يضع فى ذلك تأليفًا يتضمَّن تنبيهًا وتعريفًا؛ فذلك من المذاهب التى تُرْتضى، ومما لم يزل من شأن مَن قد مضى.

* * *

ونحن نستغفر الله تعالى ممَّا يعلمه منا من التعدّى والجراءة فيما تعرضنا له من بيان كلام الأولياء، والراسخين من العلماء، وتقرير عباراتهم وإشاراتهم من غير اطلاع منَّا على كنهها، ولا بصيرة فيها.

ونستغفره أيضًا مما أقدمنا عليه من إظهار ما ستروه، وإعلان ما أسرُّوه.

ونستغفره أيضًا مما وقع منَّا فيه من ذكر أحوال الأولياء، رضى الله عنهم، ومقاماتهم، وتحريضنا على سلوك طريقهم المستقيم مع إفلاسنا من جميع ذلك، وعدم احتظائنا به.

ونسأله مع ذلك ألَّا يؤاخذنا بما انطوت عليه ضمائرنا، وأكنّته سرائرنا من أنواع القبائح والمعايب التى يعلمها منَّا ولا نعلمها، أو نعلمها ولا تسمح نفوسنا بالتنقى منها، والتنزُّه عنها، اغترارًا منَّا بحلمه، واستهانةً بنظره وعلمه.

ونرغب إليه، جلَّ وعلا، أن يمنَّ علينا بتوبة تمحو عنا كلّ حَوْبة[1] حتى تنقلب أعداؤنا عنا خائبين خاسئين داخرين[2] صاغرين لم ينالوا من تحقق إراداتهم فينا مطلبًا، ولم يبلغوا من عدم إسعافه إيانا بما طلبناه منه مأربًا، وأن يشمل فى ذلك معنا كل مَن أَمَّن على هذا الدعاء ممن سمعه، وممن دعا لنا بمثله من إخواننا المسلمين، ونتوسَّل إليه فى بلوغ الأمل والوصول إلى المبتغى الأجَلّ بمن صرفنا به عن كل جحود وكفور، وأخرجنا على يديه من الظلمات إلى النور سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وحبيب رب العالمين، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه البررة الأكرمين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الحوبة - بضم الحاء وفتحها -: الإثم.

(٢) داخرين: أذلاء.

الفهرس

الصفحة

«سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث جعل الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه» ٥

«ربما أطلعك على غيب ملكوته وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد» ٧

«من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه، وسببًا لجر الوبال إليه» ٨

«حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى، وحظها فى الطاعات باطن خفى ومداواة ما يخفى صعب علاجه» ١١

«ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك» ١٢

«استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك» ١٥

«غب عن نظر الخلق إليك بنظر الله إليك، وغب عن شهود إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك ١٩

«من عرف الحق شهده فى كل شىء» ٢١

«ومن فنى به غاب عن كل شىء» ٢١

«ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئًا» ٢١

«إنما حجب الحق عنك شدة قربه منك» ٢٢

«إنما احتجب لشدة ظهوره، وخفى عن الأبصار لعظيم نوره» ٢٢

الصفحة

«لا يكن طلبك تسببًا إلى العطاء منه فيقل فهمك عنه، وليكن طلبك لإظهار العبودية، وقيامًا بحقوق الربوبية» ٢٣
«كيف يكون طلبك اللاحق سببًا فى عطائه السابق» ٢٤
«جل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل» ٢٤
«عنايته فيك، لا لشىء منك، وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته، لم يكن فى أزله إخلاص أعمال، ولا وجود أحوال، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال، وعظيم النوال» ٢٥
«علم أن العباد يتشوفون إلى ظهور سر العناية فقال (يختص برحمته من يشاء) وعلم أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل اعتمادًا على الأزل فقال (إن رحمة الله قريب من المحسنين)» ٢٥
«إلى المشيئة يستند كل شىء» ٢٦
«ولا تستند هى إلى شىء» ٢٦
«ربما دهلم الأدب على ترك الطلب اعتمادًا على قسمته، واشتغالاً بذكره عن مسألته» ٢٧
«إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال، وإنما ينبه من يمكن منه الإهمال» ٢٩
«ورود الفاقات أعياد المريدين» ٢٩
«ربما وجدت من المزيد فى الفاقات مالا تجده فى الصوم والصلاة» ٣١
«الفاقات بسط المواهب» ٣٢
«إن أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك (إنما الصدقات للفقراء والمساكين)» ٣٢
«تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بذلك يمدك بعزه، تحقق بعجزك يمدك بقدرته تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته» ٣٣
«ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة» ٣٣

الصفحة

«من علامات إقامة الحق لك فى الشىء، إدامته إياك فيه مع حصول النتائج» ٣٥
«من عبر من بساط إحسانه أصمتته الإساءة، ومن عبر من بساط إحسان الله إليه لم يصمت إذا أساء» ٣٥
«تسبق أنوار الحكماء أقوالهم، فحيث صار التنوير وصل التعبير» ٣٩
«كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز» ٤٠
«من أذن له فى التعبير فهمت فى مسامع الخلق عبارته، وجليت إليه إشارته» ٤٧
«ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار» ٤٧
«عبارتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد، فالأول حال السالكين، والثانى حال أرباب المكنة والمحققين» ٤٨
«العبارات قوت العائلة المستمعين، وليس لك إلا ما أنت له آكل» ٤٩
«ربما عبر عن المقام من استشرف عليه، وربما عبر عنه من وصل إليه، وذلك ملتبس إلا على صاحب بصيرة» ٥١
«لا ينبغى للسالك أن يعبر عن وارداته فإن ذلك يقل عملها فى قلبه، ويمنعه وجود الصدق مع ربه» ٥٢
«لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق إلا أن ترى أن المعطى فيهم مولاك، فإذا كنت كذلك فخذ ما وافقك العلم» ٥٢
«ربما استحيا العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه، لاكتفائه بمشيئته، فكيف لا يستحيى أن يرفعها إلى خليقته» ٦٥
«إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه، فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقًا» ٧١
«من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل

الصفحة

عن القيام بالواجبات» ٧٥
«قيد الطاعات بأعيان الأوقات كى لا يمنعك عنها وجود التسويف، ووسع عليك الوقت كى تبقى لك حصة الاختيار» ٧٧
«علم قلة نهوض العباد إلى معاملته فأوجب عليهم وجود طاعته فساقهم إليها بسلاسل الإيجاب، عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل» ٧٧
«أوجب عليك وجود خدمته وما أوجب عليك إلا دخول جنته» ٧٩
«من استغرب أن ينقذه الله من شهوته، وأن يخرجه من وجود غفلته، فقد استعجز القدرة الإلـهية، وكان الله على كل شيء مقتدِرا» ٨٢
«ربما وردت الظلم عليك ليعرفك قدر ما أنعم به عليك» ٨٥
«من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها» ٨٥
«لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك، فإن ذلك مما يحط من وجود قدرك» ٨٧
«تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال» ٨٨
«لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج، أو شوق مقلق» ٨٨
«كما لا يحب العمل المشترك كذلك لا يحب القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل عليه» ٨٩
«أنوار أذن لها فى الوصول، وأنوار أذن لها فى الدخول» ٨٩
«ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشوًّا بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت، فرغ قلبك من الأغيار يملؤها بالمعارف والأسرار» ٩٠
«فلا تستبطئ منه النوال، ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال» ٩١
«حقوق فى الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها،

الصفحة

إذ ما من وقت يرد إلا والله عليك فيه حق جديد، وأمر أكيد، فكيف تقضى فيه حق غيره وأنت لم تقض حق الله فيه» ٩١
«ما فات من عمرك لا عوض له، وما حصل لك منه لا قيمة له» ٩٢
«ما أحببت شيئًا إلا كنت له عبدًا، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدًا» ٩٥
«لا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك، وإنما أمرك بهذه ونهاك عن هذه لما يعود عليك» ٩٧
«لا يزيد فى عزه إقبال من أقبل عليه، ولا ينقص من عزه إدبار من أدبر عنه» ٩٧
«وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به وإلا فجل ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل هو بشيء» ٩٨
«قربك منه أن تكون مشاهدا لقربة، وإلا فمن أين أنت ووجود قربه» ٩٩
«الحقائق ترد فى حال التجلى مجملة وبعد الوعى يكون البيان، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه» ٩٩
«متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد عليك، وإن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها» ١٠١
«الوارد يأتى من حضرة قهار، لأجل ذلك لا يصادمه إلا دمغه (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق)» ١٠٢
«كيف يحتجب الحق بشيء والذى يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر» ١٠٢
«لا تيأس من قبول عمل لم تجد فيه وجود الحضور، فربما قبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلًا» ١٠٢

الصفحة

«لا تزكين واردًا لا تعلم ثمرته، فليس المراد من السحابة الإمطار، وإنما المراد منها وجود الإثمار» ١٠٢
«لا تطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها وأودعت أسرارها، فلك فى الله غنى عن كل شىء وليس يغنيك عنه شىء» ١٠٣
«تطلعك إلى بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له، واستيحاشك لفقدان ما سواه دليل على عدم وصلتك به» ١٠٤
«النعيم وإن تنوعت مظاهره، إنما هو لشهوده واقترابه؛ والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو لوجود حجابه، فسبب العذاب وجود الحجاب، وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم» ١٠٦
«ما تجده القلوب من الهموم والأحزان فلأجل ما متعت من وجود العيان» ١٠٧
«من تمام النعمة عليك، أن يرزقك ما يكفيك ويمنعك ما يطغيك» ١٠٨
«ليقل ما تفرح به يقل ما تحزن عليه» ١١٣
«وإن أردت أن لا تعزل، فلا تتول ولاية لا تدوم لك» ١١٦
«إن رغبتك البدايات زهدتك النهايات، إن دعاك إليها ظاهر، نهاك عنها باطن» ١١٦
«إنما جعلها محلا للأغيار، ومعدنا للأكدار، تزهيدًا لك فيها» ١١٨
«علم أنك لا تقبل النصح المجرد فذوقك من ذواقها ما يسهل عليك وجود فراقها» ١٢١
«العلم النافع هو الذى ينبسط فى الصدر شعاعه، وينكشف به عن القلب قناعه» ١٢١
«خير العلم ما كانت الخشية معه» ١٢٣
«العلم إن قارنته الخشية فلك، وإلا فعليك» ١٢٧

الصفحة

«متى آلمك إقبال الناس عليك، أو توجههم بالذم إليك فارجع إلى علم الله فيك فإن كان لا يقنعك علمه فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم» ١٤٤

«إنما أجرى الأذى على أيديهم كيلا تكون ساكنًا إليهم، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء» ١٤٥

«إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده» ١٤٩

«جعله لك عدوًا ليحوشك به إليه، وحرك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه» ١٥١

«من أثبت لنفسه تواضعًا فهو المتكبر حقا إذ ليس التواضع إلا عن رفعة، فمنى أثبت لنفسك تواضعًا فأنت المتكبر حقًا» ١٥٢

«ليس المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع، ولكن المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع» ١٥٣

«التواضع الحقيقى هو ما كان ناشئًا من شهود عظمته، وتجلى صفته» ١٥٦

«لا يخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف» ١٥٧

«المؤمن يشغله الثناء على الله تعالى عن أن يكون لنفسه شاكرًا وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرًا» ١٥٧

«ليس المحب الذى يرجو من محبوبه عوضًا أو يطلب منه غرضًا، فإن المحب من يبذل لك ليس المحب أن تبذل له» ١٥٨

«لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين، إذ لا مسافة بينك وبينه، حتى تطويها رحلتك، ولا قطيعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك» ١٦٢

«جعلك فى العالم المتوسط بين ملكه وملكوته، ليعلمك جلالة قدرك بين

الصفحة

مخلوقاته وأنك جوهرة تنطوى عليك أصداف مكوناته» ١٧٧
«إنما وسعك الكون من حيث جسمانيتك ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك» ١٧٩
«الكائن فى الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته ومحصور فى هيكل ذاته» ١٧٩
«أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك» ١٨٠
«لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية، إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار ظهرت فى الأفق وليست منه، تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك، وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك، فالنهار ليس منك إليك، ولكنه وارد عليك» ١٨٣
«دل بوجود آثاره على وجود أسمائه، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه، أو بثبوت أوصافه على وجود ذاته، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه.
فأرباب الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته، ثم يردهم إلى شهود صفاته، ثم يرجعهم إلى التعلق بأسمائه، ثم يردهم إلى شهود آثاره.
والسالكون على عكس هذا: نهاية السالكين بداية المجذوبين، وبداية السالكين نهاية المجذوبين، لكن لا بمعنى واحد، فربما التقيا فى الطريق، هذا فى ترفيه، وهذا فى تدليه» ١٨٤
«لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار إلا فى غيب الملكوت، كما لا تظهر أنوار السماء إلا فى شهادة الملك» ١٨٥

الصفحة

«وجدان ثمرات الطاعات عاجلًا بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلًا» ١٨٦
«كيف تطلب العوض على عمل هو متصدق به عليك، أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه إليك» ١٨٦
«قوم تسبق أنوارهم أذكارهم، وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم، وقوم لا أذكار ولا أنوار؛ ذاكر ذكر ليستنير قلبه فكان ذاكرًا، وذاكر استنار قلبه فكان ذاكرًا. والذى استوت أذكاره وأنواره، فبذكره يهتدى وبنوره يقتدى» ١٨٧
«ما كان ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود وفكر» ١٨٨
«أشهدك من قبل أن يستشهدك فنطقت بإلهيته الظواهر، وتحققت بأحديته القلوب والسرائر» ١٨٩
«أكرمك بكرامات ثلاث، جعلك ذاكرًا له، ولولا فضله لم تكن أهلًا لجريان ذكره عليك. وجعلك مذكورًا به، إذ حقق نسبته لديك، وجعلك مذكورًا عنده فتمم نعمته عليك» ١٨٩
«رب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده، ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده» ١٩١
«من بورك له فى عمره أدرك فى يسير من الزمن من منن الله تعالى مالا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة» ١٩٢
«الخذلان كل الخذلان فى أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه، وتقل عوائقك ثم لا ترحل إليه» ١٩٣
«الفكرة سير القلب فى ميادين الأغيار» ١٩٣
«الفكرة سراج القلب فإذا ذهبت فلا إضاءة له» ١٩٤
«الفكرة فكرتان: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان؛ فالأولى

الصفحة

لأرباب الاعتبار، والثانية لأرباب الشهود والاستبصار» ١٩٤
«وقال رضى الله عنه، مما كتب به لبعض إخوانه:
أما بعد: فإن البدايات مجلات النهايات» ١٩٥
«وإن من كانت بالله بدايته، كانت إليه نهايته» ١٩٥
«والمشتغل به هو الذى أحببته وسارعت إليه، والمشتغل عنه هو المؤثر عليه» ١٩٦
«وإن من أيقن أن الله يطلبه صدق الطلب إليه، ومن علم أن الأمور بيد الله أنجمع بالتوكل عليه» ١٩٧
«وأنه لابد لبناء هذا الوجود من أن تنهدم دعائمه وأن تسلب كرائمه» ١٩٧
«فالعاقل من كان بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى قد أشرق نوره، وظهرت تباشيره» ١٩٨
«فصدف عن هذه الدار مغضاً وأعرض عنها موليا فلم يتخذها وطنًا ولا جعلها سكنًا» ١٩٨
«بل أنهض الهمة فيها إلى الله تعالى، وسار فيها مستعينًا به فى القدوم عليه» ١٩٩
«فما زالت مطية عزمه لا يقر قرارها، دائمًا تسيارها إلى أن أناخت بحظيرة القدس وبساط الأنس محل المفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة، فصارت الحضرة معشش قلوبهم إليها يأوون، وفيها يسكنون» ١٩٩
«فإذا نزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذن والتمكين والرسوخ فى اليقين، فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة، ولا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة، بل دخلوا فى ذلك

الصفحة

بالله، ولله، ومن الله، وإلى الله» ٢٠٠
«وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق، ليكون نظرى إلى حولك وقوتك، إذا أدخلتنى، واستسلامى وانقيادى إليك إذا أخرجتنى» ٢٠٢
«واجعل لى من لدنك سلطانًا نصيرًا ينصرنى، وينصر بى، ولا ينصر على، ينصرنى على شهود نفسى، ويغنينى عن دائرة حسى» ٢٠٢
«إن كانت عين القلب تنظر أن الله واحد فى منته، فالشريعة تقتضى أنه لابد من شكر خليقته» ٢٠٣
«وأن الناس فى ذلك على ثلاثة أقسام: غافل منهمك فى غفلته قويت دائرة حسه، وانطمست حضرة قدسه، فنظر الإحسان من المخلوقين، ولم يشهده من رب العالمين إما اعتقادًا فشركه جلى، وإما استنادًا فشركه خفى» ٢٠٤
«وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق، وفنى عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب فهو عبد مواجه بالحقيقة، ظاهر عليه سناها، سالك للطريقة، قد استولى على مداها، غير أنه غريق الأنوار مطموس الآثار قد غاب سكره على صحوه، وجمعه على فرقه، وفناؤه على بقائه، وغيبته على حضوره» ٢٠٥
«وأكمل منه عبد شرب فازداد صحوًا، وغاب فازداد حضورًا، فلا جمعه يحجبه عن فرقه، ولا فرقه يحجبه عن جمعه، ولا فناؤه يصده عن بقائه، ولابقاؤه يصده عن فنائه، يعطى كل ذى قسط قسطه، ويوفى كل ذى حق حقه» ٢٠٦
«وقد قال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، لعائشة رضى الله عنها، لما نزلت براءتها من الإفك على لسان رسول الله ﷺ:

الصفحة

يا عائشة اشكرى: رسول الله ﷺ، فقالت: والله لا أشكر إلا الله. دلها أبو بكر رضى الله تعالى عنه، على المقام الأكمل مقام البقاء المقتضى لإثبات الآثار وقد قال الله تعالى (أن اشكر لى ولوالديك) وقال ﷺ: (لا يشكر الله من لا يشكر الناس). وكانت هى فى ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها غائبة عن الآثار فلم تشهد إلا الواحد القهار» ٢٠٧

«الناس فى ورود المنن على ثلاثة أقسام: فرح بالمنن لا من حيث مهديها ومنشئها، ولكن بوجود متعته فيها، فهذا من الغافلين، يصدق عليه قوله تعالى ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغته..﴾ ٢١٣

وفرح بالمنن من حيث إنه شهدها منة ممن أرسلها ونعمة ممن أوصلها يصدق عليه قوله تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ ٢١٣

وفرح بالله ما شغله من المنن ظاهر متعتها ولا باطن منتها بل شغله النظر إلى الله عما سواه والجمع عليه فلا يشهد إلا إياه يصدق عليه قوله تعالى ﴿قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون﴾» ٢١٣

«وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام، يا داود، قل للصديقين: بى فليفرحوا؛ وبذكرى فليتنعموا» ٢١٧

«والله تعالى يجعل فرحنا وإياك به، وبالرضا منه، وأن يجعلنا من أهل الفهم عنه وأن لا يجعلنا من الغافلين، وأن يسلك بنا مسالك المتقين بمنه وكرمه» ٢١٨

«إلهى أنا الفقير فى غناى، فكيف لا أكون فقيرًا فى فقرى؟ إلهى أنا الجاهل فى علمى فكيف لا أكون جهولاً فى جهلى» ٢١٨

الصفحة

«إلـهى إن اختلاف تدبيرك، وسرعة حلول مقاديرك منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء، واليأس منك فى بلاء» ٢٢٠
«إلـهى منى ما يليق بلؤمى، ومنك ما يليق بكرمك» ٢٢٠
«إلـهى وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى، أفتمنعنى منهما بعد وجود ضعفى؟» ٢٢٠
«إلـهى بإن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنة على، وإن ظهرت المساوىء فبعدلك ولك الحجة على» ٢٢١
«إلـهى كيف تكلنى إلى نفسى وقد توكلت عليك، وكيف أضام وأنت الناصر لى أم كيف أخيب وأنت الحفى بى» ٢٢١
«ها أنا أتوسل إليك بفقرى إليك» ٢٢٢
«وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك ٢٢٢
«أم كيف أشكو إليك حالى وهى لا تخفى عليك» ٢٢٣
«أم كيف أترجم لك بمقالى وهو منك برز إليك» ٢٢٣
«أم كيف تخيب آمالى وهى قد وفدت إليك» ٢٢٣
«أم كيف لا تحسن أحوالى وبك قامت وإليك» ٢٢٤
«إلـهى ما ألطفك بى مع عظيم جهلى، وما أرحمك بى مع قبيح فعلى» ٢٢٤
«إلـهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك» ٢٢٤
«إلـهى ما أرأفك بى، فما الذى يحجبنى عنك» ٢٢٥
«إلـهى، قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك منى أن تتعرف إلى فى كل شىء حتى لا أجهلك فى شىء» ٢٢٥
«إلـهى كلما أخرسنى لؤمى انطقنى كرمك، وكلما آيستنى أوصافى، أطمعتنى منك» ٢٢٧
«إلـهى من كانت محاسنه مساوىء فكيف لا تكون مساويه مساوى» ٢٢٧

الصفحة

«إلـهى: حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذى مقال مقالاً، ولا لذى حال حالاً» ٢٢٨
«إلـهى: كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها هدم اعتمادى عليها عدلك، بل أقالنى منها فضلك» ٢٢٨
«إلـهى: أنت تعلم وإن لم تدم الطاعة منى فعلاً جزمًا فقد دامت محبةً وعزمًا» ٢٢٨
«إلـهى: كيف أعزم وأنت القاهر، وكيف لا أعزم وأنت الآمر» ٢٢٩
«إلـهى: ترددى فى الآثار يوجب بعد المزار، فاجمعنى عليك بخدمة توصلنى إليك» ٢٢٩
«إلـهى: كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك. أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك» ٢٢٩
«وخسرت صفقة عبد لم يجعل له من حبك نصيبًا» ٢٣١
«إلـهى: أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعنى إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها، ومرفوع الهمة من الاعتماد عليها إنك على كل شىء قدير» ٢٣٢
«الفصل الثانى:» ٢٣٣
«إلـهى: هذا ذلى ظاهر بين يديك وهذا حالى لا يخفى عليك» .....
«منك أطلب الوصول إليك» ٢٣٤
«وبك أستدل عليك» ٢٣٤
«فاهدنى بنورك إليك» ٢٣٤

الصفحة

«وأقمنى بصدق العبودية بين يديك» ٢٣٤
«إلـهى علمنى من علمك المخزون» ٢٣٤
«وصنى بسر اسمك المصون» ٢٣٥
«إلـهى: حققنى بحقائق أهل القرب» ٢٣٥
«واسلك بى مسالك أهل الجذب» ٢٣٦
«إلـهى أغننى بتدبيرك لى عن تدبيرى وباختيارك لى عن اختيارى وأوقفنى على مراكز اضطرارى» ٢٣٦
«إلـهى أخرجنى من ذل نفسى» ٢٣٦
«وطهرنى من شكى وشركى قبل حلول دمسى» ٢٣٧
«بك أستنصر فانصرنى؛ وعليك أتوكل فلا تكلنى، وإياك أسأل فلا تخيبنى، وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى، وببابك أقف فلا تطردنى» ٢٣٨
«إلـهى تقدس رضاك عن أن تكون له علة منك، فكيف تكون له علة منى» ٢٣٨
«أنت الغنى بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك فكيف لا تكون غنيًّا عنى» ٢٣٩
«إلـهى: إن القضاء والقدر غلبنى، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرنى فكن أنت النصير لى حتى تنصرنى وتنصر بى واغننى بفضلك حتى أستغنى بك عن طلبى» ٢٣٩
«أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك، ووحدوك، وأنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجئوا إلى غيرك، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم» ٢٤٠

الصفحة

«وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم» ٢٤١
«ماذا وجد من فقدك، وما الذى فقد من وجدك» ٢٤١
«لقد خاب من رضى دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك متحولاً» ٢٤٢
«إلـهى: كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الاحسان، وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان» ٢٤٢
«يا من أذاق أحباءه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين» ٢٤٢
«ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين» ٢٤٣
«أنت الذاكر من قبل ذكر الذاكرين، وأنت البادىء بالإحسان من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب، ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين» ٢٤٣
«إلـهى: إن رجائى لا ينقطع عنك وإن عصيتك، كما أن خوفى لا يزايلنى وإن أطعتك» ٢٤٤
«إلـهى: قد دفعتنى العوالم إليك» ٢٤٦
«وقد أوقفنى علمى بكرمك عليك» ٢٤٦
«إلـهى: كيف أخيب وأنت أملى، أم كيف أهان وعليك متكلى» ٢٤٦
«إلـهى: كيف أستعز وأنت فى الذلة أركزتنى، أم كيف لا أستعز وإليك نسبتنى، أم كيف لا أفتقر وأنت الذى فى الفقر أقمتنى، أم كيف أفتقر وأنت الذى بجودك أغنيتنى» ٢٤٦
«أنت الذى لا إلـه غيرك تعرفت لكل شىء فما جهلك شىء وأنت الذى تعرفت إلى فى كل شىء، فرأيتك ظاهرًا وفى كل شىء» «فأنت الظاهر لكل شىء» ٢٤٧
«يا من استوى برحمانيته على عرشه فصار العرش غيبًا فى رحمانيته كما صارت العوالم غيبًا فى عرشه» ٢٤٧

الصفحة

«محقت الآثار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار» ٢٤٨
«يا من احتجب فى سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار» ٢٤٨
«يا من تجلى بكمال بهائه فتحققت عظمته الأسرار» ٢٤٩
«كيف تخفى وأنت الظاهر، أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر والله
الموفق، وبه نستعين» ٢٤٩